إنسانية الإنسان في الإسلام

جدلية العلاقة بين حقوق الإنسان وواجباته في الإسلام

عرفات عبد الخبير الرميمة

رقم الايداع بدار الكتب الوطنية 99/ 2021م .
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الاولى 1442هـ / 2021م .
مكتبة التاج / صنعاء

المحتويات :

- مقدمة 5

الفصل الأول : كينونة الإنسان قبل الإسلام وبعده

- ما يشبه المدخل 9

1- الإنسان في ظل الحضارات القديمة 9

2- الإنسان في شبه الجزيرة العربية.....12

3- ظهور شمس الإسلام 15

4- بين الجاهلية والإسلام 16

5- المنهج الذي أتى به الإسلام.....19

6- ثلاث قواعد للإسلام 22

- مراجع الفصل الأول 29

الفصل الثاني: المثلث الذي رسمه الاسلام

1- التوحيد 32

2- المساواة 37

2- 1- العبادات وتأكيد مبدأ المساواة 40

2- 2- المؤاخاة بين المسلمين 43

2- 3-غير المسلم في ظل الإسلام 45

3- الحرية 49

3- 1- الحرية والإكراه 53

3- 2- الرق في ميزان الإسلام 57

مراجع الفصل الثاني 62

الفصل الثالث : الانسان الذي نبحث عنه

1- لماذا الإنسان في القـــــــــرآن.....68

2- الانسان الذي نبحث عنه: بأي معنى 70

2- 1- الإنسان مكرمـــــــــــــا 70

2- 2- الإنسان مستخلفـــــــــــا 74

- مراجع الفصل الثالث.....78

الفصل الرابع : ماهية الحقوق في الإسلام

1- حقوق أم واجبات.....81

2 - التأصيل اللغوي.....83

3- القاعدة الذهبية.....84

4 - الأسرة أو المجتمع الصغير.....87

5 - المجتمع أو الأسرة الكبيرة.....91

- مراجع الفصل الرابع.....94

الفصل الخامس: مقاصد الشريعة وتأصيل الحقوق

1 - المنهج المقاصدي.....99

2 - المصلحة أساس المقصد.....100

3 - أنواع المصالح.....102

4 - الأولى والأولى منه 104

- مراجع الفصل الخامس.....106

الفصل السادس : المقاصد التي نريد لا التي نعرف

1- حفظ النفس 108

2- حفظ العقل.....111

3- حفظ حرية التدّين 115

3- 1- حرية التدّين وخاتميه الرسالات السماوية.....117

- الجهاد وحماية حق التدّين 120

4- حفظ النسل.....122

5- حفظ المال 123
- ملاحظات على مقاصد الشريعة.....125
- الخاتمة 131
مراجع الفصل السادس 129
- ملحق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 131
- قائمة المصادر والمراجع 135

مقدمة :

من الطبيعي أن يتبادر الى ذهن القارئ السؤال الآتي :

لماذا الأنسان بالذات ؟ ولماذا الانسان الأن ؟ ولماذا الانسان في الاسلام ؟

والاجابة عن الشق الاول من السؤال هو: أن هناك أجماعاً بين الشرائع السماوية والديانات الوضعية الفلسفات الانسانية والعلوم التجريبية والانسانية على أهمية معرفة ذات الإنسان وماهيته، باعتبارها غاية سامية يجب الوصول اليها، لكنها اختلفت في استخدامها للوسائل الموصلة لتلك الغاية .

فالإنسان هو الموضوع الرئيس والغاية الأولى للدين وللفلسفة في كل العصور وهو وسيلتهما كذلك في الوصول إلى تلك الغاية ، هذا هو السبب في تفرده بالتدّين بما هو عقائد غيبيه وقيم اخلاقية وسلوكية ،وبفعل التفلسف ـ بما هو تأمل واعٍ ـ دون غيره من المخلوقات .

وبالنسبة للفلسفة يعتبر الانسان الغاية التي تحاول الوصول اليها ـ ووسيلتها في الوصول لتلك الغاية ـ خالق لها ومخلوق بها ولها في الوقت نفسه ،هو الموضوع الذي تحاول الفلسفة سبر أغواره وفك طلاسمه وتفتيت أجزائه وإعادته إلى بذوره الأولى من أجل هضمه وتمثله ومن ثم إعادة تشكليه ، وهو أيضا الذات التي تقوم بمحاولة الوصول إلى موضوعها والاهم انه الوسيلة التي تصل بها الذات إلى فهم موضوعها .

فالفلسفة في كل العصور تحاول أن تسأل دائماً : ما هو الإنسان ؟ وأين موقعه الحقيقي في الكون ؟ فالإنسان هو السائل وهو المجيب عن السؤال ، مما دفع بعض الفلاسفة للقول بأن الفلسفة برمّتها تعد تساؤلا للإنسان وعنه في عين الوقت، أو كما قالوا بأنها :علم الانسان .

فمعرفة الإنسان لذاته ولغرض وجوده أجل مطلبِ وأسمى غاية للفلسفة في جميع عصورها ،لأنه يعتقد أن معرفة الذات هي المقدمة الأولى لفهمها وهي الطريق الأقرب لتحقيقها فيما بعد . أن معرفة الذات لا تعد رغبة نظرية وليست موضوعاً لحب الاستطلاع والتأمل فحسب، بل هي الواجب الجوهري للإنسان وكان كبار الفلاسفة و المفكرين الدينيين أول من قرر ذلك المبدأ الخلقي في الاذهان وظلت الحكمة القائلة : (اعرف نفسك) تعتبر الصورة العليا في الفلسفة ، لتجد لها مبرراً من الدين فتغدو بصيغتها الجديدة : أعرف نفسك تعرف ربك .

أما لماذا الانسان الآن ؟

فالجواب: لأن الواقع المعاش يخبرنا ان كل الاشياء حاضرة فيه بقوة إلا الإنسان ، فغياب الإنسان الواعِ المدرك لأهميته كقيمة بحد ذاتها ـ باعتباره خليفة الله في

الارض وحامل الامانة التي تبرأت منها السموات والارض و الجبال ـ هي السبب في طرح السؤال ومحاولة الاجابة عنه ، فربما كان الإنسان المعاصر محتاجاً اليوم ليعود إلى ذاته لمعرفتها أكثر من حاجته إلى أي شيء آخر .

فقد أصبحت حياته الروحية أثراً بعد عين بسبب انهماكه في مشاغل العيش وهموم المادة، لقد حصل الإنسان المعاصر على كل الاشياء لكنه بالمقابل خسر ذاته ، وكما قال المسيح عليه السلام : ماذا يفيد الإنسان لو كسب العالم وخسر نفسه ؟

ولابد أولا ـ ونحن نتحدث عن الإنسان ـ أن نفرّق بين المشاكل التي يعانيها في ظل الحضارة الغربية من قلق وتشيؤ واغتراب ، وبين المشاكل التي يعانيها الإنسان العربي من تسلط الانظمة القمعية وغياب الحريات وانعدام الديمقراطية .

إن أزمة الإنسان المعاصر في الغرب هي أزمة غيابه عن نفسه وعن مجتمعه وتحوله إلى شيء من ضمن الاشياء التي صنعها بيده فالآلة في الغرب حلت محلّه وتحوّل ـ مع التقدم التكنولوجي المتسارع ـ إلى مجرد آلة منظمة شرّعت له الرأسمالية قوانين جعلت منه (آلة حية) تأكل وتشرب وتدور ايضا ، لقد أراد الانسان من استخدامه للتكنولوجيا أن تعمل على تسخير الاشياء لصالحه ، لكنها بمنطق السوق حولته الى آلة أو سخرته لصالح الآلة في احسن الاحوال .

أما في العالم العربي فقد غاب الإنسان العادي وظهر بدلا عنه الإنسان الزعيم ـ الحاكم الطاغية ـ والإنسان الفقيه و الإنسان الشيّخ ، كل تلك المسميات تفسر أزمة غياب الإنسان في العالم العربي الاسلامي، فالإنسان الفرد غائب بإرادته أو مغيب غصباً عنه ليحل محله الزعيم الابدي أو الداعية الفقيه ـ الذي يفهم و يفكر بالأصالة عن نفسه و بالنيابة عن الآخرين ـ أو شيخ القبيلة الذي يعتبر الفرد مجرد شيء من أشياء القبيلة يتماهى بها ومعها ومن أجلها ،فالمهم هو الشيخ بما هو ممثل للقبيلة ولأعرافها وعاداتها وتقاليدها ، لكنه في الاساس يمثل ذاته ويحافظ عليها وما القبيلة وأعرافها الا وسيلة لبقاء الإنسان الشيخ حتى ولو كان ذلك على حساب فناء جميع أفراد القبيلة.

بالنسبة للشق الأخير من السؤال : لماذا الانسان في الاسلام ؟

يكفي أن نقتبس عبارة لمؤلف كتاب الانسان ذلك المجهول ـ الكس كاريل ـ لنعرف إجابة السؤال ،يقول فيها : أنهم في الغرب لا يفهمون الانسان ككل ، فهم يعرفونه على انه مكوّن من اجزاء مختلفة ، وحتى تلك الاجزاء ابتدعتها وسائلهم ، وكل واحد منهم مكون من مركب من الاشباح يسير في وسطها حقيقة مجهولة .

بينما الاسلام القرآني هو الوحيد الذي فهم الانسان فهماً كاملاً وليس مجزأً وعلى النحو الذي خُلق به من قِبل الله ، الاسلام فهم الانسان : روحاً ومادة ، نفساً وجسداً ، سمائاً وارضاً ، بخلاف الفلسفات والعلوم الوضعية الانسانية القاصرة

التي درسته تارة باعتباره روحا خالصة فقط ، واعتبرته الاخرى مادة جامدة لا روح فيها ، فالإسلام هو الوحيد المعبّر عن إنسانية الإنسان في كل زمان ومكان ، لأن خالق الإنسان هو الذي يعرف حقيقة ما خلق حق المعرفة {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14

والإسلام هو الوحيد الذي اهتم بالإنسان كذات ، قبل حقوقه واعتبر تلك الحقوق ثمرة لإنسانيته وتفرده ووسيلة للوصول إلى تلك الغاية ، وقرّن الحق بالواجب ،فتأدية الواجب هي المقدمة للوصول الى الحقوق .

بخلاف القوانين الوضعية التي اهتمت بالحقوق وجعلتها غاية بحد ذاتها ،فاهتمت بالبذرة وأهملت الشجرة التي تنتجها.

وليس من شأن هذه الدراسة أن تقدم اجابات شافيه ، ومعالجات جامعة مانعة ـ كما يقول المناطقة ـ بل اقصى ما تتوخاه أن تثير قضايا وتعيد طرح العديد من التساؤلات يتولى الباحثون معالجتها والتعمق فيها فيما بعد .

لقد استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج التحليلي ، وتم الاستئناس بالمنهج التأويلي متى اقتضت الضرورة، وحاولت الدراسة أن تشق طريقاً للمنهج الإنساني الذي يرى الإنسان من جميع الاتجاهات .

وفي الاخير نقول : ان كل جهدِ انساني ـ بحكم انه كذلك ـ معرض للنّقص ، وكما قال القاضي الفاضل ـ أستاذ العلماء البلغاء ـ عبد الرحيم البيساني وهو يعتذر إلى العماد الأصفهاني عن كلام استدركه عليه:" إني رأيت انه لا يكتب انسان كتاباً في يومه الا قال في غده : لو غُيّر هذا لكان أحسن ، ولو زِيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان اجمل ، وهذا من اعظم العِبر وهو دليل على استيلاء النقصِ على جملة البشر " .

وفي الاخير نحمد الله ونثني عليه على كل حال كما قال سبحانه : {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وسلام عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الصافات180- 182.

الفصـــــــــــــــل الأول

.ما يشبه المدخل

1 .الإنسان في ظل الحضارات القديمة

2.الإنسان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

3 .ظهور شمس الإسلام

4 .بين الجاهلية والإسلام

5.المنهج الذي أتي به الاسلام

6.قواعد الاسلام الثلاث

كينونة الإنسان قبل الإسلام وبعده

ـ ما يشبه المدخل:

من البديهيات التي تحتم على الإنسان معرفة أن هناك تطوراً في مجال الفكر أو في العلم ـ أو في أي فرع من فروع الحياة ـ أن تتم مقارنة ما هو كائن بما قد كان وما هو موجودُ ألآن بما كان موجوداً سابقاً ،من أجل أن تتم المقارنة الحسية والعقلية من جميع النواحي ، وعلى سبيل المثال : إذا أردنا معرفة أن هناك تطوراً في مجال الكمبيوتر ألآن يجب أن نعرف كيف كان الكمبيوتر في بداياته الأولى ـ نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن الماضي ـ ونقارن بين ما كان موجود سابقا وما هو كائن الآن ، وبعد ذلك ندرك أن هناك تطوراً لافتاً وطفرة مادية فيما يتعلق بتطوير وتحديث الكمبيوتر سنة بعد أخرى، وهكذا الحال في جميع مجالات الحياة المختلفة ـ في مجال العلوم والفلسفات والأفكار والشرائع المختلفة ـ من اجل أن نعرف حجم التطور والرقي يجب أن نقارن السابق باللاحق

ما سبق كان مثالاً نستطيع من خلاله أن نعرف حجم النقلة النوعية والكيفية التي أحدثها الإسلام في ما يتعلق بكينونة ـ كيف كان ـ الإنسان قبله وكيف صار بعده وبحياة الإنسان في المجتمع وبحقوقه المكتسبة ، ستتم المقارنة بين ما جاء به الإسلام قولاً ـ من خلال نصوص القرآن والسنة العملية الموافقة له ـ وعملاً ـ من خلال ما طبقه الرسول ـ صلوات عليه وعلى آله ـ والصحابة المنتجبين الاخيار من سلوك في واقعهم المعاش ـ بما كان سائداً قبل الإسلام مكاناً ـ في شبه الجزيرة العربية ـ و زماناً ـ في الديانات الوضعية والحضارات السابقة على الإسلام ـ بعد ذلك يمكن معرفة الفارق بوضوح تام ـ سلباً أو إيجابا ـ وهل كان هناك تطوير وتحديث ـ مادي ومعنوي ـ أوجده الإسلام في كل مناحي الحياة المختلفة: الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية ، في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء ؟

1ـ الإنسان في ظل الحضارات القديمة :

لقد كرّم الله الإنسان بأن نفخ فيه من روحه وخلقه في أحسن تقويم من اجل أن يكون خليفته في ارضه كما قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً }البقرة30 . فالتكريم الإلهي عام للإنسان في كل زمان ومكان ،إلا أن بعض البشر يحاولون القفز فوق هذه الحقيقة واضعين جملة من المميزات ـ تختلف كماً ونوعاً باختلاف المجتمعات ـ الأمر الذي يجعل ردم الهوة التي خلقوها في غاية الصعوبة ، حاول الإنسان في مختلف العصور أن يتجاوز ذلك التكريم للإنسان ـ أياً كان وضعه وجنسه ولونه ولغته ودينه و زمانه ومكانه ـ بان وضع مميزات تفاضل بين بني الإنسان وجعل المساواة بينهم تبدو مستحيلة ، فالقوة التي تمتع بها بعض الأفراد ـ أو الجماعات ـ كان من الضروري أن تظهر في

مرحلة معينة من التاريخ لتمايز بين الأفراد من جهة وبين الجماعات الضعيفة من الجهة الاخرى ، فظهرت الحروب التي استولى بها الأقوياء على الضعفاء ، وكان من نتيجتها : تصنيف الناس إلى سادة وعبيد ،أغنياء يملكون كل شيء وفقراء لا يملكون حتى حرية التصرف في أجسادهم ، وهكذا ظهرت الفوارق الطبقية والاجتماعية والاقتصادية التي وضعها البشر وقامت جميع الشرائع السماوية على مر العصور بمحاربتها والدعوة إلى إلغائها .

لقد شهدت المجتمعات البشرية على مر العصور المختلفة صوراً متعددة من التفاضل والتفاوت بين البشر وكان هناك دائماً في المجتمعات : أعلى وادني ، سادة وعبيد ،أغنياء وفقراء ،رجالاً ونساء . ولقد حاول البعض ممن يرون أنفسهم في وضع أفضل ماديا واجتماعياً وعرقياً الاحتفاظ بوضعهم والحصول على القدر الأعظم من الحقوق والامتيازات ، من خلال إجبار وإلزام الأخرين الأدنى منهم ـ في المكانة الاجتماعية والاقتصادية ـ بالأعباء المادية والمعنوية والجسدية التي جعلت منهم عبيداً و تابعيين إلى الأبد .

ففي المجتمعات الشرقية القديمة كان هناك تمايزاً وتفاضلاً فرضته وعمقته بعض العقائد الدينية الوضعية المختلفة ، بالإضافة إلى العادات والتقاليد والاعراف التي كانت سائدة في ذلك الوقت ،من تلك الديانات على سبيل المثال: الديانة الهندوسية التي سادت ـ ولا زالت حتى ألآن ـ في بعض مناطق الهند ،ففي ظل تلك الديانة يؤمن الهندوسي بان الإله (براهما) خلق المجتمع مكوناً من أربع طبقات تختلف في خصائصها وصفاتها الشخصية ووظائفها الاجتماعية واحتياجاتها الاقتصادية وتترتب تلك الطبقات على النحو الآتي :

1ـ طبقة البراهمانا : خلقها الإله (براهما) من رأسه وهي تضم طبقة الحكام ورجال الدين والمفكرون والمثقفون على وجه العموم .

2ـ طبقة الكشترايا : خلقها الإله من ذراعيه وتضم العسكر والموظفين الإداريين في أجهزة الدولة المختلفة .

3ـ طبقة الفيشايا : خلقها الإله من فخذيه وتضم التجار والحرفيين واصحاب المهن المختلفة .

4ـ طبقة الشودرا : خلقها الإله من قدميه وتضم العمال والفقراء المنبوذين [1] .

ومن العادات المقيتة في الديانة الهندوسية التبكير بالزواج ، فقد كانوا يعقدون للأطفال وهم لا زالوا صغاراً يحبون على الأرض وإذا مات الولد الذي يعتبر زوجاً ترملت زوجته الطفلة وأمضت حياتها أرملة حزينة عليه وكثيراً ما كانت الزوجة تلقي بنفسها في النار لتحرق نفسها بنفس النار التي أشعلت ليحرق بها جثمان زوجها [2]

وفي المجتمع الفارسي في عهد الدولة الساسانية انقسم الناس إلى طبقات مختلفة لعدة اعتبارات أهمها : العرق أو الدم الذي يحدد النسب ونوع الحرفة التي يمارسها الشخص والتي تنتقل اليه بالوراثة عن والده ، كما كانت الحكومة الساسانية تحظر على عامة الناس شراء العقارات والأراضي الخاصة بالأمراء والأغنياء، و نتج عن ذلك هوة واسعة بين الطبقات لا يمكن ردمها بسهولة وسُنت لذلك قواعد يلتزمها عامة الناس غصباً عنهم ، وأهم تلك القواعد :

أن يلزم كل فرد في المجتمع دوره ومكانته الاجتماعية القائمة على النسب ولا يطمع أن يحسن من وضعة الاجتماعي وان يمتهن حرفةً غير الحرفةً التي خلق معها وورثها عن طريق الآباء والأجداد .

و إذا كانت القوة والمال قد خلقتا تفاضلا بين الناس وتم تقسيمهم على أساسهما فإنهما ليسا أول ولا أخر ما يتعالى بهما الإنسان على الإنسان ، بل هناك تفاضلاً وتمايزاً على أساس نوع الجنس ـ ولا يزال قائماَ حتى ألان في معظم المجتمعات العربية والإسلامية ـ إذ يعتبر الرجل هو الأصل و المركز والأنثى فرع وتابع وهي الحلقة الأضعف و يجب عليها أن تتبع المركز وتخضع له و تدور في فلكه .

و ذلك لأن بعض المفكرين والفلاسفة وطبقة رجال الدين كانوا يتجادلون فيما يخص المرأة ويتساءلون على الدوام : هل لها روح أم لا ؟ و إذا كانت المرأة تمتلك روحاَ على سبيل الافتراض ـ فهل تلك الروح إنسانية خالصة أم حيوانية؟ وفي أحسن الأحوال ـ على افتراض أن لها روحاَ إنسانية ـ فهل وضعها الاجتماعي والإنساني ـ بالنسبة للرجل ـ يساوي وضع الرقيق أم انه يرتفع عنه قليلاَ ؟ (3).

ففي الهند كانت بعض المذاهب الهندوسية تعتقد أن الإله (براهما) خلق نفس الذكر من الروح وخلق نفوس النساء من المادة، من اجل ذلك كانت المرأة في الثقافات الهندية القديمة مجرد شيء(مادة) من ضمن الاشياء المختلفة التي يمتلكها الرجل(الزوج) حياَ أو ميتاَ ، إلى الحد الذي دفعهم إلى دفن الزوجة مع زوجها حال وفاته وهي لا تزال على قيد الحياة من أجل خدمته عندما يعود إلى الحياة من جديد (4) .

وفي بلاد اليونان ـ مهد الحضارة ومنبع الفلسفة وموطن الفلاسفة ـ نلاحظ أن التمايز على أساس الجنس كان قائماَ ومعروفاَ بين الرجال والنساء و بين العامة والخاصة ، فأرسطو ـ وهو المعلم الأول ـ كان يرى أن الطبيعة قد وضعت المرأة دون الرجل والعبد دون السيد ، فهو يقول في كتابه(السياسة) :"مثلما يحكم السيد العبد ويحكم الأب الطفل كذلك يحكم الذكر الأنثى " (5).

وقابل أرسطو بين الأعلى والأدنى وضرب أمثلة لذلك بالمقابلة والمقارنة بين النفس والجسم وبين العقل والحواس وبين الإنسان والحيوان وبين الذكر والأنثى،

معتبراً أن : النفس والعقل والإنسان والذكر أعلى شاناً وأرفع منزلةً ووظيفةً من الجسم والحواس والحيوان والأنثى . وكان يعتبر الرق والعبودية نظاماً طبيعياً وضرورياً كي تستمر عجلة الحياة بالدوران من دون توقف ، وكان يُعرّف العبد بأنه : آلة للحياة ضرورية لإنجاز الأعمال المنزلية التي لا يستطيع المواطن ـ الحر، السيد ـ القيام بها لأنها منافية لكرامته ، فالسيد عليه أن يفكر فقط والعبد عليه أن ينجز الإعمال التي يحتاجها السادة كي ينعموا بالوقت الكافي للتفكير .

وقد ميز أرسطو بين البشر على أساس العرق ، فالرجل اليوناني حر سيد والأجنبي البربري عبد له ولا يجوز لليوناني أن يستعبد أخاه اليوناني بأي حال من الاحوال (6)

وفي روما وتحت مظلة القانون الروماني الذي كان له تأثير واضح على القوانين الأوربية كان هناك تمايزاً واضحاً على أساس الجنس ، فالرجل يملك زوجاته كما يملك عبيده والعبد في القانون الروماني كان شيئاً ـ آلة كما صرح أرسطو ـ وليس إنساناً على الاطلاق ،فليست له حقوق تذكر وعليه أن يتحمل الواجبات والأعمال التي تثقل كاهله ، فقد كان الرق يأتي عن طريق الحروب التي تهدف إلى استعباد الآخرين والحصول على أموالهم وأبنائهم وأنفسهم ، إرضاء لشهوة الاستعباد المزروعة في أنفس المحاربين المريضة ، وكان الرقيق يؤخذ للعمل لصالح سادة روما، وكانوا يعملون في الحقول وهم مقيدون و الأصفاد الثقيلة الوطأة تشل حركتهم ـ كما تقيد حرياتهم ـ وكانوا يأكلون الفتات ليعيشوا من اجل الخدمة والعمل فقط والأدهى من ذلك أن العبيد كانوا يستخدمون أهدافاً لسهام ورماح السادة والأباطرة أثناء تعلمهم الرماية وفنون القتال .

كما اتخذ السادة من العبيد أداة للهو والتسلية وقتل أوقات الفراغ وتجديد النشاط فيما عُرف بالقتال حتى الموت في حلقات مغلقة ،يتصارع فيها العبيد وتسيل دماؤهم وتنتهي بقتل أحدهم وعندها ترتفع الأصوات والضحكات مدوية للمنتصر ولانتهاك إنسانية العبيد (7) .

<u>2- الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام :</u>

يسمي معظم المؤرخين وكتاب السير الفترة السابقة على ظهور الاسلام ، بالفترة الجاهلية ، ومعرفة تلك الفترة مهم لمن يُريد التعرف على الاسلام ، كما قال عمر بن الخطاب :" لا يعرف الاسلام من لم يعرف الجاهلية ".

وحال الإنسان في شبه الجزيرة العربية لا يختلف في تلك الفترة عن حاله في الحضارات المجاورة له مكاناً و المعاصرة له زماناً ، فقد سادت الامية ـ وكانت هي العلم الوحيد المتاح حينذاك للجميع ـ وتعنى عدم القدرة على القراءة والكتابة التي تمكن الانسان من الحصول على العلم والمعرفة ، و ساد الجهل الذي كان يعني: الطيش وسرعة الغضب وعدم تقدير عواقب الأمور ونتائجها .

كان العرب ظاهرياً يدينون بدين خليل الله إبراهيم عليه السلام، حتى طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وخلطوا عملاً صالحاً بأخر سيئاً ،فقد أدخلوا عبادة الأصنام في دينهم ،معتقدين بأنها تقربهم من الله وتشفع لهم عنده كما قال عنهم القرآن : {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} {الزُّمر:3} {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} {يونس:18}

وقد ابتدعوا في عبادة الأصنام تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان منها : أنهم كانوا يستغيثونها في الشدائد ويهتفون بأسمائها ويعكفون عليها ويحجون إليها ويطوفون حولها ويسجدون لها ويتقربون إليها بالذبح والنحر بأسمائها، وكانوا يخصصون لها شيئاً من أكلهم وشربهم ، كما اخبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله : {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الأنعام136[8]

ويمكن التعرف على جوهر الجاهلية من خلال القرآن الكريم ، لأن تلك اللفظة لم تستخدم في اللغة العربية بصيغتها الحالية (الفاعلية) قبل نزول القرآن وبتتبع المواقع التي ذكرت فيها تلك اللفظة ومشتقاتها ومرادفها (الذين لا يعلمون) نجد انها ذكرت في معنيين يشكلان معاً جوهر الجاهلية وحقيقتها المعنى الأول هو: الجهل بحقيقة الألوهية و بما ينبغي تجاه الله سبحانه وتعالى من خالص الطاعة والعبودية له دون غيره ، نفهم ذلك من قوله تعالى : {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }الأعراف138.

المعنى الثاني : مخالفة منهج الله والحكم بغير ما أنزل ،نفهم ذلك من قوله تعالى :

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }المائدة50 ، وايضاً قوله تعالى :{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ }يوسف33 .

فالجاهلية بناءً على التصور القرآني هي عبادة الجبت والطاغوت ،وهو كل شخص أو وضع أو عرفٍ أو شرعٍ أو سلطة ـ أي كانت ـ تستعبد الناس بغير أذن من الله ،وتطلب منهم الطاعة ـ أو يمارس الناس لها الطاعة ـ مخالفين بطاعتها أوامر الله سبحانه وتعالى [9] .

وفي تلك الفترة كان العرب يؤمنون بالإخبار التي يقول بها الكهنة والعرافون والمنجمون ـ كأنها القول الحق وما سواه باطل ـ وكل ما سبق ذكره من احوال الاعراب في الجاهلية يعد انتقاصاً من إنسانية الإنسان وتحقيراً لكرامته ، على اعتبار أن عبادة الأحجار الجامدة ـ التي لا تضر ولا تنفع ـ تتنافى مع وجود العقل

الذي كٌرم الإنسان به ولأجله ومن خلاله ومٌيز به عن سائر المخلوقات ، مما أدى بالإنسان إلى تعطيل قواه العقلية التي يكون بها هو دون سواه وتقبل الوضع السائد كأنه الوضع الأفضل أو أكمل النقائص الممكنة ، على ضوء ذلك ساءت أحوال الإنسان وتحول إلى مجرد شيء ، وانقسم المجتمع الجاهلي ـ الذي محكوماً بقوة المال والرجال والسلاح والعصبية ـ إلى سادة وعبيد ، سادة يملكون كل شيء وعبيد هم من ضمن الأشياء التي يمتلكها السادة .

كانت الحروب التي تخلف الموت والدمار هي أساس الحياة وكانت تثور بين القبائل المتجاورة لأسباب اقل ما توصف به أنها تافهة ،بعضاً من تلك الأسباب مادية وأهمها: التنافس في الحصول على مادة الحياة حينذاك الماء والمرعى، وهناك أسباب معنوية أثارت الحروب أهمها: التنازع على الشرف المزعوم وزعامة القبيلة التي تؤدي الى الرياسة ، فإذا مات الأب تنازع الأبناء على من يكون البديل ، وإذا مات الأخ الأكبر نازع الأعمام أبناء أخيهم وهكذا نشبت الحروب المستمرة بين القبائل المتقاربة في الأنساب والأمكنة [10].

ونتيجة تلك الحروب تمثلت في القتل للرجال والسبي للنساء والاسترقاق للأطفال والمغلوبين على أمرهم ،وكانت هناك بعضاً من العادات والتقاليد في المجتمع الجاهلي التي تنافي إنسانية الانسان وتتصادم معها منها على سبيل المثال : واد البنات مخافة العار والمذلة ـ مع أن عملهم هذا هو العار بعينه ـ كما قال تعالى : [بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ] {التَّكوير:9} . وقتل بعض القبائل الأبناء مخافة الفقر [وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا] {الإسراء:31} ،على أن تلك العادة لم تكن سائدة عند العرب "بل كان ذلك في بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر وعلى الأخص بني أسد وتميم "[11] .

وكما هو معلوم بأن العرب في تلك الأيام كانوا يعددون الزوجات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا دون حد معروف ،وكانوا في زيجاتهم تلك يجمعون بين الأختين ولا يستثنون حتى زوجة الأب المتوفى ،لأن المرأة لم تكن في نظرهم سوى شيء من أشياء الذكر ـ السيد ـ وكان الربا هو التجارة الرابحة والرائجة التي تدر على صاحبها الأموال والأنفس والثمرات دون عناء يذكر وكان من الأسباب الرئيسية التي ساهمت في استرقاق الأغنياء للفقراء الذين لا يستطيعون دفع ما عليهم من أموال إلا ببيع أنفسهم وأبنائهم وحرياتهم، كانت تلك بعضاً من مظاهر الحالة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ،ويمكن القول باختصار" أن الجهل ضارب أطنابه والخرافات لها جولة وصولة والناس يعيشون كالأنعام والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجماد أحيانا " [12] .

وكان الظلام هو النور الموجود الذي يسمح للعبيد والإماء أن يروا أنفسهم وواقعهم من خلاله ،وليس هناك توصيف يقرب الوضع إلى إدراك حقيقة العصر الجاهلي إلا أن نقول : إنهم كانوا يعشون في ظلمات بعضها فوق بعض ،وكان لا

بد من أن تشرق شمس الأمل ويسطع نور الحرية، كي لا تتعود العقول على الظلام وتعمى القلوب قبل الأبصار .

3- ظهور شمس الإسلام :

وسط ذلك الظلام الدامس الذي ران على العقول والأبصار وفي وسط الصقيع الأخلاقي الذي جمد مشاعر السادة والأغنياء، ظهرت شمس الإسلام بنورها الساطع الذي بدد ظلام العقول وأرسل الدفء إلى القلوب المتحجرة والعقول المتجمدة والنفوس الآسنة لتعود إلى حالتها الطبيعية ،ظهر الإسلام كفعل خلاّق مثمر أعاد الأمور الإنسانية إلى مسارها الصحيح ،وكردة فعل قوية ضد الأوضاع اللاإنسانية الفاسدة المنحرفة ـ التي وصلت إلى حد التعفن ـ وسادت في العصور التي سبقته وكان له الفضل في إزاحتها واستبدالها بمبادئ إنسانية غاية في الرقي وقمة في التحضر والتمدن ،جاء الإسلام ليعيد الإنسان إلى مكانه الصحيح وموقعه المناسب الذي هُيأ له من قبل خالقه كخليفة في الأرض يأتمر بأمر الله وحده ولا يعبد إلها سواه ،كان الإنسان قبل الإسلام ـ كما اتضح لنا ـ هو الرجل، السيد ،رئيس القبيلة ،صاحب المال والجاه والسلطة، هو الواحد الصحيح الذي يستمد قيمته من ذاته ومن مجموع الاصفار الموجودة إلى يمينه (النساء ،العبيد ،الفقراء ،الضعفاء) فالعبد ليس إنسانا بمقياس تلك العصور لأنه كان شيئاً من ضمن الأشياء التي يمتلكها السادة وهو عديم القيمة بالنسبة إلى نفسه لأنه مجرد صفر لا يساوي شيئاً لأنه في الاساس غير حر ولا يستطيع أن يبَدل مكانه أو أن يغير من موقعه باعتباره مقدمة أو توطئة للواحد ـ السيد ـ فلا قيمة له إلا في وجوده إلى يمين سيده وكلما زادت الأصفار الموجودة إلى يمين السيد كلما كبرت قيمته المادية والمعنوية وزاد من ثقل إنسانيته ومركزه الاجتماعي في القبيلة بمقدار ما يُنقص من قيمة بقية الأصفار الموجودة إلى يمينه .

كان السادة والأغنياء يعتبرون أنفسهم مركزاَ للكون يدور حوله بقية التوابع واللواحق والاطراف من العبيد والنساء لأنهم يعتقدون أنهم يهبون الحياة وأسبابها لمن يتبعهم وأي انحراف من قِبل التوابع عن المدار المزعوم يؤدي بصاحبه إلى الهلاك ،وكان هذا انحرافاً واضحاً عن الفطرة السليمة التي لا ترضى بالخضوع إلا لمن خلقها فقط .

ظهر الإسلام فأحدث انقلاباَ جذرياَ على جميع المستويات والصُعد الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ،لقد أحدث الإسلام ـ الذي بشر به ودعا إليه رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ هزةً عنيفة أعادت الأمور إلى مكانها الصحيح وقوّمت ما اعوج وانحرف من العادات السيئة التي ما أنزل الله بها من سلطان ،ليقول للناس أن لا إله إلاَ الله ويقول كذلك : [إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] {يوسف:40} ،بعد أن سادت شرعة الأغنياء والأقوياء حيناً من الدهر .

لقد استبدل الإسلام نظرية مركزية (الرجال ،السادة ،الأغنياء ،الأقوياء) التي سادت قبله بنظريةً جديدةً تُعطي المركز لمن خلق الأرض والسموات العُلى وبقية الكواكب الكونية والبشرية تدور حوله وتسبح بحمده ليلاً ونهاراً لأنه أهل لذاك .

لقد أحدثت الأفكار التي جاء بها الإسلام ـ بواسطة رسول البشرية عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ على المستوى الديني والاجتماعي والاقتصادي ما أحدثته نظرية (كوبر نيكوس ت1543م) في عصر النهضة الأوربية في علم الفلك عندما اثبت خطأ النظرية السائدة من أيام (بطليموس) وحتى عصر النهضة والقائلة :أن الأرض هي مركز الكون وان جميع الكواكب تدور حولها ،اثبت (نيكوس) أن الشمس هي مركز الكون وجميع الكواكب ـ بما فيها الأرض هي كوكب صغير مقارنة بغيرها من الكواكب ـ تدور حول الشمس ،لقد أطاح اكتشاف مركزية الشمس بأحد الثوابت الراسخة حينذاك ،لان رجال الدين كانوا يعتقدون بان نظرية مركزية الأرض تدعم مركزية الكنيسة في روما كمركز ثابت ووحيد تدور معه وحوله كل الكنائس الموجودة في العالم آنذاك والبابا يقف على رأس تلك الكنيسة وبالتالي هو المركز الذي يدور حوله العالم وهذا يفسر سر العداء الشديد الذي ظهر بين الكنيسة والعلم إبان عصر النهضة وكان هذا هو السبب الذي دافعت عنه الكنيسة باستماته وصلت حدته بإحراق كل من يقول ويعتقد بصحة تلك النظرية.

لقد سوت نظرية (كوبر نيكوس) بين جميع الكواكب بدورانها جميعاً حول الشمس كما سوت بين جميع الكنائس في العالم ،وهذا بالضبط ما فعله الإسلام عندما ساوى بين الناس جميعاً دون استثناءات تذكر لأي سبب كان ودون اعتبار للجنس أو العرق أو اللون أو اللغة أو الثروة أو القوة وجعل جميع الناس يعبدون إلها واحداً لا تفاضل بينهم إلا على أساس التقوى والعمل الصالح الذي يعود نفعه على البشرية جمعاء باعتباره من لوازم الاستخلاف في الأرض .

لم تكن الدعوة الإسلامية دعوةً عادية ولم يكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشراً عادياً " بل كان قوة من قوى الخير لها في عالم المعاني ما لاكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة " [13].

من أجل ذلك أحدث الإسلام تغييراَ استثنائياً ـ من شخص استثنائي ـ في عالم الأفكار والواقع المعاش على حد سواء.

<u>4ـ بين الجاهلية والإسلام :</u>

من أجل أن ندرك الفرق الهائل الذي أحدثه الإسلام في العقول والأنفس والأرواح وفي الواقع المعاش اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، لنستمع إلى احد الشهود الذين عاشوا العصرين معاً وأدرك الفرق جيداً ،إنه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أحد المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة خوفاً من بطش قريش ،فقد طلب منه النجاشي أن يُجيب على دعوى عمرو بن العاص ومن معه ـ الذين أتوا

من أجل إعادتهم إلى مكة ـ وسأله عن حقيقة الدين الجديد ، فعقد جعفر مقارنةً بين الجاهلية والإسلام قائلاً :" كُنا قوماً أهل جاهلية ِنعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل منا القوي الضعيف... فبعث الله لنا رسولاً ... فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كُنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة

الرحم وحُسن الجوار والكف عن المجاور والدماء ونهانا عن الفواحشِ وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة " [14].

إنها مقارنةٌ لا تحتاج إلى مزيدِ من الشرح والتحليل لأنها تظهر بوضحِ لا لبس فيه الفرق بين عصرين مختلفين تفكيراً وسلوكاً وأسلوب حياة ، وبكلمات بسيطة تقول لنا : أن الإسُلام هو نقيض للجاهليةِ بكل المعاني والنقيضان لا يصدقان معاً ولا يجتمعان معاً كما يقول المناطقة و لذلك أشرقت شمس الإسلامُ وغربت ظلمات الجاهلية .

لقد كان العرب في الجاهلية يعبدون أربعة أرباب : الاولى عبادة الاصنام والجن والملائكة ،لاعتقادهم أن ذلك يقربهم من الله أو ان تلك المعبودات تقربهم من الله .

الثانية : عبادة القبيلة والانقياد لها بالحق او في الباطل ،كما عبر عن ذلك الشاعر الجاهلي بقوله :

وهل أنا الا من غُزيّة أن غزت غزيت وأن ترشدُ غزيّة أرشد .

الثالثة :عبادة العرف الموروث من الآباء والأجداد كما اخبر عن ذلك القرآن بقوله :{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }البقرة170.{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }المائدة104.

الرابعة : عبادة الهوى والشهوات ، نفهم ذلك من قوله تعالى :{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً }الفرقان43 ، وايضا من قوله تعالى:{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40.

لقد نقل الاسلام عرب الجاهلية من عبادة الارباب الى عبادة رب الارباب ، ومن عبادة بعضهم بعضاً الى عبادة الله سبحانه وتعالى ـ الواحد بلا شريك ـ وحررهم من ظلم بعضهم لبعض الى عدالة الله الحكيم العدل تعالى وذلك بتحريرهم من شرائع البشر الى شريعة الله ومنهجه [15] .

لقد أتى الإسلام وكان بمثابة العقل الذي يفهم ويحاور ويستنبط ويحارب الإتباع المبني على العاطفة ،أما الجاهلية فعلى النقيض من ذلك تقليد أعمى على غير هدى ،حتى على المستوى اللغوي فان الإسلام نقيض للجاهلية .

الإسلام يعني : السلم والسلامَ والمسالمةَ وضد المسالمةِ الحرب والخصام ،قال تعالى : [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا] {الفرقان:63}، فسر الطبريُ هذه الآيةَ قائلاً : إن عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم [16].

وهو بخلاف الجاهلية ـ التي لا تضاد العلم ـ وإنما تعني السفه و الطيش والغضب والأنفة والمفاخرة و كانت الجاهلية مدعاة للفخر والمباهاة وكما قال الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ..... فنجهل فوق جهل الجاهلين .

جاء الإسلام بخلاف تلك الصفات والأخلاق ، فاستبدل السفه والطيش والغضب بالحلم وهدوء الأعصاب وضبط النفس واستبدل بالأنفة الزائفة التواضع وجعل الاعتداد والمفاخرة بالعمل الصالح الذي ينفع الناس بدلاً عن المفاخرة بالأحساب والأنساب والألقاب ،فكل تلك الصفات التي جاء بها الإسلام صفات محبة ومودة .

ومن معاني الإسلام : الخضوع والانقياد لله وحده لا شريك له ـ لأنه أهلٌ لذاك ـ والتسليم له في جميع الأمور الظاهرة والباطنة ووفقاً لذلك فأن المسلم الحقيقي يلتمس السلامة بالتسليم لله في جميع الأمور ، هذا ما أكده القرآن باستمرار ،قال تعالى : [وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ] {الزُّمر:54} وقال تعالى [فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ] {آل عمران:20} .

ويعرّف احد المستشرقين الإسلام تعريفاً صادقاً مثالياً بقوله : " إنه الإسلام الذي يدعو إلى السلام والسلامة لا يضار احد في نفسه أو صحته أو ماله أو غير ذلك " [17] . بناء على ما سبق فإن الإسلام مناسب للرد على كل النزعات الجاهلية الداعية إلى الأنفة الزائفة والحمية الكاذبة ، فلقد حاول الإسلام ـ ونجح في ذلك ـ أن يغير طريقة التفكير التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ،لأن التغيير يبدأ من الداخل ـ من العقل ـ من أساليب التفكير ،من اجل أن يأتي تغيير الواقع المعاش لاحقاً ، هذا ما قصده القران بقوله : [إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] {الرعد:11} ،ذلك ما حصل بالضبط ،لقد غير القرآن طريقة التفكير التي سادت ـ حيناً من الدهر ـ العقلية الجاهلية التي لا تؤمن بالنتائج المترتبة على الفعل الطائش المستند إلى الغضب ، وما حروب داحس والغبراء والبسوس

وعبادة الأحجار إلا شاهد حي على طريقة التفكير العقيم الذي لا يرى ابعد من اللحظة الحاضرة وكأنها الزمان الأبدي .

من أجل ذلك ربط الإسلام بين الإنسان والعقل وجعل الأخير مناط التكليف وسر التقويم الحسن والدليل على ذلك أن مادة (ع ق ل) وردت في القرآن خمسين مرة واحتلت صيغة الخطاب (تعقلون)24 آية منها :[إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] {البقرة:164}) [كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] {البقرة:242}):[وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] {الأنعام:32} ،بعدها تأتي صيغة (يعقلون) وردت في 22 أية منها)[وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ] {البقرة:171}):[وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ] {يس:68} [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] {الحج:46} [18].

إن التعاليم التي أتى بها الإسلام أحدثت نقلةً نوعيةً في العقلية العربية الإسلامية وفي طريقة التفكير تجاه مظاهر الكون المختلفة ،فالصفات التي ذكرها القرآن عن الله سبحانه وتعالى مع ما تقتضيه من تنزيه وتقديس نقلت العرب من عبادة الأحجار والأوثان ـ مع ما يصاحب ذلك من انحطاط في الفكر وإسفاف في أساليب

النظر والاستدلال الغير ممُنطق ـ إلى عبادة إله وراء المادة (لا تدركه الأبصار)

يشمل العالمين جميعاً وهو مدبر للكون وعالم بكل ما يُحيط به، بخلاف الأصنام التي كانت تمثل إلهاً للقبيلة فقط ،وإن اتسع سلطانها فإنها تمثل إله قبائل العرب فقط، استطاع الإسلام بتلك التعاليم أن يُرقي الفكر العربي الإسلامي إلى فهم الهِ لا مادة له واسع العلم والسلطان معاً [19] .

لقد كانت بصمات الإسلام على سكان شبه الجزيرة العربية واضحة وضوح الشمس في كل المجالات ولا تحتاج إلى دلائل الى كما يحتاج ضوء النهار الى دليل كما ـ قال الشاعر ـ وكان الشيء المهم الذي جاء به الاسلام هو المنهج ـ أو الطريق ـ الذي سارت من خلاله العرب من العصر الجاهلي الى عصر الاسلام ، وهذا ما سوف يتم الحديث عنه في الصفحات التالية .

5- المنهج الذي أتى به الاسلام :

جاء الإسلام بميثاق جديد لم يألفه البشر في حياتهم المعاشه وفي قوانينهم الوضعية القاصرة التي تراعي عند سنها فئة معينة تحافظ على مصالحها وتدعم نفوذها والإسلام بوصفه ديناً إلهيا سماوياً منزهاً عن الخطأ والنسيان والإكراه

جاء بدستور ألهي شامل يراعي مصلحة الناس جميعا لأن واضعه هو رب العالمين وحامل هذا الدستور محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله سلم ـ هو رحمة للعالمين جميعا ولا يخص فئة معينة أو مجتمع مخصوص أو دين محدد هذا أولا .

وثانياً ـ وهو الأهم ـ أنه منزه عن المصلحة بمعنى أنه غير مؤدلج فلا يتساير مع مصلحة فئة معينه ـ أو طبقة مخصوصة ـ على حساب بقية الفئات أو الطبقات ، لأنه صادر عمن خلق الأرض والسموات العُلى ،ربُ العالمين جميعاً الغنيُ بذاته والمستكفي بها عن كل ما عداه سبحانه تعالى لا يزيد في ملكه إيمان المؤمن ولا ينقُص منه كفر الكافر .

لقد حدد الله ـ تعالى ـ أهم خاصية لرسالة النبي محمد ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ هي كونها رسالة عالمية مقابل القومية العنصرية التي كانت سائدة في بني اسرائيل قبل بعثته ، وكما قال تعالى :{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }الأنبياء107. وحدد أهم خصائص شريعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتخفيف والرحمة بدلاً من الاصرار والاغلال والنكال التي كانت سائدة في بني اسرائيل ،نفهم ذلك من قوله تعالى : {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }البقرة286.

وذلك لأن النسيان كان معصية في الامم السابقة وكذلك قال الرسول ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

لقد جعل الله ـ تعالى ـ من الخطاب العالمي المقترن بشرعة التخفيف والرحمة " ووضع الاصرار والاغلال ونسخ شرائع التشديد والقيود أهم خاصتين تميزان النبي الامّي عن بقية الرسل ، فهو الحامل لرسالة الاسلام العالمية ولشرعة التخفيف والرحمة الشاملة القائمة على قيم عليا تشترك البشرية فيها " [20] .

والسر الذي ميز المنهج الإلهي عن كل المناهج الوضعية يكمن في أنه انبثق عن خالق الكون الذي يعلم كل شيء ـ ما كان وما هو كائن وما سيكون إذا كان ـ أي أن العلم الإلهي شامل للماضي والحاضر والمستقبل ،وبما أن الله خلق الإنسان ،فهو يعلم ما يضره وما ينفعه [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ] {الملك:14} .

وبما أن العلم يستدعي القدرة ،يمكن القول بأن علم الله الذي أحاط بكل شيء هو سر قدرته على وضع منهج شامل كامل جامع مانع به من المميزات ما لا يُعد ولا يُحصى وما يجعله صالحاً لكل زمان ومكان ومستوعباً لجميع المشاكل القائمة في الحاضر والتي سوف تنشأ في المستقبل.

وهناك خصائص ومميزات للمنهج الإسلامي يمكن إيجازها في التالي :

1- أنه شامل لكل جوانب الحياة الإنسانية ،ينظم علاقة الإنسان بخالقه وبنفسه وبالآخرين الذين يعشون معه في الكون ،سواء كانوا بشراً أو حيواناً أو نباتاً .

2- منهج ذو رؤية واضحة مميزة يرفض الترقيع والإصلاح الجزئي ويسعى لإصلاح المجتمع من جذوره وإقامة مجتمع بديل على أسس إسلامية ورئيسية وحيدة.

3- أنه قادر على استيعاب جميع التطورات الطارئة في المجتمع وقادر على التعامل معها في أي ظرف طارئ.

4 - أنه منهج عالمي وليس مخصوصاً بزمان ومكان معين وهو شامل للبشرية في مختلف الأقطار والعصور لأنه مهيأ لذلك من لدن حكيم خبير [21].

ومن مزايا المنهج الإسلامي أنه يهدف إلى العدل بين الناس جميعاً باعتباره ركيزة هامة تحفظ الأمن والاستقرار من خلال اعطاء كل ذي حقٍ حقه ، من أجل ذلك نلاحظ تركيز القرآن على مبدأ العدل في العديد من الآيات منها قوله تعالى :

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً }النساء58

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }النحل90.

ويوضح القرآن أن الهدف من أرسال الرسل وأنزال الكتب السماوية هو ارساء دعائم العدل واركانه بين جميع الناس باعتباره مطلباً شرعياً وعقلياً في آن واحد ،فالناس في كل مكان وزمان يحبون العدل ويكرهون الظلم والجور، وهذا ما أكده القرآن بقوله: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد25.

ومن مزايا المنهج الاسلامي أنه يهدف الى خلق علاقة قوية متينة بين جميع الناس عامة - وبين المؤمنين منهم على وجه الخصوص - لتحقيق الإخاء بينهم على أساس المساواة في أصل الخلق ووحدة الربوبية لله وحده ،عملاً بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الحجرات10.

ويهدف الاسلام من خلال ارساء منهج الأخوة بين المؤمنين به إلى صيانة دمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم .

ولقد عمل المنهج الإسلامي على الموازنة بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة دون أن يجور على احد الطرفين، الأمر الذي لم تراعه المناهج الوضعية ،فالرأسمالية حابت الفرد على حساب الجماعة والاشتراكية ضَيقت حقوق الفرد

ووسعت في حقوق الجماعة وأما المنهج الإسلامي ـ لأنه إلهي ـ فقد وازن بين مختلف الحقوق والواجبات بما تقتضيه المصلحة وفقاً لقاعدة لا ضرر ولا ضرار [22] . وبما أن المنهج الإسلامي صادرُ عن الله سبحانه وتعالى فانه لا يتعارض على الإطلاق مع حقائق الكون المادية التي يتوصل إليها العقل البشري عن طريق الاكتشافات العلمية المتجددة في كل زمان ومكان وهذا سرُ من أسرار تميزه وتفرده وإتيانه بمبادئ وقواعد سامية غير مسبوقة ،يمكن التركيز على ثلاثة قواعد هامة ورئيسية جاء بها الاسلام لتأكيد انسانية الانسان ـ باعتباره خليفة الله في ارضه ـ والتركيز على عالمية الاسلام ،لأن تلك القواعد عالمية صالحة لكل زمان ومكان ويمكن أن نطلق عليها قواعد الاسلام الثلاثة .

6ـ ثلاث قواعد للإسلام:

القواعد الثلاث التي قام عليها الإسلام هي : التوحيد والمساواة والحرية ، تلك القواعد يمكن أن نشكّل بها مثلثاً متساوي الاضلاع يسمى المثلث الاسلامي لحقوق الانسان ، ويمكن أن يتبادر إلى ذهن القارئ السؤال التالي : هل هناك تعارض أو تناقض بين قواعد الإسلام الثلاث ـ التي نقول بها ـ وبين أركان الإسلام الخمسة المشهورة ؟

والجواب هو : أنه ليس هناك من تناقض بين القواعد التي نقترحها وبين أركان الإسلام الخمسة ، بل هناك علاقة قائمة بينهما تشبه علاقة العام بالخاص والكل بالجزء ، فأركان الاسلام يمكن استيعابها داخل المثلث الإسلامي المقترح باعتباره الهيكل العام وهي جزء داخل ذلك الهيكل . فالمثلث الإسلامي يمثل الإسلام العام دين الله الذي ارتضاه لعباده في كل زمان ومكان .

والإسلام القرآني ـ بحسب فهمنا للقرآن ـ يعني في جانب العقيدة خضوع قلب الإنسان ـ لأنه محل نظر الله ـ وجميع جوارحه لله سبحانه وتعالى والتسليم بذلك الخضوع والاستسلام له ، شكلاً ومضموناً ، فكل عمل وكل سلوك يجب أن يتحرك بدافع الخضوع لله والاستسلام له وتنفيذ أوامره ـ قولاً وفعلاً وعملاً ـ كما قال تعالى : {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162

بحيث يتحول ذلك الخضوع والاستسلام الى سلوك معاش وشريعة ربانية قوامها السلم والسلام والمسالمة ، مع كل مسالم على وجه الأرض ـ وخصوصاً المخالفين في العقيدة ـ كي تتحقق مع السلام خلافة الإنسان في الارض تطبيقا لقوله تعالى :

{ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً }البقرة30

فلا خلافة حقيقة الا في ظل السلم والسلام والمسالمة ، تلك هي القاعدة أما حالة الحروب فهي استثناء وقد شرعها الله للدفاع عن النفس ضد كل عدوان خارجي واعتبر الدفاع عن النفس والأرض قتالا في سبيل الله كما قال تعالى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) البقرة :190

فالحروب العدوانية تتنافى مع مبدأ الاستخلاف شكلا ومضموناً وتجعل من المجتمع الإنساني أقرب للقطيع الحيواني منه للمجتمع الإنساني .

وعلى ضوء ما سبق : يغذو الإسلام الرباني القرآني هو الدين العالمي الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء ، كما قال سبحانه وتعالى : {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ }آل عمران19.

يفهم من تلك الآية اولاً : أن المراد من الإسلام هو الانقياد لله تعالى و الخضوع لما أنزل من الشرائع والأحكام ،وعلى ضوء ذلك يلتقي معنى الإسلام في جميع العصور من عصر آدم وإبراهيم وموسى وعيسى وفي عصر خاتم الأنبياء على معنى واحد هو الانقياد لله تعالى والطاعة له سبحانه وتعالى ولشرائعه التي أنزلها على انبيائه وبذلك المعنى يكون الإسلام اسما جامعاً لجميع الشرائع [23] .

وثانياً : أن كل فردٍ أو جماعة تدعو إلى السلم والسلام والمسالمة والتعايش ، في تنظيراتها وأفكارها ، وتطبقه في سلوكها المعاش فهي على دين الإسلام القرآني . والدليل على ما نقول هو قوله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85

أي : الإسلام العام دين الأنبياء جميعاً الذي يشترط الايمان بجميع الرسائل وبجميع الاديان السماوية ، في المجال التنظيري ، ويطبق الإسلام سلماً وسلاماً ومسالمة ، في الجانب التطبيقي العملي الحياتي المعاش ،فمن يجمع بين المجالين التنظيري والتطبيقي فهو مسلم بامتياز ،فالله لا يقبل غير الإسلام الذي يدعو ويطبق السلام والسلم والمسالمة ـ لأن فيه صلاح للكون ولمن فيه ـ وضده هو الإجرام الذي تنكره جميع الشرائع السماوية وجميع الفلسفات الإنسانية ،وترفضه الفطرة السليمة والعقل المستقيم ،فالإسلام ـ بمعناه القرآني ـ هو دين الفطرة كما أخبر عن ذلك الله سبحانه وتعالى بقوله : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }الروم30 . ولا يعرف نعمة الإسلام والسلام إلا من ذاق وباء الحرب والإجرام ـ لأن الضد كفيل بإبراز مميزات ضده كما يقول المثل العربي ـ من أجل ذلك قال الله سبحانه وتعالى : {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }القلم35-36 . فلا عقل ولا منطق ولا دين ولا أخلاق تساوي بين المسالم ـ الذي يسلم جميع المسالمين في كل زمان ومكان من لسانه ويده على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ـ وبين المجرم الذي يفعل عكس المسالم في كل شي ، فالإسلام ضده الإجرام شكلاً ومضموناً .

بناءً على ما سبق نستطيع أن نصنّف ما تقوم به الحركات الإرهابية ـ كالقاعدة وأخواتها ، داعش وجبهة النصرة ـ من قتل وترهيب وتنكيل بالمخالفين لها وهتك لدمائهم ولأعراضهم باليد واللسان ، بأنه إجرام لا علاقة له بالإسلام لا شكلاً ولا مضموناً ، حتى وأن نطقوا بالشهادة ـ كما يشترط الإسلام الذي يقدمه الفقهاء

بناء على طريقة فهمهم وتفسيرهم للإسلام ـ فالقول مرفوض وممقوت عند الله اذا لم يتبعه العمل ، كما قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ }الصف2 ـ 3

فالسلام هو أمان الله في الأرض ، وهو الدين الذي ارتضاه لجميع خلقه وبشرت به جميع رسله ، وهو من اسمائه تعالى كما قال عن نفسه : {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ }الحشر23

والجنة كذلك هي دار السلام الدائم الذي لا ينقطع ولا يفنى ، وهي دار السلامة من الموت والهرم والشقاء والأسقام كما قال تعالى : {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }الأنعام127

والإسلام العام هو دين إبراهيم أبي الانبياء الذي امتد منه إلى إسماعيل وإسحق حتى وصل الى موسى وعيسى عليهم السلام جميعا. والإسلام الذي دعا إليه النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله هو امتداد لدين الله العام الخالص ،كما قال تعالى : {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }النحل123.

والإسلام هو دين عام للبشرية جمعاء ـ بما يمثله من سلم وسلام ، لأنه الكفيل بتنفيذ الاستخلاف ـ وهو مضمون جميع الرسالات السماوية ، والتي تعددت اشكالها بتعدد الأنبياء والرسل ، وبتعدد الأمم على مدار التاريخ .

ولقد جاء تاماً كاملاً يشتمل على العقيدة والشريعة والأخلاق ،بعد وصول البشرية إلى مرحلة الرشد ،وهو خاتم الأديان وكتابه خاتم الكتب ونبيه خاتم الانبياء والمرسلين [24].

وعندما نتكلم عن الإسلام هنا فإننا نقصد به الإسلام القرآني العام الذي يعتبر دين التوحيد مطلقاً من لدن نوح ، مروراً بجميع الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ووصولاً إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام، كما أخبر به القرآن قائلاً : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} {الشُّورى:13} .

وهو الإسلام الذي عناه الله سبحانه وتعالى عندما خاطب نبيه ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ قائلاً له : {قُلْ آَمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ} { آل عمران: 85- 84} .

وعندما خاطب المسلمين المسالمين بقوله: {قُولُوا آَمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {البقرة:136} .

ونجد ملامح الاسلام العام في القرآن في العديد من الآيات منها على سبيل المثال :

وقوله تعالى على لسان حواري عيسى : {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران52.

ونجده كذلك على لسان ابناء خليل الله ابراهيم عليه السلام :{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة133 .

وكذلك على لسان موسى عليه السلام :{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }يونس84.

وعلى لسان سحرة فرعون بعد أن آمنوا برسالة موسى عليه السلام :{وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ }الأعراف126.

فالإسلام القرآني يشترط ثلاثة شروط هي : الإيمان بالله والأيمان باليوم الآخر والعمل الصالح، ويؤكد ذلك قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {البقرة:62} ، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {المائدة:69} .

من تلك الآيات ـ وغيرها كذلك ـ نستنتج اولاً : أن هناك ترابط وتكامل بين جميع الرسالات السماوية ، وذلك يعني أن جميع الشرائع تنفجر من ينبوع واحد ثم تسير في مجرى واحد وتصل إلى مصبِ واحد ، وما بشارة أوائل النبيين بأواخرهم وكذلك تصديق أواخرهم لأوائلهم ، إلاّ تثبيت كون شرائع السماء تتحد في دين واحد ومقصد واحد ومن لدن إله واحد تدعو لعبادته والخضوع له دون غيره [25] .

وثانياً : إن الإسلام هو التسليم بوجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ وباليوم الآخر ، فإذا اقترن ذلك التسليم بالإحسان وبالعمل الصالح كان صاحبه مسلماً ـ بحسب ما ذكره القرآن ـ سواء كان من أتباع النبي محمد ـ صلى الله عليه وعلى آلة ـ (الَّذِينَ آَمَنُوا) أو من أتباع موسى (الَّذِينَ هَادُوا) من الذين التزموا بالتوراة الحقيقية غير

المحرفة أو من أتباع عيسى (النَّصَارَى) الذين يقولون بأن عيسى رسول الله و- لا يؤمنون بالتثليث أو بأن عيسى إله أو ابن الله كما يدعون زوراً وبهتاناً - أو من أي ملة أخرى غير تلك الملل (الصَّابِئُونَ على سبيل المثال) . تلك الشروط الثلاثة - للإسلام العام - نجد فيها جانبين : الأول : نظري بحت هو الايمان بالله وباليوم الآخر . والثاني : عملي سلوكي هو العمل الصالح الذي يشمل تنفيذ جميع الأعمال التي أمر الله بها والامتناع عن الأعمال التي نهى الله عنها ، فليس هناك من معنى للإيمان النظري ما لم يتحول إلى سلوك عملي معاش [26].

وزيادة في التأكيد على أن الاسلام العام يشترط الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح يمكن الوقوف أمام قوله تعالى : {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }آل عمران113- 115.

وعندما خاطب القرآن أهل الكتاب على لسان النبي الكريم ،طلب منهم توحيد الله وعدم الإشراك به: {قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {آل عمران:64} .

أي : مسالمون عن التعرض لكم واكراهكم على اعتناق ديننا ، ونفهم ذلك من قوله تعالى على لسان نبيه الكريم : {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }الكافرون6

وذلك لأن الله تعالى يغفر جميع الذنوب - برحمته تعالى التي وسعت كل شيء - ماعدا الإشراك في عبادته أحداً سواه لأن ذلك يعد أثما عظيما كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} {النساء:48} ويعد كذلك ضلالاً لا حدود له كما قال تعالى :{إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} {النساء:116} .

الآيات السابقة تؤكد ما ذهبنا إليه في كون الإسلام القرآني لا يشترط إلا التوحيد الخالص والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح الذي ينفع الناس جميعاً ،باعتباره من موجبات الاستخلاف في الأرض" فإذا فهمنا ذلك كله رأينا منطقياً وطبيعياً أن يقول سبحانه {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ } وانه لا يقبل ديناً غيره ، اذ كيف يقبل الخالق من عباده ديناً هو غير موجود في الأصل "[27] .

فالإسلام هو مضمون الدين القرآني الوحيد الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لجميع الرسالات السماوية والأمم مهما تنوعت أوصافهم - اتباع موسى واتباع عيسى وغيرهما - والفرق بين الإسلام الذي دعا اليه الرسول محمد - صلى الله عليه وعلى ألة - وبين إسلام الأمم السابقة - التي وضحتها الآيات القرآنية السابقة

ـ أن الإسلام كان لهم وصفا ـ لأنهم سلّموا قلوبهم لله وانقادوا لأوامره تعالى ـ وأما بالنسبة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صارت علما وميزة لها لأنه لم يأت بعدها دين ، فإسلامها إسلام عالمي ،لأن الرسول الكريم بُعث لكل الناس في كل زمان ومكان رحمة مهداة من رب العالمين ـ بخلاف الرسالات السابقة التي كانت مخصوصة لكل قوم في زمان ومكان محدد ـ كما أخبر عن ذلك الله سبحانه وتعالى بقوله : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }الأنبياء107 .

" وإذا اخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية ، فالإسلام ـ في لغة القرآن ـ ليس اسما لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الانبياء وانتسب اليه كل اتباع الانبياء " [28] .

ولذلك فالمسلم ينتسب إلى الإسلام فيقول عندما يُسأل عن ديانته : « أنا مسلم» أما أصحاب الرسالات الأخرى فهم ينتسبون إلى الرسل المبعوثين اليهم، فعندما تسأل أحدهم عن ديانته يقول : أنا مسيحي أو يهودي أو موسوي أوعيسوي وهكذا . وكما هو معلوم لدى النحاة أن الصفة لا تكون اسماً إلا إذا كان الوصف فيها دائماً ومطلقا ـ وليس وصفاً آنياً ـ وبناءً على هذا القياس تكون الأمم السابقة على أمة الإسلام ، أمما مسلمة بالوصف ، بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي تميزت بالإسلام وصفا وصار لها عَلَما .

وقد أختار نبي الله إبراهيم عليه السلام هذا الاسم لأمة محمد كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله : { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين } [الحج : 78]

فهو من سمى المسلمين ـ وجعل الإسلام لهم أسم علم به يعرفون عن غيرهم ـ ولم يصفهم ، إنما قال : { هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين } ، لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام دون تسمية .

كما أن النبي محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ كان أول من أسلم وأول والمسلَمين والمسالمين كذلك ـ بحسب فهمنا للقرآن ـ لأن الله سبحانه أمره بذلك ، نجد ذلك في قوله تعالى :{ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} الانعام : 162 -163 .

وكما قال تعالى :{ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} الزمر : 11 - 12 .

ما سبق يؤكد شمول الاسلام العام ـ الذي استنبطنا منه القواعد الثلاث ـ لأركان الاسلام الخمسة ، فالشهادة تدخل في باب الايمان بالله وبالرسالات السماوية والصلاة والزكاة والصوم والحج تدخل ضمن الأعمال الصالحة التي تقرب العبد من خالقه باعتبارها أموراً تعبديّة .

ويجب أن نلاحظ بأن اليهودية والمسيحية المعاصرتان الآن ليستا ديانتين سماويتين وإنما اليهودية هي تحريف للرسالة الموسوية ، والمسيحية هي تحريف للرسالة العيسوية ، لأن اليهود حرفوا كلام الله سبحانه وتعالى في التوراة وتطاولوا على ذات الله سبحانه ـ تعالى عن ذلك ـ كما قال تعالى :(وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) وكما قال تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق) كما طلبوا رؤية الله جهرة كما قال تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون وذكر قول اليهود والنصارى الذي ينسب له الولد ـ حاشاه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ في قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) وأدعوا زوراً وبهتاناً أنهم أبناء الله وأحبائه ، كما قال تعالى :(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله واحباءه) . وهل من المعقول أن هناك دين سماوي يقول ذلك ؟

وسوف يتم الحديث عن قواعد الاسلام الثلاث كل على حده وسنحاول توضيح علاقة كل مبدأ بالآخر ـ ضمن اطار المثلث الاسلامي ـ باعتبارها علاقة وجود وتكامل في الوقت نفسه في الفصل الثاني .

مراجع الفصل الاول

(1) ينظر : الهام عبد الحميد ،وكمال غيث ،التعليم وحقوق الإنسان في مصر. مركز الدراسات والمعلومات لحقوق الإنسان، القاهرة ،(د ،ت) ص9.

(2) ينظر : عبدالله الخريجي : علم الاجتماع الديني . دار رامتان جده ، السعودية . ط2/ 1990م . ص249.

(3) ينظر : محمد قطب : شبهات حول الإسلام ،دار الشروق ،القاهرة . ط1997/12م .ص107.

(4) عائشة عبد العزيز الحشر : خلف أسوار الحر ملك ، الدار العربية للعلوم ،بيروت ،ط1/ 2007م. ص58.

(5) عمر القرابي : حقوق المرأة بين المواثيق الدولية والإسلام السياسي، منشورات مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ،(د،ت) ص106.

(6) ينظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ،دار القلم، بيروت ،(د، ت) ص202- 203 .

(7) ينظر : محمد قطب : شبهات حول الإسلام ، من ص40 إلى ص49، مرجع سابق ، وينظر ايضاً : الهام عبد الحميد ، وكمال مغيث ،التعليم وحقوق الإنسان ،ص10 ،مرجع سابق.

(8) ينظر : صفي الدين المباركفوري : الرحيق المختوم ،دار الوعي الثوري ،تعز ،اليمن (د ،ت) ص41.

(9) ينظر : محمد قطب : منهج التربية الاسلامية ،ج2.دار الشروق ،القاهرة .ط1983/5م.ص20- 21.

(10) ينظر :حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام /ج1 .دار الجيل ،بيروت .ط1996/14م،ص57.

(11) المرجع السابق ، الصفحة عينها .

(12) صفي الدين المباركفوري : الرحيق المختوم ،ص50 ،مرجع سابق .

(13) محمد الغزالي : فقه السيرة .عالم المعرفة ،بيروت .ط1988/8م،ص21.

(14) ابن هشام : السيرة النبوية ج1، تح :محمد فهمي السرجاني ،المكتبة التوفيقية بالأزهر ،(د - ت) ص230.

(15) ينظر : محمد قطب : منهج التربية الاسلامية ج2.ص23. سابق .

(16) ينظر : احمد أمين : فجر الإسلام ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،ط15 ،(د، ت) ص70.

(17) مراد هوفمان : الإسلام كبديل . الناشر مجلة النور الكويتية، ط1/1993م.ص39.

(18) ينظر: محمد فواد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القران ،مؤسسة جمال ،بيروت . (د ،ت) من ص468- 469.

(19) ينظر : احمد أمين : فجر الإسلام ،ص74- 75 ، مرجع سابق .

(20) طه جابر العلواني : لا أكراه في الدين. مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة .ط2/نوفمبر2006م.ص63.

(21) ينظر : فتحي يكن : كيف ندعو إلى الإسلام ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط13/1991م،ص106.

(22) ينظر : يوسف القرضاوي: شريعة الإسلام ،المكتب الإسلامي ، بيروت . ط3/1983م،ص20- 21.

(23) ينظر : السيد كمال الحيدري (محاضرات) . فلسفة الدين : مدخل لدراسة منشأ الحاجة إلى الدين وتكامل الشرائع .بقلم : الشيخ على حمود العبادي .دار فراقد .قم . ايران . ط1/2008م. ص146.

(24) ينظر :انور الجندي : معلمة الاسلام .المكتب الاسلامي .بيروت .ط2/1980م.ص26.

(25) ينظر : السيد كمال الحيدري (محاضرات) . فلسفة الدين . ص150. سابق .

(26) ينظر : محمد شحرور : الاسلام والايمان منظومة القيم .دار الاهالي ، دمشق .ط1/1996م.ص 38 - 39.

(27) المرجع السابق ،ص38.

(28) محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام . دار القلم دمشق .ط2/2005م . ص76.

الفصـــــــــل الثـــــاني

.المثلث الذي رسمه الاســـــــلام

1.التوحيـــــــــــــــد

2.المســـــــــــــاواة

3.العبادات وتأكيد مبدأ المساواة

4.المؤاخاة بين المســـــــلمين

5. غير المسلم في ظل الاســـــلام

6.الحــــــــريـــــــــة

7.الحريــــــــة والاكــــــراه

8.الـرق في ميزان الاســــــلام

المثلث الذي رسمه الإسلام

أهم القواعد التي جاء بها الإسلام ـ ومن أجلها أيضا ـ تلك التي وضعت الدعائم الأولى لإنسانية الانسان ، وشرّعت لحقوقه في كل زمان ومكان ، واعتمد عليها في إرساء وتثبيت دعائم المجتمع الانساني العالمي هي : التوحيد والمساواة والحرية ، وهي تشكل معاً مثلثاً متساوي الأضلاع يمكن أن نطلق عليه المثلث الإسلامي القرآني للمجتمع الإنساني العالمي.

وكل مبدأ منها يصلح أن يكون قاعدةً للمثلث المذكور لأهميته في نفسه ولعلاقته بالضلعين الآخرين الموجودين معه في نفس المثلث ، فمثلاً يصلح أن يكون مبدأ التوحيد هو قاعدة المثلث وبالتالي فالمساواة والحرية هما الضلعان الآخران في نفس المثلث، وتصلح المساواة والحرية أن تكونا قاعدةً للمثلث المذكور وهكذا دواليك. ولذلك سوف نتناول كل مبدأ بوصفه قاعدةً أو ضلعاً على السواء وبالتناوب.

1- <u>التوحيد :</u>

توحيد الله سبحانه وتعالى بالعبودية دون سواه هو المبدأ الأساسي والجوهري في جميع الرسالات السماوية ، وهو دين الأنبياء جميعاً وهو أقوى وحدة جامعة بين رسالات الله سبحانه وتعالى إلى خلقه [1].

والتوحيد لغة : هو العلم بان الشيء واحدُ . وشرعا : يعني الفن المَدون وهو علم يقتدر به إثبات العقائد الدينية مكتسبُ من أدلتها الشرعية اليقينية وموضوعه ذات الله وصفاته من حيث ما يجب وما يجوز له وما يستحيل عليه [2] .

والتوحيد هو مساواة وحرية في نفس الوقت بمعنى أن جميع البشر يتساوون في عبادة إله واحدِ، يتوجهون إليه بالعبادة ويخضعون له جميعاً دون فرق لأي سبب كان وهذا هو جوهر المساواة ،لأن الله سبحانه { رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2.

وليس رباً لدين معين ولفئة مخصوصة، فجميع البشر في عبادة خالقهم سواء ،لا فرق بين السيد والعبد ولا بين الغني وبين الفقير ولا بين القوي وبين الضعيف إلا بالتقوى وبالعمل الصالح الذي يقربهم من خالقهم ،يقول تعالى : {قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {آل عمران:64} ، يقول الفخر الرازي(606هـ): " إن كلمة سواء كلمة تحمل معنى العدل والإنصاف بيننا جميعاً ،أي :الإنصاف بيننا جميعاً في عبادة الله بالتساوي ،وهو الأمر الذي يعني انه ليس هناك علو أو سيطرة لفئة من الناس على أخرى وان جميع الناس يتمتعون بالحرية والمساواة أمام الله الإله الأوحد للناس جميعاً "[3].

والتوحيدُ حرية وتحرر من عبادة البشر إلى عبادة رب البشر وخالقهم ، به يتحرر الإنسان مادياً ومعنوياً من عبادة أي شيء سوى الله سبحانه وتعالى ويغدو مفهوم العبودية لله سبحانه وتعالى وحده دون اشراك لاحد من خلقه " مهما كان له من قوة او جبروت ـ فيه أعظم معاني التكريم للإنسان فتحرير الانسان من الخوف او الذل والضعف لمخلوق مثله بإسقاط جميع المعبودات من اهم ما جاء به الاسلام لتحرير الانسان في عقيدته وعقله وفكره وحسه "(4).

نعم جاء الإسلام ليحرر العباد من عبادة بعضهم بعضاً ،ومن عبادتهم للأحجار والأشجار ومظاهر الطبيعة المختلفة ومن عبادتهم للمال والجاه والسلطان إلى عبادة الله خالق كل شيء والمستحق دون سواه للعبادة.

لقد كانت عبارة الصحابي الجليل ربعيُ بن عامر خير ممثل لروح الإسلام وخير دليل عليه ،فعندما دخل على رستم قائد جيش الفرس خاطبه قائلاً :أن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (5).

ونجد خير تعبير للتوحيد الذي يرتبط بالحرية في الفكر العربي الاسلامي لدا متصوفة الاسلام ، حيث إن لُب الحرية وجوهرها الحقيقي عندهم هو العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى دون سواه وكما قال الحلاج(301هـ) : من أراد الحرية فليصل العبودية ويغدو الإنسان حُراً كونه عبداً لله سبحانه وتعالى دون سواه ، فالحرية عبودية محققة لله فلا يكون عبداً لغير الله الذي خلقه (6) .

وتأكيد القرآن للدعوة إلى الإسلام العام ينبع من حرصه الشديد على نفي الشركاء مع الله في الألوهية، فقد حاول الطغاة والظلمة على مر العصور استعباد الناس وتأليه أنفسهم معتقدين أنهم من نسل الآلهة وأن دمائهم زكية متفردة، واعتقد بعضهم أن المال والقوة هُما وسيلتان لاستعباد الناس ،حتى جاء الإسلام فكسر القيود الوهمية التي طوق بها الإنسان عنق أخيه الإنسان ، وأثبت أن الناس سواسية في أصل الخلق والتكريم وأن لا فضل لأحدِ على آخر إلاَ بإخلاصه في توحيد خالقه وتأكيد أهليته في الاستخلاف عن طريق العمل الصالح النافع للناس جميعاً ، لقد كان تأله الإنسان على أخيه في الإنسانية أصل كل الشرور في العالم ومنبعها وأساساً لانتهاك جميع الحقوق الإنسانية على مدار التاريخ ،واتخذ التأله أشكالا مختلفة ومسميات شتى تارة تحت اسم أنا ربكم الأعلى وأخرى تحت مسمى الإقطاع الذي يملك كل شيء ـ حتى نفوس البشر وأرزاقهم ـ وتارة تحت وصف السيادة والقوة والغلبة ،لكن ذلك التأله وإن اختلفت أشكاله ودرجاته ومسمياته إلا أنها تتفق على حقيقة واحدةِ هي أنه تأله زائف وطاغوت زائل وهو انتهاك صريح وواضح لإنسانية الإنسان ولكرامته ولحريته .

ويمكن القول أن الدعوة إلى توحيد الله التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل ابتدأ بآدم عليه السلام وحتى النبي الكريم ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى

التسليم ـ جعلت أول مبادئها وأهمها (أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وهي تشكل لب وجوهر وخلاصة دعوة الأنبياء والرسل لإلغاء الأرباب من دون الله وتحرير البشر من الخضوع لأقرانهم من بني جلدتهم ممن ادعوا الألوهية زوراً وبهتاناً . إن دعوة الأنبياء إلى التوحيد تشكل مداراً للتاريخ الإنساني وقصةً للصراع بين الخير والشر، بين توحيد الله وشرعه الذي يسوي بين جميع الناس وبين الطواغيت الذين لا يؤمنون بالمساواة ، فالنبوة في حقيقتها دعوة صريحة إلى الحرية والمساواة التي تمثل روح الحقوق الإنسانية وجوهرها ، ومن يحاول إنكار النبوة يعرف مسبقاً أنه يطلب لنفسه ولطبقته امتيازات خاصة وهو بذلك يعتدي على حقوق الإنسان (7) .

وهناك تلازم واضح بين توحيد الله تعالى وبين إنسانية الإنسان ، بحيث إن الألوهية لله سبحانه ، تستدعي عبودية الإنسان له دون سواه ، ومن يتأمل جيدا يجد أن بين " ألوهية الله للكون وعبودية الإنسان لله تلازماً ، فلا يكون الله إلهاً للإنسان الا حيث يكون الإنسان عبداً لله والعكس أيضا صحيح ،فلا يكون الإنسان عبداً لله إلا حيث يكون الله إلهاُ له "(8).

إن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبوديةِ دون سواه وتنزيهه عن الشريك والولد هي القاعدة التي تُبنى عليها حقوق الإنسان في كل زمان ومكان ،ذلك أن المعول الرئيسي في قيام حقوق الإنسان أو سقوطها إنما يتعلق أولا وأخيراً بالإيمان بالله تعالى "فإذا أنكر امرؤ وجود الله، فإنه بهذا يضع كافة الحقوق تلقائياً تحت تصرف الإنسان أو رحمته حتى لو استطاع بذلك خداع نفسه حيناً من الدهر بإشارته إلى الحقوق الطبيعية المزعومة "(9) .

وإذا كان الإسلام قد عمل على تحرير الإنسان من رق العبودية لغير خالقه ورازقه فانه قد اهتم ـ بنفس الدرجة ـ بتحرير عقله من الجهل والخرافة والشعوذة والكهانة وأعتق عقل الإنسان من أسر الوهم والخوف ، فحاز الإنسان بمقتضى الإسلام كما قال الإمام محمد عبده أمرين عظيمين طالما حُرم منهما وهما : "استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر وبهما كملت إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فُطر عليها " (10).

من أجل ذلك حرص القرآن الكريم أن يوجه خطابه للعقل الإنساني لأنه المعيارُ الوحيد الذي يساوي بين البشر ـ وهو أعدل الاشياء قسمةِ بينهم بحسب توصيف المعتزلة ـ وهو مناط التكليف الحقيقي والجوهر الذي يفرق بين الإنسان وسائر الكائنات الأخرى المندرجة معه تحت نفس الجنس، وحرص القرآن على توجيه خطابه لقوم يعقلون ويتفكرون ويتدبرون ،جاعلاً من الإيمان بالله وحده عقلاً خالصاً وما عداه من الشرك وهماً وظلالاً وخرافة ـ أو لا عقل ـ لقد اصطبغت قضية الصراع بين الخير والشر في القرآن الكريم بصيغة الصراع بين التوحيد والشرك وبين العقل واللاعقل ،وقدم القرآن تاريخ الإنسانية من لدن آدم عليه السلام حتى آخر الأنبياء باعتباره تاريخاً لهذا الصراع ،فجميع الأنبياء عليهم

السلام خاضوا صراعاً مريراً مع أقوامهم من أجل الإيمان بالله وحده لا شريك له .وذلك لأن الشرك ـ الذي يعني القول بتعدد الآلهة ـ ينطوي في ذاته على تناقضٍ لا يقبله العقل السليم، إذ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} {الأنبياء:22} ،و نقيض الشرك ـ هو التوحيد ـ وهو المقبول وحده ،من هنا يقدم القرآن كفاح الأنبياء على أنه كفاحُ من أجل نشر خطاب العقل وترجيحه بل وتسويده على خطاب اللاعقل ،الخطاب المكرس للشرك [11].

من هنا نلاحظ أن عقيدة التوحيد هي أولى دعائم حقوق الإنسان لأنها تسوي بين جميع الناس دون استثناء وتعمل على تحريرهم من الداخل ،عن طريق تحرير عقولهم من الخضوع لغير الله سبحانه وتعالى .

ويغدو التوحيد باختصار شديد : مساواة وحرية ،وهما من أهم المبادئ التي جاء بها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .
ذلك هو الإسلام الذي قرر وأكد على توحيد الله توحيداً كاملاً مطلقاً في ذاته وصفاته ،والتوجه اليه وحده في كل زمان ومكان توجهاً بعيداً عن أي شريك وبهذا حرر الإنسان من كل عبودية للأفراد ، مما ثبّت في داخل كل إنسان معنى "الكرامة والقوة وعدم الخوف او الاستذلال من هوى أو غريزة ، بعبارة موجزة منح لإنسانية الإنسان أعظم عناصر القوة في مواجهة الحياة وحرره من جميع السلبيات التي تمزق إنسانيته "[12] .

إن التوحيد نقل الإنسان من عصرٍ إلى عصر آخر، من الجاهلية إلى الإسلام ومن وضعٍ اجتماعي واقتصادي ونفسي سيء ومتدنٍ وغير لائق بإنسانية الإنسان ،إلى وضع مناسب لكل الجوانب الإنسانية داخل الإنسان من النقيض إلى النقيض ،من العبودية إلى المساواة من الخرافة إلى العقل ،لقد حرر التوحيد الإنسان على المستوى المادي ـ من ذل العبودية والاسترقاق ـ وعلى المستوى المعنوي من العبودية الفكرية للأوهام والخرافات والطواغيت ،فحرية الوجدان وتحريره من الرق والعبودية لغير الله متلازم "مع حرية العقل وتحريره من الأوهام والانغلاق والتبعية العمياء والدين الإسلامي بقدر ما جاء يؤسس الحياة على دعائم الوحي فإنه جاء يعلي من شأن العقل ويرفع من مقامه ويجعل منه ظهيراً للوحي في قيادة الحياة كما جعل مصير الإنسان فيما ينتهجه من منهج وما يهدف إليه من غاية رهين اشتراك بين وحي إلهي وبين عقل بشري "[13] .

وكان لا بد لطواغيت الإنس أن يتصدوا للنبوة التي جاءت معها بفكرة الإله الواحد ـ الذي يساوي بين جميع الناس في عبوديتهم له ـ الذي يستحق العبادة لأنها تكشف عوراتهم وتفضح أوهامهم و زيف ادعائهم لأن الإله الواحد الذي يستحق العبادة به كل الصفات التي كان الملأ والمترفين ينسبونها لأنفسهم زوراً وبهتاناً، فهو القوي المتين وهو الرزاق لكل ذي حياة يدب على الأرض وهو خالق كل شيء بكلمة كُن ،أما الأرباب المزيفون فإنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ولا يملكون لأنفسهم ولغيرهم نفعاً ولا ضراً. ولذلك حاربوا الإسلام ـ

دين التوحيد ـ بكل ما أوتوا من قوةٍ لأنه يجعل منهم بشراً مساوين لعبيدهم " إن الغاية النهائية لعقيدة التوحيد هي التسوية بين الناس أو مساواة الكبراء المتألهين بسائر البشر ،لأنها تنزع عنهم الألوهيات المزيفة وتعيدهم إلى وضعهم الإنساني وهم يُريدون أن يجعلوا من أنفسهم آلهة فوق البشر "[14].

ولقد جاء القرآن ـ دستور الإسلام ـ بكل الآيات الدالة والداعمة لمعنى التوحيد ونفي الشرك وأكد على أن الله واحد ،كما قال تعالى : {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} {الإخلاص } ،وكانت المناداة بإله واحد ـ بدلاً عن الآلهة المتفرقة التي وصلت لحدود 360 صنماً ـ فكرة راقية تجمع الناس لعبادة إله واحد، تلك الفكرة كانت تسعى " نحو معنى راقٍ لفكرة الإله المنزه المفارق وكانت تطمح من ناحية ثانية إلى توحيد المجتمع العربي بمحاولة نسخ الأديان القائمة والسعي إلى توحيد المجتمع كله في عقيدة واحدة "[15].

إن مبدأ التوحيد الذي جاء به الإسلام وأيده القرآن كان يحمل في طياته بُعدين متداخلين متفاعلين هما : البعد الميتافيزيقي ونعني به وحدة الألوهة ،والبعد التاريخي والاجتماعي ـ الذي عبَّر عن تاريخ العرب ،وعن وجهته في آخر العصر الجاهلي و سعى إلى تفجير جميع الأطر القبلية المتعددة والمقفل بعضها عن بعض من اجل أن يدخل عرب شبه الجزيرة جميعاً في إطار توحيدي يجعل منهم نواة شعب واحد أو جنين أمة واحده [16] .

لقد استطاع القرآن ـ من خلال استخدامه لأساليب العقل والمنطق والجدال بالتي هي أحسن مع المشركين ومع أصحاب الديانات الأخرى ـ متسلحاً بالحكمة أن يسقط حُجج جميع الآلهة البشرية التي ادعت الألوهية وكانت تعبد من دون الله ،فأسقط الأصنام الحجرية والبشرية وأصنام السلطة وأصنام المال وأصنام الشهوات التي استبدت بالناس حيناً من الدهر وأحل محل تلك الأصنام المتعددة عبادة الإله الواحد الرمز والمثل الأعلى ،الخالق الحكيم الرحيم ،الذي يلهم الناس فعل الخير ويأمر بالعدل والإحسان ويدعو إلى الحرية ويوجب المساواة والأخوة بين الناس لأنهم من أصل واحد ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وينقذهم من الظلمات إلى النور.

وفي نهاية المطاف يمكن القول بكل ثقة بأن الغاية النهائية لدعوة التوحيد إلى الإيمان بالله وعدم الإشراك به هي السبيل الوحيد لتوفير كرامة الإنسان وتحقيق إنسانيته ومساواته بالآخرين ،لأن التوحيد يعني أولاً وأخيراً التحرر من الخضوع لأي مخلوق سوى الله [17].

إن توحيد الله في الإسلام دليل على ارتقاء الإنسانية وتقدمها من الطفولة البشرية إلى الرشد الإنساني ،وطريق الى وحدة الجماعة الإنسانية لمحو الفوارق ،خاصة فيما يتصل بفوارق ،الجنس أو الانتماء إلى القبيلة [18] .

مما سبق اتضح لنا مدى العلاقة والتلازم بين التوحيد ومبدأ المساواة في الإسلام ، وهذا ما سوف يتم التأكيد عليه فيما يأتي .

2- المساواة :

عندما داس رجل من فزارة إزار جبلة بن الأيهم لطمهُ الأخير لطمة قويةً أسالت الدم من أنف الفزاري ،فأراد عمر بن الخطاب الاقتصاص من الظالم فخاف جبلة وقال لعُمر: أتقتص مني له وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما .

نعم الإسلام ساوى بين الملوك والسوقة وبين العبد والسيد وبين الغني والفقير و بين الرجل والمرأة ،وساوى كذلك بين القرشي وغير القرشي و بين العربي والأعجمي . باختصار ساوى الإسلام بين جميع الناس دون استثناء وجعلهم سواسية كأسنان المشط أمام خالقهم ،وهذا يكفي ليعلم الناس أن الإسلام هو دين المساواة، وهي القاعدة التي بنى عليها الإسلام جميع قواعده ،باعتباره امتداداً للرسالات السماوية السابقة التي أجمعت على إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وهذه نقلة نوعية راقية في التاريخ البشري تؤكد المساواة وتقويها في نفس الوقت .

فالناس سواسية وأحرار أيضا في عبادتهم لله سبحانه وتعالى وهو الهدف المعلن من إرسال الرسل والأنبياء، للدعوة الى توحيد الله ونفي الشرك الذي يأتي من عبادة البشر بعضهم لبعض ،أو من عبادتهم لمظاهر الطبيعة المختلفة التي قد تضر ولا تنفع ولا تملك الشفاعة حتى لنفسها وهذا يؤدي إلى الظلم الذي حرمه الله ،لأن من يدعي مالا يملك وما ليس له فهو كاذب وظالم لنفسه وللآخرين ، وادعاء الألوهية شيء من هذا القبيل ، ذلك أن مدعي الألوهية يرى أن الآخرين أقل منه شاناً وليسوا أندادا متساوين في الإنسانية ، وبذلك صرح الله سبحانه قائلاً لجميع الناس : {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} {لقمان:13} .

نعم هو ظلم عظيم ، للنفس أولاً : بتحميلها ما لا طاقة لها به ،فهي لا تستحق هذا المقام ولا تستطيع تحمل أعبائه وتبعاته ،وهو ثانياً: ظلم للآخرين كذلك لأنهم يعبدون أمثالهم في الإنسانية من دون وجه حق.

ويمكن القول بأن الإسلام قد جاء بقضيتين هامتين متلازمتين ومتكاملتين هما : التوحيد والمساواة ،وكان أشد ما أغاظ مشركي قريش من النبي صلى الله عليه وآلة وسلم إنه كان يدعو إلى العدل بين الناس والمساواة بينهم ،بحيث يكون الناس متساوون كأسنان المشط لا يمتاز بعضهم عن بعض ولا يستعلي بعضهم على بعض [19] .

وهذا ما أكده القرآن في أكثر من آية ،قال تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ

خَبِيرٌ} {الحجرات:13}، وقال تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} {النساء:1} .

فإذا كان الربُ واحدً و الأبُ واحدً و النفسُ واحدةً فماذا يبقى ليتفاخر به الناس بعضهم على بعض؟

إن الإيمان بوحدة الأصل الإنساني وبعبوديته لخالقه هو السبيل الوحيد لإلغاء الفوارق والامتيازات القسرية التي لا اختيار للإنسان فيها كاللون والعرق والجنس واللغة وكلها أمور تؤدي إلى العنصرية القائلة بأن الاختلاف في الشروط السابقة ـ أو في واحد منها ـ يؤدي إلى اختلاف في السلوك والقدرات الإنسانية وهذا ما أبطله الإسلام ونفاه ودحضته العلوم المختلفة في الوقت الراهن .

إن المساواة التي نادى بها الإسلام نابعة من أصل الخلق و هي أساس الحقوق جميعاً ووسيلة لتحقيقها ،من خلال منح جميع الناس الفرص المتكافئة وجعل ميزان الكرامة الإنسانية يستند إلى ثقل التقوى والعمل الصالح الذي ينفع الفرد والمجتمع ،وهذا معيار كسبي منوط بعمل الإنسان وخبرته وسعيه وليس لسبب آخر كاللون والجنس والنسب [20] .

إن التكريم الإلهي شامل لبني آدم جميعاً ـ دون استثناء ـ لأن الله خلقهم جميعاً من طين واحد ونفخ فيهم من روحه وهذا هو السبب المباشر للتكريم ، أنهم يحملون جميعاً النفخة الإلهية ويستوي في ذلك المؤمن والكافر والبر والفاجر، كما قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} {الإسراء:70} .

والمقصود بالآية :أن الله تعالى كرمهم بجنسهم لا بأشخاصهم ولا بعناصرهم ولا بقبائلهم ،فالكرامة لجميع الناس على سبيل المساواة المطلقة ، فكل الناس لآدم وآدم عليه السلام قد كُرم سابقاً وأبناءه جميعاً سواء في هذا وذاك [21] .

ولقد جسَّد الرسول ـ صلى الله عليه وآلة وسلم ـ مبادئ المساواة في سلوكه المعاش قولاً نظرياً وعملاً تطبيقياً مباشراً على أساس أصل الخلق المشترك الذي نادى به القرآن ، ذلك أن الرسول الكريم كان محل التنزيل والبيان وأنموذج الاقتداء وتجسدت قيم الوحي في سلوكه حيث حوّل الفكر من قول وتنظير إلى فعلِ وممارسة وسلوك معاش[22] .

وهذا ما أكده الرسول الأكرم في خطبة حجة الوداع قائلاً : إن أباكم لواحد وإن ربكم لواحد كلكم لآدم وآدم من تراب وغدت المبادئ الرئيسية في خطبة حجة الوداع هي " أن الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز لا يفرق بينها سواد أو بياض ولا يفاوت بينها نسب أفريقي أو أوربي فالنزعات العنصرية والنعرات الوطنية ضرب من الدجل والإفك " [23] .

فإذا كان الإنسان مخلوقاً من تراب ـ أو طين ـ فكيف يتأتى له أن يدعي الألوهية ؟ وكيف يقبل لنفسه التمايز والتفاخر على الآخرين وهم مخلوقون من نفس التراب ؟ لقد ذكّر القرآنُ الإنسانَ دائماً بحقيقة أصله الطيني في أكثر من آية منها : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} {المؤمنون:12} {وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} {ص:71} .

أتدرون لماذا يُذّكر القرآن الإنسان بأنه مخلوق من طين ؟ من أجل أن يشكل لهم ذلك التذكير "واقياً من عظمة كاذبة أو كبرياء متطرفة " [24].

لقد أكد الإسلام على المساواة واعتبرها قاعدة في المثلث الإسلامي الذي يشمل التوحيد والحرية ، فلا مساواة من دون الاعتراف بمبدأي التوحيد والحرية ،فالناس متساوون لأنهم يعبدون إلها واحداً ولأنهم أحرار في عبادتهم لله أوفي عدم عبادتهم له ، فالإسلام من حيث جوهره بالذات ومن حيث منطق نظامه "قد بدا فور ظهوره دين المساواة من خلال الصورة التي قدمها عن الله والكون والإنسان ،فلقد وضعت التعاليم القرآنية حداً للطبقية الاجتماعية حين جعلت آدم أصلا لجميع الناس " [25].

وفي ظل مبدأ المساواة أصبح الإنسان عبداً لله وحده وأمسى خادماً له وحده ولم تعد تربطه بالآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحر نحو الإنسان الحر ، في حين قاسى الناس ـ قبل ظهور الإسلام جميع المظالم الفردية والاجتماعية أعلن الإسلام المساواة التامة بين البشر و" جعل التفاضل بين المسلمين لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء ولكن على أساس الخوف من الله والعمل الصالح والصفات الخلقية والفكرية " [26].

إن مبدأ المساواة شكّل حجر الزاوية في الصرح الاجتماعي الإسلامي الجديد وعرف الإسلام كيف ينشئ مجتمعاً متناسقاً بلا طبقات باعتبار المساواة المطلقة بين جميع الناس هي التي تحدد العلاقة القائمة بينهم وجعل الإخاء والحرية من المبادئ البديهية التي لا يطالب بها المجتمع المسلم لأنها موجودة أصلا عن طريق تضمنهما واحتوائهما داخل مبدأ المساواة والارتفاع بهما ـ من خلال المساواة ـ التي يترتب عليها أن جميع الناس إخوة وأحرار بأصل الخلق .

وكما نعلم أن الحرية والمساواة والإخاء كانت هي الدوافع الرئيسية لجميع الثورات التي حدثت في أوربا وخصوصاً الثورة الفرنسية [27].

لقد قرر الإسلام مبدأ المساواة من خلال النصوص ـ القرآن والسنة الموافقة له ـ وبالتطبيق العملي والسلوك المعاش من لدن الرسول الكريم والخلفاء الراشدين والصحابة الأخيار لأن القرآن قرر وأكد ـ من خلال نصوصه وسلوك من آمنوا به ـ على وحدة الجنس البشري بداية ونهاية في الحقوق والواجبات أمام الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالعمل الصالح الذي يعم

نفعه الناس جميعاً ولا كرامة حقيقية إلا للأتقى منهم الذي يلتزم بتطبيق كل المبادئ التي تقدس الله سبحانه وتعالى وتُعلي من شأن خليفته في أرضه .

ولقد شكلت تلك المساواة التي عاشها المسلم في عهد الرسول ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة واتم التسليم ـ وثبة قلّ أن يعرف التاريخ الإنساني مثيلاً لها ولا تزال تشكل حتى الآن قيمة بحد ذاتها ـ لا ولن يرتفع إليها البشر ـ ويمكن القول أن المساواة الإسلامية كانت نشأة أخرى للإنسانية ولد فيها الإنسانُ الأسمى ـ الأمر الذي تراجعت عنه القوانين البشرية الوضعية ـ ولن تستطيع الوصول إليه إلا في ظل الإسلام وحده [28] .

وبقية الظلال الوضعية البشرية ما هي إلا سراب يحسبه الظمآن إلى المساواة ماء ولكن كيف عمل الإسلام على غرس مبدأ المساواة بين أفراده ؟

الإجابة يمكن تفصيلها في الصفحات التالية .

<u>2- 1- العبادات وتأكيد مبدأ المساواة :</u>

عمل الإسلام على إقرار المساواة عن طريق العقيدة ـ التوحيد كما أسلفنا ـ وعن طريق الشريعة بما تضمنته من أوامر ونواهي وعبادات مختلفة ، فجميع العبادات في الإسلام تؤكد على مبدأ المساواة وتسعى من خلال تلك العبادات إلى تطبيق ذلك المبدأ عملياً في الواقع.

واذا كان التوحيد هو عماد العقيدة الإسلامية ، فأن العدل هو عماد تلك الشريعة ، لأن قضية العدل هي من أهم القضايا التي ترتبط بحياة الإنسان وبحقوقه ، في كل زمان ومكان ، لأنه أمر الله إلى خلقه ،كما قال تعالى : {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ }النحل90 .

وقد بين القرآن الكريم أن الغرض الرئيس من أرسال الأنبياء والرسل والهدف الجوهري لجميع الشرائع والأديان السماوية ،هو إقامة العدل في الأرض بين كل الناس على أساس الأصل الإنساني المشترك ، كما قال سبحانه وتعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد25 .

ومن يقارن الجانب التعبدي في الإسلام مع غيره من الديانات ، يجد تميزاً واضحاً وفرادة بينةً له عن البقية . فبينما تعتمد العبادات ـ في الديانات الأخرى ـ وتتعامل مع جانب واحد من جوانب الكينونة البشرية في أداء متطلباتها والاستجابة لنظمها ، كإشباع الجانب الروحي فقط ـ كما هو حاصل في المسيحية ـ أو الاهتمام بالجانب الجسدي البحت والذي نجده في الديانات البدائية ، أو استثمار الجانب العقلي ، كما هو حاصل في الديانات الشرقية ، نجد أن العبادة في الإسلام تشمل جميع الجوانب التي أهتمت بها تلك الديانات منفردة ، فالعبادات في الإسلام " تعتمد وتشحذ كل

مقومات الكينونة عقلاً وروحاً وعاطفة وجسداً ووجداناً ، ونظرة سريعة في أي فعالية تعبدية إسلامية تطلعنا على هذا التوازن والترابط والتناغم بين مكونات النفس البشرية كلها وهي تمارس تجربتها إزاء الله تعالى " [29] .

فالصلاة تؤكد المساواة خمس مرات في اليوم والليلة يقف فيها جميع المسلمين في الصفوف سواسية بلا استثناء، الغني بجانب الفقير والرئيس بجانب المرؤوس والعالم بجانب الجاهل ،لأنهم متساوون في عبوديتهم لخالقهم من يوم أن خلقهم من أب واحد ، وهم جماعة تتكون من مختلف الأعراق والأجناس والألوان واللغات المختلفة ،لكنها تشكل واحداً متجانسا، لأن الصلاة جعلت من ذلك الاختلاف الظاهري واحداً مؤتلفاً فهم متعددون في الظاهر لكنهم يجب أن يكونوا في صلاتهم على قلب رجلٍ واحد في الحقيقة وفي الواقع المعاش وأمام خالقهم أيضا في ركوعهم وسجودهم.

وهذا هو الهدف المنشود والحقيقي لروح الصلاة الجماعية ،أن يشكل المجموع الكبير واحداً كثيراً بقلب واحد وهدفٍ واحد لأن ربهم واحد وأبوهم واحد وبالتالي فهم متساوون ولا فرق بينهم إلا بالعمل الصالح النافع لهم جميعاً ،وذلك هو الهدف المنشود من إنشاء المساجد في الإسلام، فإذا كانت " الحياة تفرق الناس ،فإن المسجد يجمعهم ويمزجهم إنها مدرسة يومية للتآلف والمساواة والوحدة ومشاعر الود "[30] .

والصيام يساوي بين جميع المسلمين في جميع طقوسه المعتادة ،من الامساك عن الطعام في وقت واحد والامتناع عن جميع الغرائز والشهوات المباحة ـ في الأيام العادية ـ والإفطار في وقت واحد ، فليس هناك تفاوت بين الغني والفقير وبين القوي والضعيف وبين الحاكم والمحكوم ، كلهم يتساوون في الشعور بالجوع والعطش وهم واحد في ذلك يجمعهم الالتزام بتنفيذ أوامر الله ويساوي بينهم الجوع والعطش، والصيام هو من أهم العبادات التي تؤكد على " روح المساواة الإسلامية إذ يُكره الأغنياء والفقراء على السواء على حرمان النفس "[31].

والزكاة مساواة بين من يملك ومن لا يملك، لأن المال في الأساس هو ملك لله فهو الرزاق المعطي ووجه المساواة التي تفرضها الزكاة هي أنها تجعل للفقير نفس الحق في جزء من مال الغني ، بمعنى أن إعطاء الغني من ماله للفقير هو حق للأخير وليس تفضلاً من الأول ومنّة منه على الثاني . ويؤكد القرآن ذلك المبدأ في ويشجع المؤمنين على القيام به في العديد من الآيات القرآنية ، ويتميزون به عن غيرهم ، فهم المؤمنين الحقيقيين ، وليس سواهم ، كما قال تعالى في وصفهم: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ} {المعارج:25}، ومن يستشعرون ذلك الحق ويؤدونه هم المحسنون من المؤمنين وهم أعلى درجة من المتقين ، قال تعالى : {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ} {الذاريات:16-19 }.

وكما هو معلوم أن الدين الحق يتكون من ثلاثة أركان " إيمان وإسلام وإحسان ،الإيمان في القلب ومكان الإسلام الجسم كله ومستقر الإحسان صِلة ما بين القلب الذي آمن والجسد الذي أسلم " [32].

والحج في الإسلام يمثل قمة المساواة المطلقة بين جميع المسلمين ، فهم يلبسون نفس اللباس الذي لا يترك المجال للغني أن يفاخر الآخرين بما لديه ولا يتميز الحاكم عن رعيته لأنهم يرتدون نفس الخرقة ويؤدون الشعائر عينها سوية يطوفون ويسعون في نفس المكان والزمان ويقفون في جبل عرفات سوية في عز حرارة الشمس ويتزاحمون في رمي الجمرات ويرمون الجمرات عينها في نفس المكان ، باختصار جميع الحجاج يؤدون نفس المشاعر ويعانون نفس المشقة ، فلا تميز بين غني و فقير وبين حاكم ومحكوم ، فهل بعد تلك المساواة مساواة ؟

إن جميع تلك العبادات ـ التي تشكّل عماد الإسلام وأركانه الأساسية ـ تسعى جميعا لتحقيق هدف واحد " الصلاة للاتحاد بالله والزكاة للاتحاد بالناس والحج للاتحاد مع الأمة والصوم لأجل استذكار الله والجوعى في آن واحد " [33] .

وتساهم العبادات في الإسلام مساهمة فعالة في تحرير الإنسان في اتجاهات ثلاثة ، أولها الاتجاه الديني ، بحيث تتيح للمسلم أن يمارس حريته المطلقة في الإتصال بالله ، وعبادته من غير واسطة من رجال دين ، أو اصنام ـ من حجر أو بشر ـ أو هيئات ومؤسسات دينية . وتتيح العبادة للمسلم ـ من جهة ثانية ـ حرية العودة إلى الله و التوبة اليه مباشرة من غير حاجة لصكوك الغفران ـ كما في المسيحية ـ التي يتوقف إصدارها على رجل دين أو هيئة دينية متنفذة ، ومن جهة ثالثة أن المسلم ـ عن طريق تلك الحرية ـ يستطيع أن يتجاوز القيود والحواجز التي تقف في طريق الكثيرين من اتباع الديانات الوضعية الأخرى ـ واتباع الرسالات السماوية ـ والتي تصدهم عن المضي في عبادة الله أو التوبة والإنابة اليه ، الأ بعد أن يدفعوا ثمناً أو يحنوا رأساً أو يتعهدوا بطاعته مكرهين ، وكثيراً ما أتخذ السلطان من هذا التنظيم الديني الخاطئ وسيلة للقهر والإرهاب تسلطها في أحايين كثيرة ضد جماهير المؤمنين كلما سنح الأمر [34].

فالهدف الجوهري للرسالات السماوية هو المساواة بين جميع الناس ويمكن أن تتحقق تلك المساواة المنشودة في حالة واحدة هي : متى ما عرف جميع بني الإنسان أنهم ينحدرون من أب واحد ، و أن الله تعالى هو خالقهم ونافخ روح الحياة في أجسامهم . فالمساواة الإنسانية خصوصية دينية وأخلاقية وليست حقيقة طبيعية أو مادية أو عقلية . فإذا نظرنا إلى الناس من الناحية المادية أو الفكرية أو ككائنات اجتماعية أو كأعضاء في مجموعة أو في طبقه أو تجمع سياسي أو أمُمي ، فالناس ـ في كل ما سبق ـ غير متساوين ، فطالما حذفنا المدخل الديني من حسابنا سرعان ما يمتلئ المكان بأشكال من اللامساواة :عرقياً وقومياً واجتماعياً وسياسياً ، فمن السهل على العلم ـ بعد الملاحظات الموضوعية ـ أن يقرر مبدأ اللامساواة بين جميع الناس ـ ومن ثم العنصرية العلمية ـ تبدو ممكنة

جداً و منطقية في نفس الوقت . وعلى النقيض من ذلك نجد أن حجر الزاوية في الرسالات السماوية هي (الأصل المشترك) لجميع الناس ومن ثم المساواة المطلقة بينهم، إن النظم الدينية والأخلاقية التي لا تعترف بالخلود الأخروي لا تعترف بالتالي بالمساواة ، فإذا لم يكن الله موجوداً فإن الناس بجلاء وبلا أمل غير متساوين [35].

ويتساءل (على عزت بيجوفيتش) لماذا نصادف الكثير من المعوقين حول المساجد والكنائس والمعابد ؟ ويُجيب بالتأكيد : أن بيوت الله وحدها تفتح أبوابها للفقراء في المال والصحة وفي بيوت الله يمكن للفقير والأعمى أن يقفا جنباً إلى جنب مع ملك أو نبيل وقد يكون عند الله أفضل منهما ويؤكد على إن: أهم معنى حضاري وإنساني لأماكن العبادة يكمن في البرهان المتكرر على المساواة [36] .

إن الدين فقط هو من يؤكد المساواة وليس العلم أو الفلسفة اللذان أكدا على عدم المساواة بين البشر، (فأرسطو) قد أكد على عدم المساواة كضرورة اجتماعية ليتفرغ الفلاسفة للتفكير ويتولى العبيد خدمتهم والسهر على راحتهم ،أما الفيلسوف الألماني نتشه (1844 - 1900م) فقد قال بأن الدين اخترعه الضعفاء ليتساووا مع الأقوياء وبالتالي فالمساواة غير ممكنه وبخلاف ما قاله الفلاسفة فإن الرسالات السماوية ترى عكس ذلك وتؤكد على أن المساواة هي أساس وجود الأديان " فالوحدة الداخلية في الأديان غير متأتية عن وحدة الحقيقة فحسب بل عن وحدة الجنس البشري " [37]

وهناك من يرى أن الإسلام لو اكتفى بدعوة قريش إلى التوحيد فقط دون أن يأمرهم بالمساواة بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد والأقوياء والضعفاء لأجابته كثرتهم دون مشقة أو جهد ، لأن قريشاً لم تكن تؤمن بأصنامها إيمانا خالصاً ولم تكن حريصة عليها حرصاً صادقاً بل اتخذتها وسيلة وليست غاية ، وما كان يهم قريشاً هو أن يبقى الوضع الاجتماعي والاقتصادي كما هو دون تغيير [38] .

لقد عمل الإسلام على إرساء مبدأ المساواة ، تنظراً من خلال القرآن الكريم ، وتطبيقاً من خلال السلوك العملي الذي طبقه الرسول بين المسلمين، ودعوته للمؤاخاة بينهم على أساس الأخوة في الانسانية وفي الدين كذلك .

<u>2- 2- المؤاخاة بين المسلمين :</u>

لقد اتُخذت المساواة التي نادى بها الإسلام وليجةً للأخوة بين المسلمين على أساس من قوله تعالى : {إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} {الحجرات:10} ، وكما تجسدت تلك المساواة في العقيدة وفي الأصل الآدمي المشترك . وعليه يجب ان تصب الأخوة في بحر الأمة الإسلامية الواسع أولاً، وتتوسع في المستقبل لتشمل جميع بني الإنسان ، فالله سبحانه هو رب العاملين ، والرسول الأعظم هو رحمة للناس

كافة ،بحيث تصل الإنسانية ـ مع تطبيق النص القرآني والسلوك الرسولي ـ لحالة الجسد العالمي الإنساني الواحد ،إذا اشتكى منه عضو في أي جهة من الأرض ، تداعت له سائر الأعضاء في بقية الجهات بالسهر والحمى .

وهذا ما حصل فعلاً في بداية تكوين الأمة الإسلامية بعد هجرة الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إلى المدينة المنورة ،فقد كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هي اللبنّة الأولى التي كونت أساس الدولة الإسلامية ، وهي أعظم إنجاز للنبي الكريم على وجه الأرض لم يسبق إليه أحدٌ من قبله ـ ولن يصل إليه أحدُ بعده حتى الآن ـ وذلك أن تجميع شعوب وقبائل متفرقة ومتناحرة تحت سقف واحد وفي زمن قياسي أمر في غاية الصعوبة لا يقدر عليه إلا صفوة الصفوة . وغدا شعارهم الجديد كما وصفهم القرآن بقوله : {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} {الحشر:9} ، فالإنسان بطبعه يحب الأثرة ويقدم الذات على ما عداها وهو شديد على ذلك ، فمن الصعوبة أن تجد إخوة في النسب ويحب بعضهم بعضاً كما حصل إبان المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وتفسير ذلك أن الله تعالى هو من أشعل في قلوب المسلمين فتيل الإيمان الذي ينكر الذات ولا يُقيم لها وزناً أمام ما ينتظرهم في الآخرة ، وكان سلوك الرسول الكريم ـ قرآناً يتلى ويطبق في نفس الوقت ـ فكان نعم الأخ والصديق والابن والوالد لجميع المسلمين وهو من شجع المسلمين قولاً وعملاً على إنكار حب الذات وتفضيلها على أقرب الناس نسباً . وقد جعل الله سبحانه وتعالى ذلك الإنكار أساساً للفلاح في الدنيا والآخرة ،كما قال: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} {التغابن:16} .

لقد كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هبة ألهية امتن الله بها على رسوله قائلاً : {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {الأنفال:63} .لأن حب الذات وتفضيلها على الآخرين من أصل الفطرة الإنسانية ومن الصعب على أي إنسان تغيير تلك الفطرة إلى نقيضها ،لأنها تحتاج إلى معجزة لا يقدر عليها إلا خالقها.

فالإنسان عندما يؤثر أخاه في الإنسانية وفي الدين ـ وليس في النسب كما يفهم البعض ـ على نفسه معتبراً حديث الرسول الكريم " لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه "(رواه البخاري ـ كتاب الإيمان) شعار يجب تطبيقه يصل إلى درجة المؤمن الحقيقي قولاً وعملاً ، فيا سبحان الله لقد جعل الرسول الأعظم الأخوة شرطاً من شروط الإيمان الصحيح ،الأخوة في الله ولله فقط وهذا يعني أن المؤمن قد وصل إلى درجة معينه من الإيمان انمحت معها ذاته واتحد بالآخرين اتحاداً جعل منهم جسداً واحداً متعاوناً ومتكاملاً يضحي كل عضو فيه من أجل بقية الأعضاء . لقد هدف الإسلام من خلال تعاليمه المختلفة إلى " توثيق العلاقات بين

أجيال البشر وإقامتها بين الأولين والآخرين والأقربين والأبعدين ـ على الأخوة العامة ـ الأخوة التي لا تتعصب لوطن ولا تتحّيز لجنس ولا تتنّكر للون ،الأخوة التي تجهل كل نسبة عدا النسبة لآدم " [39] .

ونحن نضيف كذلك إنها الأخوة التي تجعل نسب العقيدة الواحدة أهم من كل نسب آخر ، الأخوة التي تقتدي وتتأسى بسيد المرسلين محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وتجعل من أقواله وأفعاله نبراساً يضيء لها الطريق ، فليست " الأخوة هاهنا قائمة على الاشتراك في الأرض أو الاشتراك في الوطن أو الاشتراك في الجنس أو الدم أو العرق ولكنها الأخوة القائمة على المشاركة في المبدأ والعقيدة " [40] .

إذا الأخوة الإيمانية كانت هي المظهر النهائي لمبدأ المساواة في الإسلام ، هذا فيما يتعلق بالعلاقة بين المسلمين ، فكيف تعامل الإسلام مع غير المسلمين من المخالفين له في العقيدة ، من أتباع الرسالات الأخرى ؟ سؤال يتوجب علينا الإجابة عنه كي تكتمل الصورة وتتضح معالمها بشكل واضح .

<u>2- 3- الآخر المخالف في ظل الإسلام :</u>

من المعلوم لكل ذي عقل أن الكون الفسيح قائم على دعامتين بينهما ارتباط وثيق هما : قداسة الإله وكرامة الإنسان ، فمن يقدّس الله من الضروري أن يكّرم الإنسان ومن يكّرم الإنسان فهو بعمله هذا يقدّس الإله علم بذلك أم لم يعلم . وبناء على ذلك فإن المنهج الذي جاء به الإسلام منهج إنساني صرف يتعامل مع الإنسان على أساس إنسانيته (أصل الخلق المشترك) فالإنسانية هي اللغة العالمية الواحدة التي تكلم بها الإسلام إلى جميع الناس وتعامل بها مع اتباع بقية الديانات الوضعية والرسالات السماوية، وهو ينظر إلى أي إنسان بأنه مكرم بأصل الخلق لأنه يحمل في داخله من روح الله وهذا يكفي ويزيد كي نبّره ونكرّمه ونحترمه . وكما قال الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ في رسالته إلى واليه على مصر مالك بن الأشتر بأن أي إنسان : "إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق " .

وقد تعرفنا سابقاً كيف نظر الإسلام لعلاقة المسلم بأخيه المسلم في الدين ويهمنا الآن أن نعرف كيف عاش الإنسان غير المسلم في ظل الاسلام وبين المسلمين .

لقد بنى الإسلام العلاقة بغير المسلمين على أساس أن الاخوة التي تجمع بينهم والرابطة التي تربطهم بغيره من أصحاب الديانات الوضعية والرسالات السماوية الأخرى قائمة على أصل الخلق المشترك ، باعتبارهم لآدم عليه السلام ، فالإسلام لا يفرق بين الناس على أساس العقيدة، بل هو يأمر بالتعامل الانساني مع المخالفين له على أساس من العدل الذي ينبغي أن يقوم ويسود بين جميع أفراد الدولة الإسلامية ولا فرق بين المسلم وغير المسلم ، وكما قال تعالى : {إِنَّ اللهَ

يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {النحل:90} .

فالإسلام يأمر المسلمين أن يتعاملوا مع بعضهم ومع غيرهم بالأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة والعشرة الطيبة والمشاركة بالمشاعر الإنسانية النبيلة التي تأمر بالبر والإحسان والرحمة لجميع الناس دون استثناء ،وأمر الله المسلمين بالعدل والإنصاف من المسلم للآخر ـ ولو مع العدو ـ وليس هناك أي منهج بشري وضعي يأمر بذلك ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {المائدة:8} وفي أية أخرى يقول تعالى[وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ] {المائدة:2} [41] .

هذا البناء الأخلاقي المحكم للتعامل مع الآخر المخالف سنَّه الرسول الكريم ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ في بداية ظهور الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وجعله منطلقاً لإقامة تلك الدولة التي أرادها الرسول أن تكون مدّنية ـ باختياره لأسم المدينة وتفضيله على الاسم القديم يثرب ـ قائمة على أساس المواطنة ، ببعدها الوطني والإنساني . فقد تعامل مع أصحاب الملل والنحل الأخرى باعتبارهم مواطنين وليسوا رعايا ، لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات تجاه الدولة الوليدة من خلال الوثيقة التي عقدها الرسول الكريم مع القبائل العربية الاثني عشر وقبائل اليهود العشر ، وتعتبر تلك الوثيقة بحق هي " أول دستور مكتوب في العالم " [42] .

وقد نظمت تلك الوثيقة العلاقة بين مختلف مواطني الدولة الناشئة من المسلمين وأهل الكتاب وبقايا مشركي المدينة ، ويمكن القول بثقة تامة بأن رسول الإسلام كان " قد انفرد من بين جميع الأنبياء بأن عقد أكبر وأعظم وثيقة سياسية لم يسبقه إليها نبي ولم تتجاوزها في روحها ودلالتها أي وثيقة تاريخية معروفة الى اليوم "[43].

وأهم شيء ركزت عليه الوثيقة المذكورة في بنودها المختلفة هو الولاء للدولة الإسلامية على أساس المواطنة المشتركة ـ وليس العقيدة المشتركة ـ ولا وحدة العنصر المشترك ، فلليهود ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات ... ولهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم ... وهم ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين ، وبين اليهود والمسلمين النصر على من حارب أهل هذه الوثيقة ، و بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم [44] .

لقد عاش اليهود وباقي مشركي المدينة في ظل وثيقة المدينة التي قررت المواطنة المتساوية للجميع ـ حقوقاً وواجبات ـ معصومين دماً ومالاً وعرضاً ،

وفرضت عليهم واجبات ـ بحكم مواطنتهم الدائمة ـ تؤدي إلى إحقاق حقوقهم أولا وتؤدي ثانياً إلى تحقيق التكافل مع الدولة والولاء لها لحفظ كيانها الداخلي .

وقد تحقق للآخر المخالف من الحقوق في ظل الدولة الإسلامية ، ما لم يحصل عليه في أي نظام سابق أو لاحق ، من خلال التأكيد والحرص من قِبلها على إرساء مبدأ حرية العقيدة والتأكيد على مبدأ التسامح الذي شمل المسلمين وغيرهم بالحقوق والواجبات عينها ـ باعتبار المواطنة المتساوية ـ وليس أعدل ممن يساويك بنفسهِ في النصفة والعدل والحكم [45] .

لقد قِبل الرسول الكريم ـ عن طيب خاطر ـ وجود اليهود وبقايا مشركي المدينة وعاهدهم معاهدة الند للند لهم دينهم و له دينه ولم يتجه إلى رسم سياسة الإبعاد والمصادرة للمخالفين ،بل رسم سياسته مع الآخر بالعدل والمساواة والتعاون [44] وقد كان الرسول في تعامله مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى مثالاً يحتذى في تعامله معهم معاملة الند للند والشريك للشريك ـ شراكة في الإنسانية وشراكة في الوطن ـ وكان في تعامله وحواراته معهم يركز على نقاط الالتقاء بينهم ويتجنب الخوض في نقاط الاختلاف ،كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله : {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }العنكبوت46.

لقد تعامل المسلمون مع غيرهم من مواطني الدولة الإسلامية على أساس الرابطة الوطنية التي تقوم على البر والقسط كما قال تعالى : {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ} {الممتحنة:8} .

وتلك الرابطة الوطنية والانسانية هي أعلى شاناً وأقوى أثرا في رعاية حقوق غير المسلمين وهي أضمن لحقوقهم من المواطنة المجردة ، قال ابن حزم : "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة "[47].

لقد شدد الإسلام العقوبة على من يتعرض للذمي وللمعاهد بغير حق و أكد على ذلك قول الرسول الكريم : "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " (رواه البخاري ،كتاب الجزية والموادعة) .

وعلى ضوء ذلك فإن الغاية النهائية التي تستهدفها رسالة الإسلام هي دفع الظلم عن الناس دون استثناء وإقامة العدل بينهم، وعندما تحققت أهداف رسالة الإسلام كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس ومدحهم القرآن بذلك قائلاً :{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} {آل عمران:110} .

إن القيم الأخلاقية للمجتمع الإسلامي القائم على الأخوة بين المسلمين وعلى المعاملة الحسنة مع غير المسلمين قامت على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع المسلمين ومع غيرهم على حد سواء [48] .

ومما يدل على أن مبدأ المواطنة قد عّم الدولة الإسلامية وأصبح قاعدة يبنى عليها ، أن الخليفة عمر بن الخطاب أجرى مالاً من بيت مال المسلمين على رجلٍ من أهل الذمة ـ باعتباره مواطناً ـ تبيّن للخليفة أنه فقير ، وقاضى الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ نفسه مع يهودي عندما ادعى الأخير ملكيته لدرع الإمام وجلسا معاً أمام القاضي باعتبارهما مواطنين ،الأول خليفة المسلمين والآخر أحد مواطني الدولة الإسلامية . وعندما نتساءل : علامَ يدل هذا التسامح مع الآخر ؟

يكون الجواب : إنه يدل على عالمية الإسلام ، فالله سبحانه وتعالى هو رب العالمين جميعاً ـ وليس خاصاً بدين معين ـ من أجل ذلك يجب أن يحمد ويشكر من الجميع كما قال تعالى : {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2.

والرسول الكريم هو الرحمةً المهداة للعالمين{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً ْعَالَمِينَ}{الأنبياء:107} .

فرسالة الإسلام في جملتها لا تخاطب المسلمين وحدهم " بل تخاطب بني البشر حتى إن كلمة المسلم فيها تعبير عالمي فهي لا تدل على قومية أو عرق أو جنس أو لون أو منحدر اجتماعي أو طبقي أو اتجاه سياسي أو فكري " [49] .

إن حقيقة الإسلام المعبرة عنه وجوهره الأساسي الذي يفصله عن غيره من الرسالات السماوية هو التسامح مع الجميع والعدل بينهم على أساس المواطنة المتساوية وليس على أي أساس آخر، إن كلمتي " التسامح والعدل هما التعبير الدائم عن الجوهر الشامل الذي يستوعب أدق تفاصيل التشريع خاصة في مجال الدعوة إلى الإسلام " [50].

فلقد تعامل الإسلام مع الآخر في المدينة المنورة ـ اليهود وبقايا المشركين ـ على أساس التسامح المعبر عن روح الإسلام ،فالتسامح وفق المنظور الإسلامي "فضيلة أخلاقية وضرورة مجتمعية وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها ...وهو كسلوك وموقف ليس منّةً أو دليل ضعف أو ميوعة في الالتزام بالقيم بل هي من مقتضيات القيم ومتطلبات الالتزام بالمبادئ...وعليه فإن التسامح الذي يقود إلى التعايش والاستقرار الاجتماعي وتطوير أواصر وأسباب التعاون بين مختلف أبناء وشرائح المجتمع هو من صميم القيم الإسلامية النبيلة " [51] .

ولقد عبر المسلمون عن تسامحهم مع الآخر في العهد النبوي والخلافة الراشدة وممارستهم له في تعاملهم ـ قولاً وسلوكاً ـ وإرسائهم لقواعده الأساسية قبل أن تتحدث عنه القواميس الغربية وذلك من خلال وثيقة المدينة التي تضمنت نفس فكرة التسامح الحديثة القائمة باختصار على تقديم أفكار دون السعي لفرضها ،

كان سلوكهم مع الآخر المخالف لهم في العقيدة هو جوهر تعريف قاموس(لاروس) للمعنى الفلسفي للتسامح الذي يعني :"احترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وأراءه السياسية والدينية "[52].

ويتجلى انفتاح الإسلام وتسامحه مع المخالفين له في العقيدة في قبوله وحمايته أفراداً وجماعات ومجتمعات غير إسلامية " فقد تقلد يهود ونصارى وأعضاء طوائف أخرى وظائف هامة في حكومات إسلامية عديدة وحظيت أديان مختلفة بكامل الحقوق والرعاية ،وسمحت السلطات لغير المسلمين بممارسة شعائرهم دونما تضييق "[53] .

وما هو بديهي أن هذا السلوك كان مستمداً من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي كان تعامله مع المسلمين ومع غيرهم خير دليل على عظمة الإسلام وتسامي مبادئه وتسامحه مع الآخر قولاً وسلوكاً ، فقد قِدم على الرسول الكريم وفدُ من نجران ودخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فجاء وقت صلاة الوفد فقاموا يصلّون في مسجد الرسول ـ وهم على غير ملة الإسلام ـ فأراد المسلمون منعهم فقال لهم النبي : دعوهم يصلون ،فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم ، وروى البخاريُ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مَرت به جنازةُ فقام فقيل له : إنها جنازة يهودي، فقال : أليست نفساً (كتاب الجنائز) .

علامَ يدل ذلك ؟ إن في أقوال الرسول وأفعاله دلالات على تجذر الوعي بحقوق الآخر المخالف لآنه ليس بمستغرب من رسولِ آمن بما جاء به القرآن عن وحدة الأصل الإنساني وعمل على تجسيد ذلك الإيمان في سلوكه المعاش ليطابق بين ما يقول وبين ما يفعل ـ لا انفصام بينهما ـ الأمر الذي كان له الأثر الأكبر في دخول الناس في دين الله أفواجا .

وبعد أن تأكد لنا أن الإسلام أتى لإرساء قواعد المساواة بين جميع الناس على اعتبار أن خالقهم واحد وأبوهم واحد ، فمن الضروري أن يكونوا أحراراً وتظهر بينهم قيم الحرية كشرط للتعامل بين المتساوين وذلك هو الضلع الثالث من أضلاع المثلث الإسلامي الذي سوف نتعرف عليه في الصفحات التالية .

3- الحرية :

تعد حرية الإنسان قيمة من أهم القيم العليا ومقصداً هاماً من مقاصد الشريعة الإسلامية ،فمن أهم الأدوار التي يقوم بها الإيمان والتوحيد هي خاصة تحرير الإنسان من عبادة العباد ومن الخرافة والوثنية ووصله بالله في جميع شئون حياته ،فلا يخاف إلا الله ولا يستعين بسواه ولا يتوسل بغيره ويسلم وجهه بشكل كامل لله ،ولتأكيد هذا المعنى وتحرير الإنسان تحريراً تاماً نزلت آيات كثيرة تدعم تلك الحرية وتدافع عنها وتحميها وتعدها جوهراً لإنسانية الإنسان إذا فقدها فقد دوره في الكون والوجود [54] .

والحرية هي الضلع الثالث من أضلاع المثلث الإسلامي ـ كما أسلفنا ـ الذي يمثل ضلعيه الآخرين التوحيد والمساواة ،وتصلح الحرية أن تكون قاعدةً للمثلث المتساوي الأضلاع ، ذلك أن شرط التوحيد التحرر من العبودية لغير الله وشرط المساواة أن يكون الجميع أحراراً و متساوين في العبودية لله فقط دون غيره من المخلوقات أو من بعض مظاهر الطبيعة .

والحرية : كلمة تدل على الانفكاك والخلاص من العبودية والبراءة من العيب والنقص ، يقال : طين حر ،أي: لا رمل فيه ، والأحرار من الناس: أخيارهم وأفاضلهم ، وحُرية العرب : أشرافهم ، والحُرة والحُر: الطين الطيب، والحُر : الفعل الحسن ، يقال : ما هذا منك بحُر أي بحسن ولا جميل (55).

باختصار الحرية كمال إنسانية الإنسان وبدونها يصبح الإنسان إنسانا بالطول والعرض فقط، والإنسان والحرية وجهان لعملة واحدة ، فبدون الحرية لا وجود للإنسان بمعناه الحقيقي ـ لأنه يتحول إلى سلعةٍ أو شيء من ضمن الاشياء المادية التي يملكها اصحابها ـ وبدون الإنسان لا وجود للحرية في الطبيعة (56).

وقيمة الحرية وأهميتها من الأمور التي لا يشك فيها عاقل لأنها أغلى شيء يملكه الإنسان في الكون وأعز ما في الوجود ـ هذا إذا لم تكن الوجود ذاته ـ وهي هبة الله للخلق جميعاً ، وبما أنها هبة الله لخلقه ـ كالحياة تماماً ـ فلا يجوز لأحد أياً كان أن يسلب الناس ما أعطاه الله لهم، فهي غالية ثمينة، ولذلك نادت جميع الرسالات السماوية بتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد وحده ، وركزت الفلسفات الإنسانية على أهمية الحرية وربطت بينها وبين إنسانية الانسان .

وكما قال العلامة عبد الحميد بن باديس " أن حق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية ،والمعتدى عليه في شيء من حريته كالمعتدى عليه في شيء من حياته ، وما أرسل الله الرسل وما شرع لهم الشرع إلا ليحيوا أحرارا وليعرفوا كيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية"(57).

والحرية كما يراها المفكر الإسلامي حسن الترابي هي " قدر الإنسان الذي يميزه عن كل مخلوق سواه، فسجد لله طوعاً إذ لم يجعل الله في تركيبه ما يجبره على الإيمان ولا سمح له أن يُجبر غيره على الإيمان ، إن الحرية ليست غاية بل وسيلة لعبادة الله "(58) .

لقد كان عمر بن الخطاب محقاً عندما قال : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ذلك أن أصل الخلق الإنساني المشترك هي القاعدة التي بنا عليها الإسلام المساواة وهي كذلك أساس الحرية بين جميع الناس ،فالناس أحرار لأن الله خلقهم كذلك .

إن قضية الأصل الإنساني المشترك في خلق الإنسان هي عين وجوهر قضية الحرية الإنسانية ، فإذا قبلنا فكرة أن الإنسان غير حر وأن جميع أعماله مرسومة سلفاً ـ إما بفعل قوى خارجية أو داخلية ـ في تلك الحالة" لا تكون الألوهية ضرورية لتفسير الكون وفهمه ولكن إذا سلمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله ، فإننا نعترف بوجود الله إما ضمناً وإما صراحةً فالله وحده هو القادر على أن يخلق مخلوقاً حُراً فالحريةُ لا يمكن أن توجد إلا بفعل الخلق" [59] .

لقد جاء الإسلام لُيعيد للإنسان إنسانيته وحريته وكرامته عن طريق تحرير الناس من عبادة بعضهم لبعض ومساواتهم ببعضهم في عبوديتهم لله ، والحرية في العبودية لله تحدد قيمة الإنسان وترسخ كيانه وتفتّحه ، فالمسلم عندما يقول في كل وقت الله أكبر فذلك يعني أنه " قد أوصد الباب في وجه كل عبودية ومعناه أنه أعلن نفسه وحقق ذاته حُراً بشكل أساسي "[60] .

والحرية هي أساس الشخصية الإنسانية السوية المؤهلة لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض وإعمارها ،وذلك لأن من لا يملك نفسه فهو غير مؤهل لأن يحمل أمانة غيره لأنه فرط في حريته التي أعطاها له خالقه كأمانة لازمة ومؤهلة للاستخلاف ،من أجل ذلك حرص الإسلام على تحرير الإنسان من زاويتين :

ماديا من خلال تحريره من عبادة الطواغيت والظلمة في كل الأماكن وفي جميع العصور وتحرير إرادته من عبادة غير الله وبالتالي يتحرر الإنسان من سلطان الخوف على الحياة وعلى الرزق وعلى الجاه . ومعنوياً من خلال تحرير الإنسان من عبوديته للأهواء والشهوات ومن عبوديته لذاته وتعظيم شخصه ومكانته وغدى الإنسان الجدير بصفة الحرية في الإسلام هو المؤمن الذي خلُص من كل ظلِ للعبودية إلا لله وحده وكلما زاد المؤمن إخلاصا في العبودية لله زادت حريته من الخضوع لأي شيء في الكون [61].

فعبودية الإنسان المطلقة لله هي شرط لتحريره من أي قيود يمكن أن تحد من حريته وذلك لأن الإيمان مسألة قلبية لا سبيل لأحد غير الله أن يطلع عليها ويتأكد منها، و قد يستعبد الجسد ،أما استعباد القلب فهذا من المستحيلات .

و يمكن القول باطمئنان بأنه:" ليس من سبيل لتحرر الإنسان من أسر العبودية والذل إلا سبيل العبودية الصادقة لله تعالى " [62] .

لقد كان للتصوف الإسلامي دوراً بارزاً في إظهار حقيقة العبودية لله من خلال ربطها بالحرية ،نجد ذلك عند محيي الدين ابن عربي (560 - 638هـ) الذي يعد من أهم متصوفة الاسلام على الاطلاق ، فقد رأى ان الحرية هي : اقامة حقوق العبودية، وبحسب قوله :" فإن قلت : ما الحرية قلنا :إقامة حقوق العبودية لله تعالى فهو حر عما سوى الله " [63] .

تتضح لنا حقيقة هامة تتمثل في كون العبودية هي حقيقة الإنسان ولب معناه عند المتصوفة عامة وعند ابن عربي على وجه الخصوص .

لقد حاول الإسلام ـ ونجح في ذلك ـ أن يحرر الإنسان من الداخل كي يتسنى له أن يحرر جسده لاحقاً ، فلقد ركز الإسلام على التحرير المعنوي ـ الفوقي ـ باعتباره ضرورياً لتغيير الواقع ، فالتحرر يبدأ من العقل ـ لأن جوهر الإنسان عقل ـ وهو أمانة الله للبشر ووكيله عند الإنسان ـ كما قال الجاحظ ـ وهو أعدل الأشياء قسمة بين البشر وهو مناط التكليف وأساس معرفة الله بعد النص ،إن تحرير الإنسان يبدأ بعد تحرير عقله من أوهام العبودية لغير الله سبحانه ،وعندما يتشرب العقل تلك المفاهيم يكون من السهل على الإنسان بعد ذلك أن يكسر قيود العبودية التي كبلته وجعلته خاضعاً ذليلاً لإنسان آخر يساويه في كل شيء وهذا هو الأهم ،فالله تعالى يركز على دواخل البشر ،لأنها أساس تكوين حياتهم الخارجية ،مصداقاً لقوله تعالى : {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} {الرعد:11} ،

و حرص الإسلام على تحرير عقل الإنسان من الخرافات والأوهام لأنه المعنيُ بفهم الخطاب الإلهي وفقه الأوامر المنزلة سواء من القرآن أو السنة ، وهو المعني بالوصول إلى خالقه عن طريق آثاره المادية ـ الكتاب :الكون والطبيعة ـ وعن طريق آثاره المعنوية ـ الكتاب : القرآن ـ باعتبارها علامات دالة على خالقها ، وهي معقولة لأن عقل الإنسان مصمم لاكتشافها ، وحارب الإسلام بكل قواه ووسائله التقليد الأعمى والآبائية القائمة على احترام الشكليات وتقديس آراء السابقين و أعرافهم دون فهم وتمحيص وتعقل، وأنكر الإسلام على من أراحوا عقولهم من عناء البحث والتفكير واكتفوا بما وجدوه جاهزاً ومعداً سلفاً عن الآباء والأجداد ، يقول تعالى عن أولئك النفر من الناس : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} {البقرة:170} {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} {الزُّخرف:23} ،

وندد الإسلام بالحجر على العقل ومنعه من الوصول إلى الحقيقة ومحاولة فرض الآراء التي تقيده وتحد من نشاطه وتعطله [64] .

ويمكن القول أن العقل والحرية في الإسلام وجهان لعملة واحده تدعى الإنسان ، نجد ذلك التصور عند الجاحظ (255هـ) ـ باعتباره أحد رواد الفكر العربي الإسلامي ـ عندما قال: العقل إذا أكره عمي، فمن أسباب تمكن العقل من الاضطلاع بتأدية وظيفته أن يعمل في جو تسوده الحرية ، وهو يربط بين التفكير السليم ووجود الحرية ربطاً يجعل أحدهما ضرورياً لوجود الآخر فلا حرية دون تفكير ولا تفكير بدون حرية فالحرية للعقل كالنور بالنسبة للعين [65].

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الحرية في التصور الإسلامي يختلف عن المفاهيم الوضعية للحرية في الحضارة الغربية المعاصرة ـ وبخاصة النظم الرأسمالية ـ

التي ترى أن الحرية حق طبيعي للإنسان وله أن يتنازل عن حقه متى شاء، أما الحرية في التصور الإسلامي فهي منحة وهبةُ إلهية ترتبط ارتباطاً أساسيا بالعبودية لله والتحرر من كل العبوديات ، فلا يسمح للإنسان في الإسلام أن يستذل ويستكين ويتنازل عن حريته ، فهو مسئول عن حريته في الإسلام وليست الحرية حالة من حالات انعدام المسؤولية . الإسلام يقيم الحرية على أساس الإيمان بالله ويجعل من علاقة الإنسان بربه " الأساس المتين الثابت لتحرره في علاقاته مع سائر الناس ومع كل الأشياء في الكون والطبيعة ،والرأسمالية تقيم الحرية على أساس الإيمان بالإنسان وحده وسيطرته على نفسه بعد أن شكت في كل القيم والحقائق وراء الأبعاد المادية لوجود الإنسان " (66).

ويرى المفكر الإسلامي (علال الفاسي) أن الحرية :" جُعلٌ قانوني وليس حقاً طبيعياً ،فما كان للإنسان أن يصل إلى حريته لولا نزول الوحي وأن الإنسان لم يخلق حُراً وإنما ليكون حُراً " (67) .

ولقد تعجب (الفاسي) من عدم فطنة علماء المسلمين لقوله تعالى : {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ} {البيِّنة:1} ، فهذا المعنى اللطيف لديه يُفيد أنه لا سبيل للانفكاك والتحرر إلا بنهج العبودية لله ـ منهج التكاليف ـ الأمر الذي يجعل الحرية خُلقاً ذاتياً تتجلى آثاره في أعمال الإنسان الصادرة عن شعوره بالتكليف ، ويصبح الإنسان الجدير بصفة الحرية عنده هو المؤمن بالله ،والتكليف أساس الحرية وعلامتها في نفس الوقت (68).

ونلاحظ مدى الشعور المطلق بالحرية الذي يشعر به المسلم الحقيقي حال خضوعه واستسلامه لخالقه ، وحال تعبيره عن ذلك الخضوع بالالتزام بالأوامر والنواهي بهمة ونشاط ومحبة ، لأن ذلك يمثل حقيقة العبادة مضموناً وشكلاً ، فالمسلم وهو يمارس العبادات المختلفة ،تترسخ في قلبه وعقله ـ مع الممارسة والاستمرار ـ تصورات الإسلام القائمة على كرامة الإنسان وتفرده في الأرض وتفضيله على بقية المخلوقات من حوله ، كل ذلك يمنحه شعوراً بالحرية لا يوصف ويعطيه قوة ذاتية هائلة وقدرة لا تحدها حدود .

ولقد كان هذا هو حال الرعيل الأول من المسلمين الذي استطاع أن ينشر راية الإسلام ويطبق مبادئه ، ويحرر الشعوب ويخرجها من عباده العباد ، إلى عبادةِ أرقى وأعظم وأكثر تعبيراً عن إنسانية الإنسان وتفرده وهي عبادة رب العباد وخالقها ، وقد تحقق كل ذلك في معظم بقاع الأرض المجاورة للمسلمين وكذلك بعضاً من البلاد البعيدة عنهم وفي وقت قياسي .

ويغدو السؤال مشروعاً وهو : هل هناك حديث عن الحرية في حال فرض الآراء على الآخرين وإكراههم على اعتناقها؟

3- 1- الحرية والإكراه:

الحديث عن الحرية والإكراه حديث عن الحياة وعن الموت ،فالحرية حياة وبدونها يموت الإنسان اختناقاً ، والإسلام يرى في الحرية " الشيء الذي يحقق معنى الحياة الإنسانية فهي حياة الإنسان الحقيقية وبفقدها يموت حتى لو عاش يأكل ويشرب ويسعى في الأرض ، كما هو حال الدواب والأنعام " [69] .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى وهو الواحد الأحد خالق السموات والأرض ومن فيهن وهو الحق وقوله الحق لا يكره أحدا على الإيمان ، على اعتبار أن الإيمان مسئلة قلبيه ليس فيها مكان للإكراه ، كون الإكراه على اعتناق أي فكرة أو مبدأ أو عقيدة ،ضرره يفوق منفعته ،لأنه يورث النفاق ، فالإكراه على مبدأ ما هو" سوسة تنخر في ذلك المبدأ ما يتسلل إليه نفاقاً ويفعل كل الشرور لهذا المبدأ "

[70] . يقول الله سبحانه وتعالى نافياً مبدأ الإكراه : {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {البقرة:256} ، ويقول في موضع آخر: {وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ }{الكهف:29} ويقول أيضا: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} {يونس:99} ،{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} {الغاشية:22}.

الآيات السابقة ـ وغيرها الكثير ـ تدل على أن مهمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تنحصر في البلاغ المبين فقط ولا تتعداه إلى الإكراه على الإيمان، ولجميع الناس الحرية الكاملة في الاختيار بين الإيمان أو الكفر، كي تتم محاسبتهم على ما اختاروا بمحض إرادتهم وبكامل حريتهم ـ بدون ضغط أو إكراه ـ لاحقا ، والله تعالى عندما يقول : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ف(لا) " هنا نافيةٌ وليست ناهيةٌ كما فهم بعض المتسرعين ومعنى الآية : انه لا يتصور إمكان غرس العقيدة الإيمانية في الأذهان بالإكراه ولا يتأتى ذلك لأحد " [71] .

وكما لا تصلح الحياة من دون وجود الأكسجين ، فكذلك الإيمان لا يستقيم مع وجود الإكراه عليه وذلك " لأن منهج الحق واضح ومنهج الباطل واضح .فمن اهتدى إلى الإيمان وكفر بكل طغيان على العقل فقد استمسك بأقوى الاسباب التي تمنعه من الانزلاق إلى الضلال " [72] .

يذكر الشيخ محمد الغزالي(ت1996م) ـ رحمه الله ـ إنه أحصى في كتابه(جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج) أكثر من مائة آية تتضمن حرية التدّين وتقيم صروح الإيمان على الاقتناع الذاتي وتُقصي الإكراه عن طريق البلاغ المبين [73]. والقرآن الكريم يذكر قصة فرعون في أكثر من آية ليؤكد على حقيقةٍ واحدةٍ هي : أن من يحاول فرض آرائه على الآخرين وإكراههم عليها ، هو فرعون

بالتأكيد ،لأن فرعون حاول فرض كلامه و آرائه المغلوطة على قومه باعتباره إلها بزعمه، يُريهم ما يرى ويظن ـ وظنه كله إثم ـ أنه يهديهم سبيل الرشاد، قال تعالى : {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} {غافر:29} ، إن الإكراه على الإيمان أو اعتقاد الآراء أياً كانت يعتبر إجباراً قسرياً يتنافى مع الحرية المسئولة وهي الحرية التي ينتج عنها مسؤولية الإنسان عن أفعاله وتصرفاته باعتباره بالغاً عاقلاً مكلفاً مسئولا عن قراراته المصيرية التي تحدد مجرى حياته في أي زمان ومكان . فالإنسان لا يُسأل عما أكره على اعتناقه وأجبر على فِعله لأن الشرع الحنيف يُسقط التكاليف عن المجنون والصبي والمُكره، لأن الإكراه يُميت القناعة الذاتية باعتبارها أساس كل إيمان واعتقاد " فالإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن فالحرية النفسية والعقلية أساس المسؤولية "(74).

الإكراه يدفع الإنسان إلى احتراف النفاق والله يمقت النفاق ويتوعد المنافقين بالدرك الأسفل من النار " فإذا كانت الأعمال بالنيات وكان المعول في الصلاح والإيمان على القلب ولا يمكن أن يستكره أحد على ذلك فإن الأفعال التي يأتيها المُكره وهو في داخله رافضُ لها لا يُثاب عليها، لا بل لا فائدة فيها ولا حاجة لله بها فالدين هو الإخلاص كما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام " (75).

فالقول بالإكراه إلغاء لعقل الإنسان الذي به قوام حريته وكرامته كما إنه إلغاء للإرادة والاختيار وسبيل للتأله والتسلط والظلم ، وقد شُرع الجهاد في الإسلام لنشر عقيدة التوحيد ونسخ الألوهيات المصطنعة وإيقاف التسلط من لدن البشر على إخوانهم ورفع الفتنة والمعاناة عنهم ،والفتنة في أعظم معانيها تعني ـ فيما تعنيه ـ سلب حرية الإرادة والاختيار وإكراه الإنسان على اعتناق عقيدة لا يرتضيها ولا يؤمن بها . فالإسلام شرع الجهاد بالمال والنفس دفاعاً عن حق الإنسان في الحرية والاختيار ،قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} {البقرة:193} . وفي آية أخرى يقول تعالى : {وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ} {البقرة:191} ،فجريمة القتل على فظاعتها ومخاطرها دون جريمة الإكراه والإجبار وسلب حرية إرادة الإنسان وإخلاء مسئوليته عن أفعاله وتصرفاته (76).

إن الإسلام عمل ويعمل على تعزيز حرية الإنسان بشكل عملي وواقعي معاش وذلك بأن جعله حُراً ومسئولاً" فهو ليس ألعوبة في يد إله مستبد فحريته في اختيار أعماله والمسئولية التي تستتبعها تكسبانه شرفه الأرفع وتبنيان حياته المعنوية وهكذا تنشأ عظمة الإنسان في أنه اختار الطاعة بملء حريته " (77).

الإنسان لا يستطيع إلا أن يكون إنسانا فقط ـ وليس حيواناً أو ملاكاً ـ ذلك لأنه يعقل ويفكر ويقرر ويختار، وعليه أن يستخدم حريته ويختار : إما الخير لنفسه وللآخرين وإما عكس ذلك ، فعلى الإنسان أن يختار بأن " يكون خيِّراً أو شريراً

،باختصار أن يكون إنسانا ،هذه القدرة على الاختيار بصرف النظر عن النتيجة هي أعلى شكل من أشكال الوجود الممكن في هذا الكون "[78].

إن الإكراه يتنافى مع شروط الإنسانية النقية الخالصة الخلاقة ،وذلك أن الضغط ضمن قوانين الطبيعة غالباً ما يؤدي إلى الانفجار والإكراه ضمن القوانين الاجتماعية ـ البشرية ـ لا يخلق الإيمان بقدر ما يؤسسه على النفاق .

وبالتالي فإن "عمليات القسر والإكراه على عقيدة ما لا تصنع قناعة وإنما تصنع أقنعة يعيش معها الإنسان معذباً مزدوج الشخصية بين قناعاته وما يُفرض عليه وعندها إما أن يسقط الإنسان وإما أن يسقط النظام الذي يمارس الإكراه "[79] .

إن الإسلام ينبذ الإكراه ويدعو إلى التسامح والحرية ، وهو على خلاف ما دعا إليه أصحاب الديانات الأخرى ـ التي لا تعرف التسامح ولا تعترف به ـ وحاولت فرض معتقداتها على الآخرين بالقوة ،وتذكر لنا كُتب التاريخ الكثير من المآسي التي رافقت الاضطهاد الديني الذي مارسه المسيحيون واليهود ـ على كلمة سواء ـ أساسها الإكراه على اعتقاد الآراء وحرمان الآخر من ممارسة طقوسه الدينية ، فبعد أن تنصرت الدولة الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي وازدهرت الكنيسة وقويت شوكتها في عهد الإمبراطور الروماني (قسطنطين) ، كل ذلك شجعه على إصدار قانون يقضي بإحراق كل يهودي يُمارس عبادته على مرأى من المسيحيين أو يدعو نصرانياً إلى اعتناق اليهودية وبإحراق كل نصراني يتحول إلى اليهودية ، فأخذ المسيحيون باضطهاد اليهود انتقاماً منهم لاضطهادهم المسيح عليه السلام والحكم عليه بالقتل صلباً كما ادعوا بذلك [80] .

لقد شاع خلال القرن السادس الميلادي قتل اليهود صلباً أو إحراقهم بالنار ،كل ذلك جعل يهود فلسطين يشعرون بالنزعة إلى الأخذ بالثأر نتيجةً لشعورهم الدائم بالاضطهاد المسيحي ، ومما شجعهم على ذلك قيام (ذو نواس الحميري) في اليمن باعتناق اليهودية فحرضه اليهود على الانتقام من نصارى نجران فأحرق كنائسهم وجمع كل النصارى في أخدود وأحرقهم جملة واحدة [81].

أين كل هذا العنف والاضطهاد من مبادئ الإسلام السمحة ؟ ومن سلوك الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مع اليهود والنصارى وبقايا مشركي المدينة؟ إنه الإسلام دين المحبة والسلم والسلام والمسالمة الذي لا يؤمن بالإكراه ولا يحتاج إليه لأن مبادئه تدعو إلى سلام أبدي ودائم مع العالمين جميعاً . إن حرية العقيدة في القرآن قد " أحيطت بسائر الضمانات القرآنية التي جعلت منها حرية مطلقة لا تحدها حدود ما دامت في إطار حرية اختيار المعتقد وأن الحساب عليها خاص بالله جل شأنه لا يجاوزه إلى سواه " [82] .

وذلك تماماً ما طبقه الرسول الكريم من خلال وثيقة المدينة التي ضمنت لغير المسلم حرية الاعتقاد والتدين ، ونستطيع القول بأن الوثيقة قد أعلنت من " أول

وهلة للإنسانية مبدأ مهماً من مبادئ حقوق الإنسان مبدأ عدم الإكراه في الدين وأعطت في ظلها كل فرد الحرية في أن يختار من المعتقدات ما يشاء، لأن حق حرية الاعتقاد حقُ غالٍ وثمين ظل المسلمون في مكة ثلاثة عشر عاماً يكافحون من أجله " (83).

فهناك تنافر واضح يلاحظه كل ذي عقل بين طبيعة الإكراه القائمة على فرض الآراء والمعتقدات بالقوة وبين طبيعة الإيمان والاعتقاد المبني على الرضا القلبي والاقتناع العقلي ويستحيل فرض آراء خاصة على القلب بالإكراه ، من أجل ذلك فإن القرآن يوجب حرية التفكير والاعتقاد للناس جميعاً ويوصي باحترامهما ويستنكر الاعتداء على المعتقدات ـ فردية كانت أم جماعية ـ ليصل الإنسان إلى الهداية عن طريق الاقتناع الذاتي ، ويؤكد الثعالبي بأننا " نجد احترام الديانات الأخرى وحرية المعتقدات واحترام جميع الآراء في ست وثلاثين سورة وخمس وعشرين ومائة آية ، فالتسامح يُمثل حينئذ الفكرة الأساسية في القرآن " (84) .

فالإسلام والإكراه نقيضان لا يجتمعان بل يتنافران أشد التنافر ، فليس للإنسان أن يتحكم بغيره أو يسيطر عليه ،وليس للدولة في الإسلام أن تتحكم في مصائر الناس "ولكن لها أن تحكم عليهم إذا اشتطوا أو تجاوزوا حدودهم وحتى العقوبات في الإسلام كانت لا تتجه إلى تقييد الحرية لأن التقييد دائماً منع للحركة والحركة هي الحياة والإسلام دين الحياة " (85) .

ولذلك ليس هناك ما يدعو إلى التعجب عندما نعرف أن معظم مُفكري الإسلام قد جعلوا من حرية الاعتقاد أسبق الحريات العامة لأنها بمثابة القاعدة والأساس وهي أول حقٍ من حقوق الإنسان في كل مكان و زمان (86).

فالإسلام هو الحياة ـ بما يعنيه من السلم والسلام والمسالمة وعكس كل ذلك الموت ـ من أجل ذلك حارب الرق ودافع عن حق الرقيق في الحياة وهذا ما علينا تتبعه في المبحث الآتي .

3- 2- الرقُ في ميزان الإسلام :

وصف المستشرق(فان دنبرغ) معاملة الإسلام للرقيق قائلاً: لقد "وضِعت للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الإنساني النبيل ، ففيها تجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تسير في طليعة الحضارة "(87).

لقد ظهر الإسلام في عصر يعتبر الرق نظاماً طبيعياً يمارسه الأغنياء والسادة بيعاً وشراءً ويتقبله الفقراء والعبيد بالذل والخضوع ، وكما عرفنا من خلال المقدمة أن الرق قديم قِدم الإنسان وقد كان موجوداً ومنتشراً في جميع الحضارات القديمة وأسبابه معروفة ومنها : اشتعال الحروب والغنائم المصاحبة لها ، وكذلك بيع

الفقراء لأبنائهم مقابل لقمة العيش أو تسديد الديون المستحقة، وهكذا أضحى الرق شيئاً مألوفاً وأحيانا غدا شيئاً ضرورياً لاستمرار الحياة ، ألم يجعل أرسطو الرقَ من الأنظمة الملازمة لطبيعة الحياة ولطبيعة البشر أيضا كما مر معنا ؟

أما الإسلام فقد اعتبر أن حرية الإنسان هي الأصل ـ بحكم الأصل الإنساني المشترك القائم على أن الإنسان ولد حراً ـ والرقُ نظام عارض وطارئ عليه . فكلّف الإسلام من ادعى امتلاك الرقيق بالإتيان بالبينة الواضحة على صدق ما ادعاه واكتفى ممن أنكره باليمين ، والإسلام لا يُبيح الرق ولا يعمل على تكريسه "وليس هناك في كتاب الله ولا في سنّة رسوله نص يأمر بالاسترقاق ولكن هناك مئات النصوص تدعو الى العتق" (88) .

ومع أن بعض فقهاء الإسلام يُبيح استرقاق المعتدين المحاربين فقط ـ تأديباً لهم ـ " أما غير المحاربين ممن لا كتاب لهم كعبدةِ الأوثان فقد قال مالك والشافعي وأحمد ـ في إحدى رواياته ـ أن ذلك لا يجوز مطلقاً " (89) .

ومنع الاسترقاق من قِبل بعض الفقهاء يتسق ويتوافق مع جوهر الإسلام ، لقد شُرعت الحرب في الإسلام رداً للمعتدي بالمثل وإعلاءً لكلمة الله التي تأمر بالعدل والإحسان مع جميع الناس والدفاع عن النفس والعرض والمال وكما قال سبحانه وتعالى: { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }البقرة194

وكانت الحروب قبل الإسلام تشكل رافدا أساسيا ومُهماً من روافد الاسترقاق ، والتمايز الاجتماعي والطبقي ، وجاء الإسلام فواجه ذلك الواقع بالإجراء الثوري الممكن فأغلق كل المصادر وجميع الروافد " التي تمد نهر الرقيق بالمزيد والجديد من الأرقاء ولم يبقَ منها سوى الحرب المشروعة ،بل وحتى أرقاء هذه الحرب وأسراها شرع لهم الفداء سبيلاً لحريتهم ثم ذهب فوسع المصاب التي تؤدي إلى تجفيف نهر الرقيق بالعتق والتحرير " (90).

لقد حرص الإسلام على معاملة الأسرى معاملةً إنسانية تتفقُ مع المبادئ التي نادى بها ودعا إليها، وعُني بنفسية الأسير وتطييب خاطره وفتح باب الأمل له ، يقول الله تعالى في ذلك : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}{الأنفال:70} .

لقد جعل الإسلام من فداء الأسرى مطلباً دينياً واجتماعياً ، فحث على عتق الرقبة ورغب فيه في كل مناسبة وجعله من أعظم العبادات وأسرعها قبولاً عند الله والعتق كفارة لبعض الخطايا والذنوب منها: الحنث في بعض الأيمان وكذلك شرع الإسلام تحرير الرقيق كفارةً عن القتل الخطأ ، لقد تساوت الحرية، في هذا التشريع بالحياة يقول تعالى : {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}

{النساء:92} ففي مقابل إعدام حياة إنسان بالقتل ، يكون إحياء ذات رقيق بالحرية ،لأن رقه يساوي موته بينما تحريره هو الحياة بالنسبة له ، لأن الرقيق مُلحق بالأموات ، إذ الرقُ أثرُ من آثار الكفر، والكفر موت ، كما قال عزّ من قائل :{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} {الأنعام:122} فالإنسان عندما يُهدى إلى الحق فإنه يُحرر وعندما يُحرر فإنه يُحقق للإنسان الضرورة المحققة لمعنى الحياة كما أرادها خالق الحياة [91].

لقد تعامل الإسلام مع الرق تعاملاً مثالياً ، متدرجاً من النظر إلى التطبيق ، مراعياً واقعية الرق ـ في حينه ـ وتقبل بعض أفراد المجتمع له كضرورة ، فبدأ أولاً بتأكيد وترسيخ مبدأ المساواة بين العبد وسيدهِ ـ باعتبارها أصلاً وجوهراً والرق عرضاً زائلاً ـ في كل ضرورات الحياة ومظاهرها من الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهذيب وفي مُعظم الحقوق المدنية ، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ولُيلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبهُ فلُيعنه الله " رواه البخاري ،كتاب الأدب.

وكانت تلك المساواة بين العبيد والسادة محل اعتراض لبعض أكابر العرب من المشركين ، وسبباً لعدم دخولهم الاسلام ـ كما ادعى البعض منهم ـ وهاجت في دمائهم حميّة الجاهلية فسألوا الرسول مستنكرين : كيف يسوي بينهم وبين هؤلاء العبيد ؟ وذهب إليه أبو جهل يكلمه : أجئت ترفع ابن سُميّة الذليل إلى منازل السادة ؟ فقال له الرسول : نعم ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض. [92] . وكما أمر الإسلام بالعدل والمساواة بين العبدِ ومالكه، أمر كذلك بالإحسان إليه ومعاملته معاملةً حسنة ، تقتضي تلك المعاملةَ عدم إضرار السيد لعبده و إيذائه مادياً ومعنوياً ، فمجرد الاسم (عبد ، أو امة) ربما يجرح مشاعر العبد كإنسان ، من أجل ذلك كان رسول الإسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ لا يُطيق أن يسمع أحدا يقول عبدي أو أمتي وأمر أصحابه قائلاً : "لا يقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك اسقِ ربك وليقل : سيدي مولاي ولا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي " رواه البخاري عن أبي هريرة ،كتاب العتق .

وجعل الإسلام إيذاء العبد ذنباً يستحق العقاب في الآخرة وكفارته في الدنيا تحرير العبد ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من ضرب غلاماً له حداً لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يعتقه " (رواه مسلم ،كتاب الإيمان) . وبدأ الانتقال من النظر الى التطبيق بترغيب الرسول الكريم في عتق الرقاب وتحرير الرقيق من أغلال العبودية ، واعتبر ذلك العمل عملاً إنسانياً ودينياً وأخلاقياً عظيماً بكل المقاييس يُقرّب الإنسان من ربه وينقذه من النار ،وهي الغاية التي يسعى اليها كل مؤمن . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضوِ منه عضواً منه من النار" رواه البخاري ،كتاب العتق .

ورغّب الإسلام في إعتاق العبد دون مقابل سوى ابتغاء مرضات الله سبحانه وتعالى . ويرى الفقهاء أن اقل وعدٍ من السيد أو أقل احتمالٍ للوعد بالعتقِ والتحرير يجعل التحرير على السيد لعبده أمرا واجباً ضرورياً [93].

والأهم من ذلك أن الإسلام جعل الزواج من العبد المسلم أفضل من الزواج من الحر المشرك وكذلك جعل الزواج من الأَمة المسلمة خيراً من الزواج من الحرة المشركة ، وهذا يعني : ان الإسلام جعل معيار القيمة الإنسانية معياراً مخالفاً لما كان سائداً في الجاهلية .

ويُروى أن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين أحدهما أغلى من الآخر فلما أحضرهما أعطى الإمام غلامه أرقهما نسيجاً وأغلاهما قيمة وحفظ الأرخص لنفسه وقال لغلامه : أنت أحق مني بأجودهما لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل، أما أنا فقد كبرت .

نعم لقد تخلّق الإمام علي بالإسلام خلقاً وخُلقاً ،الأمر الذي جعل منه مساوياً لخادمه ومُفضلاً خادمه على نفسه ، هذا هو الإسلام الذي نعرف وهذا هو الإسلام الذي نحب ونتشرفُ بالانتماء إليه ، نعم بلغ الإمام في تخلقه بأخلاق الإسلام حداً لم يجعله يساوي بين نفسه وبين خادمه فحسب بل آثر خادمه على نفسه وفي ذلك دليل على أن المساواة هي الحد الأدنى الذي يدعو إليه الإسلام ويحث دائماً على المزيد .

هناك ملاحظ هامة فيما يتعلق بمعاملة الرقيق في الإسلام وهي أن الأحناف أفتوا بتقديم حق العبد على حق الشرع، كما ذكر ابن عابدين في حاشيته وضرب مثلاً على ذلك بقوله : إذا اختلف مسلم وذمي في طفل ، فأدعى المسلم أنه عبد له وأدعى الذمي أن الطفل ابنه ، حُكم ببنوته للذمي ، لأنه بذلك الحكم يكسب حريته وإن نشأ على غير الإسلام ، في حين أنه إذا حُكم به للمسلم فقد ينشأ على الإسلام ولكنه يظل عبداً فاقداً للحرية " وخطورة هذا الحكم أنه ينحاز للحرية أكثر من انحيازه للإسلام ويفضل للمرء أن يعيش حراً على غير الإسلام عن أن يكون عبداً مسلماً مرجحاً بذلك حق الإنسان في اكتساب حريته على حق الله في أن يعتنق المرء الإسلام " [94] .

ومراعاةً من الإسلام لظروف الرقيق ،جعلت الشريعة الإسلامية عقوبة العبد على النصفِ من عقوبة الحر في العقوبات التي تقبل التنصيف ، كما قال تعالى {فإذا احصّن فعليهّن نصف ما على المحصناتِ من العذاب }... فالعقوبة وفق الآية تسير مع أقدار الناس سيراً مطرداً ـ ولا تسير سيراً منعكساً ـ فمن اكتملت إنسانيته وعلا شأنه وكبُر مقامه ، كبُرت جريمته وكبُر عقابه ومن نقصت إنسانيته وخُرم منها شيء ـ بسبب طارئ كالأسر والعبودية ـ صغُرت جريمته وصغُر عقابه وذلك الحكم على عكس القانون الروماني الذي كان يصغّر العقوبة على الأشراف حتى إذا

عظمت الجريمة ويعظمّها على الضعفاء والعبيد إلى درجة الموت ولو كان الفعل المادي في الجريمة واحد [95].

وبعد كل ما ذُكر نقول لمن يتشدقون بأن الإسلام قد أباح الرق : ليس هناك نصاً واحداً في الشريعة الإسلامية ـ في القرآن أو السنة الموافقة له ـ يأمر بالرقِ ويحث عليه ، بل إن مُعظم النصوص تحث على العتقِ والتحرير وترّغب بهما باعتبارهما كفارات عن الذنوب ومقربات إلى الله تعالى وسلوك المسلمين وحياتهم المعاشة خير دليل على ما نقول ، فقد تبوأ الرقيق في ظل الإسلام أعلى المناصب والرتب ويكفي أن نعلم أن زيد بن حارثة مولى النبي الكريم وابنه أسامة توليا قيادة جيش المسلمين وبخاصة أسامة الذي تولى أمر القيادة وعمره لما يناهز الثامنة عشرة .

مراجع الفصل الثاني :

(1) ينظر: محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية، الكتاب الثاني ،مجمع البحوث الإسلامية ،القاهرة ،ط/1969م،ص19.

(2) ينظر : نايف العباسي : الجوهرة في التوحيد ،دار ابن كثير ،دمشق ،ط/1987م،ص7.

(3) نقلاً عن : إبراهيم عبد الله المرزوقي ،حقوق الإنسان في الإسلام ، المجمع الثقافي ابوظبي ،ط2/2000م،ص85.

(4) آمنه محمد نصير: انسانية الانسان في الاسلام ،دار الشروق ،القاهرة،ط1/1989م،ص12.

(5) ينظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج3 ،دار المعارف ،(د ،ت)ص33.

(6) ينظر: عرفات عبد الخبير الرميمة : الانسان في الفكر الفلسفي الاسلامي .اطروحة دكتوراه غير منشوره/كلية الآداب /جامعة عدن .2013م .ص134.

(7) ينظر : مقدمة عمر عبيد حسنه ،لكتاب الأمة العدد(25) شوال 1410ه/قطر،ص12-13، وينظر أيضا :مقدمة عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة العدد(114) أغسطس /2006م،ص16.

(8) محمد سعيد رمضان البوطي : حرية الانسان في ظل عبوديته لله. دار الفكر .دمشق.ط1/1992م.ص11.

(9) مراد هوفمان : الإسلام كبديل ،ص188،مرجع سابق .

(10) نقلاً عن :محمد عبد الفتاح الخطيب : حرية الرأي في الإسلام ،كتاب الأمة العدد (122) ديسمبر/2007م،قطر ،ص60.

(11) ينظر: محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي ،دار الطليعة ،بيروت ، ط2/1985م،ص136.

(12) آمنه محمد نصير : انسانية الانسان في الاسلام.ص38. سابق.

(13) محمد عبد الفتاح الخطيب : حرية الرأي في الإسلام ،ص61، مرجع سابق

(14) مقدمة عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة العدد(114)ص19، مرجع سابق .

(15) احمد خواجة : الله والإنسان في الفكر العربي والإسلامي ،منشورات عويدات ،بيروت ،ط1/1983م،ص23- 24.

(16) ينظر : حسين مروة ،وآخرون ،دراسات في الإسلام ،دار الفارابي ،بيروت ،ط1/1980م،ص16.

(17) ينظر : مقدمة عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة العدد (87) قطر/ ابريل 2002م ،ص15.

(18) ينظر: أنور الجندي : معلمة الاسلام المكتب الاسلامي ، ص72. سابق.

(19) ينظر : طه حسين ،الفتنة الكبرى ،الجزء الأول ،دار المعارف ،القاهرة ،ط7/ (د ،ت) ص10.

(20) ينظر : مقدمة عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة ،العدد(114) ،ص5، مرجع سابق .

(21) ينظر : سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ،دار الشروق، القاهرة

،ط1989/12م،ص51 .

(22) ينظر : مقدمة عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة ،العدد (128) ذو القعدة /1429ه ،قطر ،ص11.

(23) محمد الغزالي : الطريق من هُنا ، دار الشروق ،القاهرة ،ط1997/4م،ص12.

(24) مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ،تر: عفيف دمشقية ،دار الآداب ،بيروت ،ط1980/1م،ص94.

(25) المرجع السابق ،ص66.

(26) لورافيشا فاغليري : دفاعاً عن الإسلام ، تر :منير البعلبكي ، دار العلم ،بيروت ،ط1963/2م،ص47.

(27) ينظر : مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ،ص116، مرجع سابق .

(28) ينظر : سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ،ص44- 45،مرجع سابق .

(29) عماد الدين خليل : مع القرآن في عالمه الرحيب . دار العلم للملايين ،بيروت . ط1984/3م. ص130.

(30)علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب. تر: محمد عدس، الناشر مجلة النور الكويتية ،ط1994/1م ص295.

(31) ينظر : مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ،ص74، مرجع سابق.

(32) محمد سعيد رمضان البوطي : أبحاث في القمة ،مكتبة الفارابي ،دمشق، (د، ت)298.

(33) روجيه جارودي : الأصوليات المعاصرة ، تر :خليل احمد خليل ،دار عام ألفين ، باريس ، ط1994/1م،ص96.

(34) ينظر : عماد الدين خليل : مع القرآن في عالمه الرحيب . ص131 ت132 . سابق .

(35) ينظر :علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ص85- 86.سابق.

(36) ينظر : المرجع السابق ، ص87.

(37) فريتجوف شيئون : المعرفة شرط إنسانية الإنسان ،تر : نهاد خياطه ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،ط1/2000م،ص55.

(38) ينظر : طه حسين : الفتنة الكبرى ،جزء أول ،ص11،مرجع سابق .

(39) محمد الغزالي : ليس من الإسلام ،مكتبة وهبة ،القاهرة ،ط6/1991م،ص17.

(40) محمد أمين المصري ،سبيل الدعوة الإسلامية ، دار الأرقم ،الكويت ،ط3/1983م،ص150.

(41) ينظر : احمد الرسيوني وآخرون : حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة ،كتاب لأمة ، قطر . العدد(87) ابريل /2002م،ص92- 93.

(42) مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ،ص154، مرجع سابق.

(43) احمد قائد الشعبي : وثيقة المدينة ،المضمون والدلالة ،الأمة ،قطر ،العدد (110) ذو القعدة /1426ه،ص54.

(44) ينظر :المرجع السابق ، ص 43- 44- 45، ، وأيضا المباركفوري ،الرحيق المختوم ،ص180،مرجع سابق .

(45) ينظر : المرجع السابق،ص68- 69،وأيضا ،يسري محمد ارشد ،حقوق الإنسان في ضوء الحديث ،ص64،مرجع سابق .

(46) ينظر : محمد الغزالي : فقه السيرة النبوية ،ص196- 199، مرجع سابق .

(47) نقلاً عن : محمد مفتي ، وسامي الوكيل : النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان، كتاب ،الأمة ،قطر (25) شوال /1410ه،ص123.

(48) ينظر : محمد أسد : منهاج الحكم في الإسلام ،تر : منصور محمد ماضي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،ط1/1957م،ص72.

(49)عبد الحميد شعبان : الإسلام وحقوق الإنسان ،فصلية أبواب ، دار الساقي ،بيروت ، العدد (26) خريف /2000م،ص59.

(50) محمد البشاري : التسامح الإسلامي بين الحقيقة والافتراء ،فصلية الكلمة ،بيروت ،عدد(54) شتاء /2007م،ص94.

(51) محمد محفوظ : مفهوم التسامح وقضايا العيش المشترك ، المرجع السابق ،ص123- 124.

(52) ذاكر آل حبيل : التسامح كنظام معرفي ، مرجع السابق ،ص9.

(53) روجيه جارودي : لماذا اسلمت ؟ دراسة اعدها محمد عثمان الخشت .مكتبة القرآن ، القاهرة .(د - ت) .ص73.

(54) ينظر : طه جابر العلواني : لا اكراه في الدين .ص90.سابق .

(55) ينظر : ابن منظور : لسان العرب مادة (ح ر ر) وأيضا : ابن فارس ،معجم مقاييس اللغة (باب ح ، فصل ر).

(56) ينظر : عبد الله العروي : مفهوم الحرية ،المركز الثقافي العربي ،بيروت

،ط1993/5م،ص68- 69.

(57) نقلاً عن : محمد عبد الفتاح الخطيب : حرية الرأي في الإسلام ،ص49، مرجع سابق .

(58) نقلاً عن: راشد الغنوشي ،الحريات العامة في الدولة الإسلامية ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ،ط1993/1م،ص38.

(59)على عزت بيجوفيتش ، الإسلام بين الشرق والغرب ،ص82- 83، مرجع سابق .

(60) مارسيل بوازار ،إنسانية الإسلام ،ص100،مرجع سابق .

(61) ينظر :محمد عبد الفتاح الخطيب ،حرية الرأي في الإسلام ،من ص51،حتى ص59، مرجع سابق .

(62) محمد سعيد رمضان البوطي ،أبحاث في القمة ،ص10 ، مرجع سابق ،

(63) محيي الدين بن عربي : الفتوحات المكية ،ج2/ص131. سابق .

(64) ينظر :محمد عبد الفتاح الخطيب ،حرية الرأي في الإسلام ،من ص60حتى ص 67،مرجع سابق.

(65) ينظر : عرفات الرميمة ، الجاحظ بمعياري الفلسفة وعلم الكلام ، رسالة ماجستير غير منشوره، جامعة عدن ، يناير /2008م ،ص132.

(66) محمد باقر الصدر: المدرسة الإسلامية ،دار الكتاب الإيراني ،بيروت ، ط /1981م ،ص103،وص110،بتصرف .

(67) نقلاً عن : راشد الغنوشي ،الحريات العامة في الدولة الإسلامية ، ص38 ،مرجع سابق

(68) ينظر : راشد الغنوشي ،الحريات العامة في الدولة الإسلامية ،ص38،مرجع سابق .

(69) محمد عمارة : الإسلام وحقوق الإنسان ،دار الشروق ،القاهرة ،ط1989/1م،ص18.

(70) محمد متولي الشعراوي : في تربية الانسان المسلم . دار العودة، بيروت .ط/1986م.ص122.

(71) محمد سعيد رمضان البوطي : أبحاث في القمة ،ص413، مرجع سابق ،

(72) محمد متولي الشعراوي : في تربية الانسان المسلم . ص123.سابق.

(73) ينظر : محمد الغزالي ، السيرة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ط6/اكتوبر1989م،ص128.

(74) محمد الغزالي : خلق المسلم ،دار القلم ،دمشق ،ط1998/13م،ص28،
(75) مراد هوفمان : الإسلام كبديل ، ص119 ،مراجع سابق ،

(76) ينظر : مقدمات عمر عبيد حسنه لكتب الأمة ، الأعداد التالية : العدد(78)ص18،وص28،وأيضاالعدد(114)ص30،وص35،وص39،وأيضا العدد(122)ص26. كلها مرجع سابقة .

(77) مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ، ص93 ،مرجع سابق .

(78) على عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ، ص84،مرجع سابق .

(79) مقدمة عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة ،العدد (25) ،ص19،مرجع سابق .

(80) ينظر : هاني سليمان الطعيمات ،حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ،دار الشروق،القاهرة ،ط2001/1م،ص167.

(81) ينظر : احمد قائد الشعيبي ، وثيقة المدينة،ص167- 168 ، مرجع سابق .

(82) طه جابر العلواني .لا اكراه في الدين .ص94.سابق.

(83) احمد قائد الشعيبي : وثيقة المدينة ،ص197، مرجع سابق ،

(84) المرجع السابق ،ص174 .

(85) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ،الدار السعودية ،جدة ،ط1981/2م،ص257.

(86) ينظر : راشد الغنوشي ، الحريات العامة في الدولة الإسلامية ،ص45، مرجع سابق .

(87) نقلاً عن : حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ج1 ،ص156،مرجع سابق .
(88) محمد الغزالي . الاسلام والاستبداد السياسي. دار نهضة مصر، القاهرة .ط6/ 2005م. ص126.

(89) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج1 ،ص154،مرجع سابق .

(90) محمد عماره : الإسلام وحقوق الإنسان ،ص19، مرجع سابق .

(91) ينظر : ا لمرجع السابق ، ص22.

(92) ينظر : محمد الغزالي . الاسلام والاستبداد السياسي.ص127.سابق.

(93) ينظر : حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج1 ،ص155،مرجع سابق .

(94) فهمي هويدي : التدّين المنقوص . دار الشروق ، القاهرة . ط1/ 1994م . ص129.

(95) ينظر : محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية . دار الفكر العربي ،القاهرة . (د - ت) ص306.

الفصل الثالث

.الانسان الذي نبحث عنه

1.لماذا الانسان في القرآن

2.الانسان الذي نبحث عنه: بأي معنى

3.الانسان مكرما

4.الانسان مستخلفا

الإنسان الذي نبحث عنه

1- الانسان في القرآن لماذا ؟

إذا أردنا البحث عن الإنسان في الإسلام علينا التوجه إلى القرآن ،وذلك لأنه هو المصدر الرئيس للإسلام ، خاصة ، وللفكر الاسلامي عموماً . فمن خلال محاولة فهم وتأويل آياته المختلفة عن الله والإنسان والعالم ، استمد ذلك الفكر ماهيته و كون شخصيته المستقلة ، فجميع من أهتم بالتفكير الفلسفي في الإسلام قد حاول أن يستند إلى القرآن وبذلك شغلت حقائقه كل نواحي الفكر الإسلامي تجريبيا كان أم نظرياً ، وأخذ النص القرآني يمد كل فكرة إما بحقائق مؤيدة لمذهبه أو بحقائق تخالف مذهبه ولكنه كان دائماً مركز الدائرة [1] .

فالقرآن باعتباره نصاً لغوياً يمكن أن نصفه بأنه " يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصاً محورياً وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة النص ، بمعنى أنها حضارة انبنت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه " [2] .

ويمكن القول أن الحياة الإسلامية المتنوعة في جميع جوانبها المختلفة ليست سوى التفسير القرآني " فمن النظر في قوانين القرآن العملية نشأ الفقه ، ومن النظر فيه ككتاب يضع الميتافيزيقا نشأ الكلام . ومن النظر فيه ككتاب أُخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق . ومن النظر فيه ككتاب للحكم نشأ علم السياسة . ومن النظر فيه كلغةٍ إلهية نشأت علوم اللغة. وتطوّر العلوم الاسلامية جميعها إنما ينبغي أن يبحث في النطاق القرآني " [3] .

ومن أراد التنقيب والبحث عن الإنسان في الفكر العربي الاسلامي يجب أن يعود إلى المصدر ـ أو الرافد ـ الذي يستمد منه الفكر ماهيته " فالقرآن أولى المراجع بأن نبحث فيه عن رؤية متكاملة بل نقدية للإنسان حسبما نفعل ذلك في قراءتنا لبعض آياته" [4].

فهو يتوجه بخطابة إلى الإنسان العاقل باعتباره غاية يجب الوصول إليها بهدف إصلاحها ووسيلة أيضا من خلال اللغة الإنسانية التي يستخدمها القرآن ووظيفتها هي توضيح الخطاب وتفسيره، كي يستطيع أن يفهمه الإنسان .

والقرآن يكشف في أكثر من مناسبة أن خطابه موجه إلى الإنسان وأن اتجاهه هو مصلحة الإنسان ويتحدث أن الله قد اتخذ من الإنسان مقصدا ومن حياته طرفا ومن سعادته هدفا ، وأنه تحدث على لسان إنسان وأن علمه مصاغ بكلام وبلغة الإنسان وأنه قد تكيّف طبقا لظروف الإنسان وأتى على مراحل طبقا لتطور الإنسان وتشكل نظامه طبقا لقدراته [5] .

والخطاب القرآني يتوجه للإنسان من دون سائر المخلوقات لأنه المعني بفهمه وتعقله أصلا وهو" يستجوب باستمرار الإنسان أو الناس أو بني آدم أو البشر ـ كلها مفردات قرآنية ـ فعلى الإنسان تتركز مبادرات الله أكثر مما تتركز على الجن أو الشيطان " [6].

إنه كتاب الله للإنسانية جمعاء لا للعرب وحدهم وهو خطاب " للإنسان من حيث هو إنسان وللإنسانية في كل زمان ومكان يُعبر عن النزعة الانسية العامة في كتاب الله تعالى "[7] .

والإنسان لا يستطيع أن يتعرف إلى ذاته ويعرفها معرفة حقيقية إلا من خلال النص الإلهي ، لأن لفظ الذات لفظ إنساني استعاره المتكلمون للدلالة على الذات الإلهية ، فلفظة الذات ـ كما لاحظ ابن حزم ـ ليست وصفا لله في القرآن بل هي وصف للإنسان كما هو واضح من قوله تعالى {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} الملك:13. أو من حيث هو بعد باطني أو اجتماعي له {وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} الانفال:1 [8] .

وخلافاً لما يروجه البعض من أن مفهوم (الله) هو المفهوم المركزي المسيطر في القرآن ولا يمثل الإنسان فيه إلا هامشا ضئيلاً وكما يدعي بعض المستشرقين: أن روح القرآن ومنطوقه يظهر تعارضا بين الله وبين الإنسان ويظهر انحيازا للأول على حساب الثاني ، وإن كانت نتيجة ذلك التعارض تساوي جميع البشر أمام الله [9] . يمكننا الرد على هذا الاتهام بالقول إن الإنسان يمثل متناً مهما في القرآن ومفهوما يكاد أن يوازي أو يقترب من مفهوم الله ـ على اعتبار العلاقة بين المخاطب ومن يتوجه إليه الخطاب ـ فهناك اعتبار معين يجعلنا نشعر أننا نملك المبرر لوضع " مفهوم الإنسان في القطب المقابل لمفهوم الله ،ذلك أن الإنسان هو الوحيد من بين كل المخلوقات من عُلقت عليه أهمية عظيمة في القرآن وهي تلفت انتباهنا إليها بالقدر نفسه الذي يلفت مفهوم الله انتباهنا إليه ، وفي الحقيقة فإن الإنسان بطبيعته وسلوكه ونفسيته وواجباته ومصيره ينال اهتماما مركزيا في الفكر القرآني بالقدر نفسه الذي تناله مسألة الله ذاته " [10] .

ويرى علي شريعتي (1933- 1977م) إن كلمتي الإنسان والله في القرآن الكريم وفي الاسلام مترادفتان وإن إحداهما تقوم مقام الأخرى عندما يتعلق الامر بقضايا المجتمع [11] .

والقرآن باعتباره الناطق الرسمي المعبر عن رسالة الاسلام الموجهة للناس كافة " يحتوي بالضرورة مفهوما للإنسان يمكن اعتباره مدار الإنسيةhumanism الإسلامية " [12] .

لقد جاء القرآن يحمل للإنسان خطاب التكليف بالخضوع والامتثال لله وعبادته وحده ويكفي أن نعرف أن : لفظ الإنسان في القرآن يطلق على المخلوق المكلف

بالتوحيد والعبادة لا غير، بخلاف لفظ البشر الذي يشير الى مرحلة سابقة على التكليف وعلى طور الإنسانية [13] .

وإذا كانت الحضارة الإنسانية في جميع مراحل تطورها المختلفة تسعى دائماً للوصول إلى السعادة وتعمل على تجنب الألم ، مستخدمة ـ في الوصول إلى تلك الغاية ـ جميع الشرائع الوضعية والفلسفات الإنسانية ، فإن القرآن هو المنهج ـ أو الطريق ـ الموصل حال أتباعه إلى السعادة التي ينشدها الإنسان في الدنيا والآخرة، إن الفكر القرآني معني بمشكلة خلاص الإنسانية ولولا ذلك لما أُنزل القرآن كما يؤكد على ذلك ويوضحه في أكثر من آية [14].

وهو يتوجه بخطابه للإنسان المكلّف العاقل ويتناول مشاكله اليومية وعلاقته مع خالقه ومع أفراد أسرته ومع المجتمع ،و لا يتكلم عن " انسان مطلق أو وهمي لأنهما ليس لهما وجود بل عن هذا الإنسان الواقعي المشكل " [15] .

كل ما سبق كان مبرراً للبحث عن الإنسان بين سطور القرآن ، ولكن من هو الانسان الذي نبحث عنه ؟ وما هي مميزاته ؟ وهل هو موجود فعلا ؟

2- الانسان الذي نبحث عنه : بأي معنى ؟

يمكن القول إن الإنسان في الإسلام قد تبوأ المكانة العالية التي يستحقها وتليق بإنسانيته التي تميزه عن سائر المخلوقات التي تشترك معه في جنس الحياة .

فهو الوحيد الذي نفخ فيه الإله من روحه، من أجل ذلك كان خليفة الله في الأرض دون سائر المخلوقات ومقام الإنسان في القرآن يدل على أنه يشّكل محورا للكون ومركزاً لدائرته وقطباً لرحاه ، والدليل على ذلك ذكر القرآن المتكرر له بألفاظ وتعاريف متنوعة ،فقد ذكره مخصوصاً باسمه وذكره عاما يفيد الفرد مرة ويفيد مجموع بني الإنسان من ذكر وأنثى من أولاد آدم ، فقد وردت لفظة الإنسان خمساً وستين مرة وكلمة الإنس تسع عشرة مرة ووردت لفظة بشر في ثلاثة عشر موضعاً ، وتتوزع معاني تلك الالفاظ لتشمل الإنسان بوضعه المادي الحسي ووضعه النفسي المعنوي غير المجسد وغير الحسي [16] .
وهذا يعني أن من نبحث عنه ليس مخلوقا عاديا ، بل هو التجسيد العملي لعظمة الخالق سبحانه ، وهذا ما سنعرفه كلما تقدم بنا البحث .

2-1 - الإنسان مُكرماً :

من المعلوم لكل ذي عقل أن الكون الفسيح قائم على دعامتين بينهما ارتباط وثيق هما : قداسة الإله وكرامة الإنسان ، فمن يقدّس الله من الضروري أن يكّرم الإنسان ومن يكّرم الإنسان فهو بعمله هذا يقدّس الإله علم بذلك أم لم يعلم .
وبناء على ذلك فإن المنهج الذي جاء به الإسلام منهج إنساني صرف يتعامل مع الإنسان على أساس إنسانيته (أصل الخلق المشترك) فالإنسانية هي اللغة العالمية

الواحدة التي تكلم بها الإسلام إلى جميع الناس وتعامل بها مع اتباع بقية الديانات الوضعية والرسالات السماوية، وهو ينظر إلى أي إنسان بأنه مكرم بأصل الخلق لأنه يحمل في داخله من روح الله وهذا يكفي ويزيد كي نبّره ونكرّمه ونحترمه . وكما قال الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ في رسالته إلى واليه على مصر مالك بن الأشتر بأن أي إنسان : "إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق "

والتكريم الذي نعنيه هو جعل الشيء المكرم كريما في ذاته ـ وليس منعما عليه إنعاماً عاماً بصفة من الصفات أو بمجموعة منها فقط ـ ولكن التكريم جعله في حد ذاته كريماً أي نفيساً . فكل شيء شرُف في بابه فقد كُرّم ، والإنسان في القرآن هو المكرم على جميع المخلوقات ، مصداقاً لقوله تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ورزقناهم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وفضلناهم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} {الاسراء:70} .

فالله سبحانه قد خاطب الإنسانية ـ بالتعبير المعاصر ـ أو بني آدم بتعبير القرآن وذلك الخطاب يُفيد أمرين ، الأول: يعني تكريماً لهؤلاء الذين تناسلوا من لدن آدم وحتى قيام الساعة ذكوراً وإناثاً . الثاني : يُفيد أن من أسباب تكريمهم ايضاً أنهم قد تناسلوا من آدم المكرم سابقاً في انطلاق الانسانية منه ،كما ورد على لسان إبليس ـ عندما أمر بالسجود مع الملائكة لآدم ـ حين قال : {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً }الإسراء62

فآدم بنص هذه الآية قد كُرّم سابقاً ، وكُرمت ذريته بنص الآية الأولى ، ومن تكريم ذريته ايضاً تذكيرهم وإشعارهم انهم أبناء آدم ، لأن تلك الإشارة (بَنِي آَدَمَ) بحد ذاتها تعّد تكريماً للإنسان في العصر الحاضر ،الذي أعتبر فيه (دارون) أن أصل الإنسان يعود إلى القرد ، وهو من الكائنات التي سخرها الله مع غيرها لخدمة هذا الإنسان المكرم [17].

ويذهب المفسرون في تفسير آية التكريم إلى رأي يجعل من وجود العقل في الإنسان علةً لتكريمه ، فالزمخشري يقول في تفسير تلك الآية: " قيل في تكرمة بني آدم : كرمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم ،وقيل كل شيء يأكل بفمه إلا ابن آدم " [18] .

إن التكريم الذي خُص به الإنسان على جميع المخلوقات ـ من النبات والحيوان والجن والملائكة ـ تكريم نابع من داخله ، بمعنى أن ما يُميّزه هو العقل و هو سر إنسانيته وبه يكون هو دون سواه . وهذا ما عناه القرطبي ، يفهم ذلك من سياق قوله :" والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله...فمثال الشرع الشمس ومثال العقل العين فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت جميع الأشياء "[19] .

فالعقل ميزة تفرّق الإنسان عن غيره من المخلوقات وسبب به استطاع أن يجمع كل صفات التكريم لأن معظم تلك الصفات تأتي نتيجة لاستخدامه لعقله " وأعظم خصال التكريم العقل لأن به تسلطوا على سائر الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد " [20] .

ويرى أحد الباحثين أن مفهوم الإنسان المكرم ـ الذي يمكن التفكير فيه من خلال الآية السابقة ـ مفهوم ذو بعدين : بعد عقلي ويشمل العقل والتمييز والنطق ،وبعد حضاري ويشمل الخط وتدبير المعاش والأكل باليد وركوب البر والبحر والتمتع بالطيبات [21] .

والعقل هو الأمانة التي حملها الإنسان وتحمل بقبولها مسؤولية أعماله ،لأنه عاقل حر بعقله ومسئول عما يعقله ويعمل على ضوئه، وكما قال تعالى:[إِنَّا عَرَضْنَا الامانَةَ عَلَى السَّمَاواتِ وَالارْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] {الاحزاب:72} .

فسّر الراغب الأصفهاني الأمانة الواردة في الآية بأنها العقل ، قائلاً :" فإنه الذي تتحصل به معرفة التوحيد وتحّري العدالة وتعلم حروف التهجي وكل ما في طوق البشر تعلمه وفعل ما في طوقهم من الجميل . وبالعقل فُضل على كثير من خلقه "[22] . ومن أسباب التكريم التي خُص بها الإنسان، تميزه بالسر الإلهي العظيم ، سر النفخة الإلهية ،كما أخبر عن ذلك المولى بقوله :{ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} {ص:72} .

تلك النفخة هي التي جعلت الإنسان على ما هو عليه ، وجعلت مضمونه ومحتواه وباطنه أهم ما فيه وهي التي ميزته عن غيره من المخلوقات وحولته من " طين خامل إلى إنسان سوي عالي القدر رفيع الشأن ، فتقع الملائكة ساجدة له ، وما سجدت الملائكة له إلا بعدما رأت أثراً من الصفات المقدسة ينضح على روح آدم ويتحوّل به إلى إنسان عالم مفكر مقتدر مُريد " [23].

فالنفخ في الإنسان من روح الله كان سبباً لسموه وتفوقه ومنبعاً لمواهبه ومؤهلاته وهو المدد الدائم لتساميه وتفضيله على جميع المخلوقات في كل زمان ومكان . إن نفخة الله لروحه في الإنسان تعني " أن الله قد أعطى الإنسان معرفة وإرادة تشبه معرفة وإرادة الله وعند استعمال الإنسان لهما بحق فإنهما قادرتان أن تمنحا الإنسان التفوق والسمو على بقية الأجناس الحية الاخرى " [24] .

ومن أسباب التكريم الإلهي له ما ذكره القرآن من اهتمام بالحديث عن خلقه بالتفصيل ـ وبجميع مراحله المختلفة ـ وهو تفصيل لم يختص به سواه من سائر الكائنات والمخلوقات الأخرى حتى خلق السموات والأرض ، يقول سبحانه تعالى

واصفاً خلق الإنسان : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }المؤمنون12-14 .

ومن أبرز مظاهر التكريم أنه الوحيد ـ دون جميع المخلوقات ـ الذي اختصه الله بأن خلقة بيديه ـ بالكيفية التي يعلمها الله وحده من دون تشبيه ـ كما قال تعالى :{ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} {ص:75} .

فقد خُص دون سائر المخلوقات بشرفية الخلق أضفتها عليه العناية الإلهية المتجلية في خلقه بيد الله وكما قال الرازي:" إنه من المعلوم أن السلطان العظيم لا يُقدم على شيء بيده إلا إذا كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل "[25].

فالله سبحانه وتعالى قد خلق جميع الكائنات بكلمة (كن) كما أخبر عن ذلك بقوله :{بَدِيعُ السَّمَاواتِ وَالارْضِ وَإذا قَضَى أمراً فإنمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }البقرة117.

أما الإنسان فهو الوحيد الذي خُلق بيده تعالى ـ على الكيفية التي يعلمها وحده سبحانه وتعالى دون سواه من دون تشبيه أو تعطيل ـ دون سائر المخلوقات من جن وملائكة وغيرهما وهي علامة على تكريم الله للإنسان واحتفائه به دون سواه

من أجل ذلك خُلِق في أحسن تقويم وهذا دليل آخر على المقام الرفيع المتميز له دون سواه ، نفهم ذلك من خلال تفسير قوله تعالى :{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أحسن تَقْوِيمٍ} فلم يخلق الله تعالى خلقا أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً ، عالماً ،قادراً، مُريداً ،متكلماً، سميعاً، بصيراً ،مدبراً، حكيماً وتلك صفات مشتركة بين الإنسان وبين الله سبحانه وتعالى [26].

و التقويم الحسن المذكور في الآية السابقة مادي ومعنوي : فالأول يشتمل على انتصاب القامة والأكل باليد وغيرهما ، والثاني يشتمل على العقل ، فبدون العقل ـ المستدل على وجود الله من خلال آياته الدالة عليه ـ يُرّد الإنسان إلى أسفل سافلين وينحط إلى ما دون الحيوان ، وصدق الله العظيم القائل :{ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذان لا يَسْمَعُونَ بِهَا أولَئِكَ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }[الاعراف:179].

أي أن الإنسان الذي لا يستخدم عقله وحواسه في الوصول إلى حقيقة خالقه ، وفي معرفة العلم الذي يفصل بين الحقِ والباطل هو أدنى منزلة من الحيوان ،لأنه أضل منها بكثير .

واذا كان التكريم الإلهي للإنسان لا يمكن تفسيره والاتفاق على معناه ، فإن البعض قد أوله بعدة معانٍ تتفق جميعها على تمّيز الإنسان دون سواه من المخلوقات وتسخيرها له بناء على مقتضى التكريم الإلهي .

ويمكن تلخيص التكريم الإلهي للإنسان على هيئة نقاط من أهمها :

1 ـ الخلق والتسوية وتزويده بالمدرِكات الحسية .

2ـ العقل كشرط للتكليف .

3 ـ حرية الإرادة كشرط أساسي لتحمل المسئولية [27].

ومن المفيد التذكير أن التكريم الإلهي يشمل جميع بني آدم مؤمنهم وكافرهم ، تقيهم وفاجرهم وليس كما يفهم البعض من فقهاء الفهم القاصر ،بأن التكريم يخصهم دون سواهم باعتبارهم الفرقة الناجية ـ هم فعلاً الفرقة الناجية من الفهم والتسامح والعيش المشترك ـ لأن في تكوين كل إنسان نفخة من روح الله سبحانه وتعالى ، وهذا سبب يكفي ويزيد كي يكون الإنسان مكرماً .

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره للآية السابقة الخاصة بتكريم بني آدم : يظهر أن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر مع الغض عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية والقرب والفضيلة الروحية المحضة ، فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق، وقال الألوسي البغدادي : (ولقد كرمنا بني آدم) : أي : جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم ، أي : شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر [28] .

ولكل ما سبق ذكره ـ من أسباب تكريم الله للإنسان ـ اختاره الله كي يكون خليفته في أرضه وهذا يمثل تماما للتكريم واختباراً له في الوقت نفسه لمعرفة أهليته في الاستخلاف في الأرض .

<u>2- 2ـ الإنسانُ مستخلفاً :</u>

والإنسان في القرآن يحتل مقاما يؤهله إلى حمل أمانة الإنسانية ـ العقل ـ بحرية، من أجل ذلك كان هو الأجدر بأن يكون خليفة الله في الأرض بعد أن زوده بكل الأسباب اللازمة لقيامه بمهام الخلافة على أحسن حال، فقد أخبر المولى أنه قد حان الوقت للتطبيق العملي للتكريم الإلهي بقوله : {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الارْضِ خَلِيفَةً} {البقرة:30}. وتعني الخلافة أن الإنسان المُكرم هو في موقع النيابة عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الارض ، فالله قد وضعه في موقع أعطاه فيه الحرية والاختيار وزوده باللوازم الضرورية للقيام بالمهمة في الأرض وسخر له كل شيء ـ ما عداه ـ وهذا قد لا يظهر بوضوح في التكريم الأول لآدم ، ولكنه سيظهر جلياً في مظاهر تكريم ذريته من بعده [29] .

لقد جعل الله العقل مناطاً للتكليف وهذا " يعني ابتداء أن منهج الخلافة بأسرة متأسس على العقل الإنساني في تنزيله على الارض فهو وسيلة ذلك التنزيل ولولاه ما كان وجد منهج للخلافة اصلاً " [30] .

والاستخلاف يندرج أيضا ضمن الأمانة المذكورة في الآية السابقة ـ الأمانة المرتبطة بالعقل الحر المسئول عن أفعاله واختياراته بحرية تامة دون ضغط أو إكراه ـ ولذلك يمكن أن نعّرف الإنسان ونميزه عن سائر الموجودات في الكون ،بأنه :" المخلوق المكلف المسئول عن اختياراته وأي انتهاك لحرية الاختيار اعتداء على حرية الإنسان وإهدار لآدميته " [31] .

وإذا كان أرسطو قد حدّ الإنسان وعرَّفه بأنه : حيوان ناطق ، حيث جعل الحيوان جنساً والناطق فصلاً مع أن فيه تأملاً واضحاً لأنه" إن أُريد من الناطق ،الناطق باللسان فالنطق كيف جسماني وإن أُريد منه المفكر ،فالتفكير كيف نفساني " [32]. فلا يستقيم تعريف الإنسان الا بأنه: حيوان مُكلّف بالعبادات دون غيره من المخلوقات والتكليف مرتبط بالعقل لأنه مناطه وسببه وبدونه يسقط التكليف عن الإنسان ويعامل معاملة المجنون والصبي اللذين سقط عنهما التكليف.

فالقرآن قد حدّ الإنسان وعرَّفه بأنه : الكائن العاقل المكلّف وهو كائن أصوب في التعريف من قولهم" الكائن الناطق وأشرف في التقدير ....هو كائن أصوب في التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد وأشرف في التقدير من هذا وذاك " [33] . إن مناط إنسانية الإنسان في القرآن ليس لأنه ينتمي إلى فصيلة الانس ـ كلمة الانس تعني الظهور والجن تعني الاختفاء ـ وليس لأنه مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الارض ، وتحمّل تبعات التكليف وأمانة الإنسانية ،لأنه ـ دون سواه من المخلوقات ـ المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ،مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر وفتنة الغرور بما يحد من قوته وطاقته، وما يزيده من الشعور بقدره ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات [34] .

ومقام الإنسان في القرآن يقتضي منه أن يكون إنسانا حقيقياً يتحمل مسؤولية ما كُلف به فلا مسؤولية " من دون إنسان: تحققاً ووصفا ينعكس عن معرفةٍ ودرايةٍ . وخليفة : وظيفةً وسعياً وقياما لأنه الوحيد الذي تحمل المسئولية فاستحق بأن يكون خليفة " [35] .

ولقد حاز الإنسان المنزلة الرفيعة لأنه الوحيد من بين جميع المخلوقات الذي علمّه الله بعد أن خلقه، وتعليم الله له يعد اصطفاءً واختياراً وتكريماً من بين جميع مخلوقاته ،وكما قال تعالى {وَعَلَّمَ آَدَمَ الاسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {البقرة:31} ، وكما قال أيضاً : {خلق الإنسان عَلَّمَهُ البَيَانَ} {الرَّحمن:4} .

يقول الشيخ محمد عبده (1849- 1905م) في تفسيره للآية السابقة : " ينبغي علينا إذن أن نسعى لبلوغ الكمال عن طريق العلوم التي هيَّأنا لها عند بدء الخلق وقدمنا على الملائكة وسائر المخلوقات لكي تتجلى فينا حكمة الله "[36] .

وبسبب التعليم الإلهي الذي خُص به الإنسان دون سواه، أمر الله الملائكة بالسجود له، لأنه حاز منزلة عالية وفضَّله الله عليها ـ بتعليمه اللغة وبشرف الخلق بيد الله والنفخ فيه من روحه وتحمله الأمانة حرا عاقلاً مختاراً واستخلافه في الأرض ـ ولقد طُرد إبليس من رحمة الله بسبب عصيانه ورفضه الاعتراف بشرف الإنسان الأسمى وعُد خارجاً عن إرادة الله وعدواً للبشرية على الإطلاق في كل زمان ومكان عندما أمره الله بالسجود لآدم فأبى :{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا الا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} {البقرة:34} ، تلك الصورة الرمزية البليغة التي رسمها الله ، يُفهم منها ظاهراً أن عدم احترام إنسانية الإنسان هو الشر بعينه [37] .

ويفهم منها كذلك أن أي مخلوق يدعي أنه خير من الآخر ـ المخالف له جنساً ودیناً ومذهباً ولغة ووطناً وقومية ـ أياً كان الآخر فهو إبليس وهو مطرود من رحمة الله، نفهم ذلك من قول إبليس : { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}{ص:76} . لقد أراد القرآن من خلال إيراده لتلك القصة وتأكيده عليها في أكثر من موضع أن يقدم لنا عبرة بليغة ودرساً مهماً وهي أن أي : إنسان عاقل ـ سواء كان فرداً أو ضمن جماعةً ـ أو حزباً أو ديناً أو طائفةً أو مذهباً أو عرقاً أو جنساً معيناً ـ يرى أنه خير من الآخر المخالف له في كل الأشياء السابقة فهو إبليس وهو ملعون في كل زمان ومكان وذلك أن الله سبحانه وحده من يقرر ـ بناءَ على علمه الذي أحاط بكل شيء ـ من هو خير من الآخر.

والقرآن ـ باعتباره كتاب هداية للناس كافة ـ ينظر للإنسان في كل زمان ومكان نظرة متساوية لا تفرق بين إنسان وآخر على أي أساس (مثل الجنس والعرق واللون واللغة والدين) ، لأنهم جميعاً مخلوقون من نفس واحدة ، كما قال سبحانه وتعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }النساء1

وتلك ميزة تبين المقام الذي تبوأه الإنسان في القرآن ، وذلك لأنه كتاب " موجه للإنسانية كلها وهو ينطبق على حال جميع طوائف هذه الإنسانية ويعبر عن ذلك تماما " [38] .

وجعل القرآن التمايز والمفاضلة بين جميع الناس على أساس الكسب والعمل الذي بمقدور الجميع القيام به أذا أرادوا وأخلصوا ، وليس شيئاً خارجاً عن أرادتهم كالعرق والجنس ، يقول تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }الحجرات13.

وبذلك يكون القرآن قد جعل المفاضلة بين الناس ـ في كل زمان ومكان ـ منوطة بكسبهم وفعلهم واختيارهم وأرادتهم وليس في لونهم وجنسهم وجميع الفوارق

القسرية الأخرى التي تفرق بينهم ، التي لا يد لهم في وجودها ، وذلك إقرارا لمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص ، وليكون ذلك تحقيقاً للعدل وميداناً للتسابق الحضاري وحافزاً لفعل الخيرات ، فالأكرم هو الأتقى ، والكريم في أبسط صفاته هو المعطاء للأخرين ، المتكافل معهم [39] .

الإنسان لدى البعض :

تلك النظرة القرآنية للإنسان هي بخلاف نظرة بعض الفلسفات الإنسانية التي اهتمت بالإنسان في نطاق جغرافي وتاريخي ضيق، لقد استمرت الدراسات الإنسانية في الغرب تتحدث عن الإنسان والإنسانية " لكن بالمفهوم الرومنتيكي الذي يحصر مضمون هذه المصطلحات في الإنسان الغربي والإنسانية الغربية . وإذا كانت لم تستبعد تماما من دائرة الإنسانية ملايين السود والحمر والصفر في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .فإنها تعدهم مخلوقات قريبة من الإنسانية يمكن أن تستعمر وأن تستغل لصالح الإنسانية الغربية " [40] .

غير أن القرآن يقدم صورة مشرقة لإنسانية الإنسان في كل زمان ومكان بدون خلفيات سوى أن كل إنسان يحمل تكريما يلازمه بأصل الخلق لأنه يحمل في داخله من روح الله وليس لشيء آخر لا دخل له باختياره وهنا تكمن إنسانية الإنسان الحقة ـ التي تحدث عنها القرآن ـ و التي تحترم الإنسان لأنه كذلك وهذا يكفي ويزيد كي تحفظ كرامته وتحترم في كل زمان ومكان .

وبهذا يدلل القرآن على نزعته الإنسانية ،من خلال اعترافه بالآخر المخالف واعتباره شرطاً للحياة وأساساً للوجود ، وكما قال ليفي شتراوس: " إن النزعة الإنسانية الحقة لا تبدأ من نفسها بل تضع العالم قبل الحياة والحياة قبل الإنسان واحترام الاخرين قبل احترام الذات " [41] .

وبعد أن ذكر القرآن تلك المميزات التي جعلت من الإنسان خليفة الله في أرضه كان من الطبيعي أن تستكمل جميع الإجراءات اللازمة لتمكينه لأداء مهمته التي خلق من أجلها على خير ما يكون، فكان أن سخر الله لمنفعته بعض المخلوقات ـ من نبات وحيوان وجماد ـ وجعل له السيادة عليها ،فالإنسان بكل أفراده له سيادة معترف بها في الواقع ـ عن طريق تسخير بعض الحيوانات والنباتات ـ من خالقه فكل الأشياء والموجودات من حوله مسخرة له ،مصداقاً لقوله تعالى : {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الارْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }الجاثية13 . والأجناس التي دونه في الخلق والتكريم مسخرة لخدمته لا بإرادته هو ولا باختيارها ، الحيوانات تصب منافعها في خدمة الإنسان والنبات والجمادات في خدمته ومسخرة له [42] .

إن الإنسان الذي نبحث عنه هو الإنسان كما صوره القرآن وهو الذي يحتل الصدارة بين جميع المخلوقات ، يدلنا على ذلك ما ذكرناه سابقا من كونه مخلوقاً

(مكرماً ،حاملاً للأمانة، مخلوقاً في أحسن تقويم مستخلفاً في الأرض) وكذلك العدد الكبير من الالفاظ الدالة على مخاطبة الله له في القرآن دون غيره من المخلوقات وجعله مركزا دارت حوله جميع الأوامر والنواهي الواردة في النص القرآني.

وليس الإنسان الذي تحدثت عنه العلوم التجريبية والانسانية أو الفلسفات المختلفة وليس هو الانسان الذي تحدثت عنه كتب الفقه ، إنه الانسان القرآني الذي وجدناه كما صوره خالقه وكما أراد لنا أن نفهمه ونكرمه نتعامل معه .

مراجع الفصل الثالث

(1) ينظر :علي سأمي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج1.دار المعارف .القاهرة .ط9.ص34.
(2) نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص .المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء .المغرب .ط6/2005م.ص9.
(3) علي سأمي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج1 . ص227.
(4) علي حرب : الحقيقة والتأويل .دار التنوير .بيروت. ط/2007م.ص71.
(5) ينظر : حسن حنفي : دراسات اسلامية دار التنوير .بيروت.ط1/1982م .ص305.
(6) محمد أركون : الفكر الاسلامي نقد واجتهاد .تر: هاشم صالح .دار الساقي .بيروت.ط1/2010م.ص113.
(7) حسن صعب : الاسلام والإنسان . دار العلم للملايين ،بيروت .ط1/1981م.ص71.
(8) ينظر: حسن حنفي : دراسات اسلامية . ص303.سابق.
(9) ينظر: حسن صعب : الاسلام والإنسان . .ص75.سابق .
(10) توشيهيكو ايزوتسو : الله والإنسان في القرآن. تر: هلال الجهاد .مركز دراسات الوحدة العربية .بيروت .ط1/2007م، ص128.
(11) ينظر: فريتس شيتاب : الاسلام شريكاً. تر :عبد الغفار مكاوي .عالم المعرفة .الكويت .ابريل 2004م.ص113.
(12) حسن صعب: الاسلام والإنسان.ص74.سابق
(13) ينظر: عبد الصبور شاهين : أبي آدم .مكتبة الشباب .القاهرة .(د ـ ت) ص98.
(14) توشيهيكو ايزوتسو : الله الإنسان في القرآن..ص128.مرجع سابق .
(15) دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام. تر: محمد عبد الهادي ابو ريده .دار النهضة المصرية .القاهرة .ط5(د ـ ت) ص92.
(16) ينظر: حسن الباش : الإنسان في ميزان القرآن ،. كلية الدعوة الاسلامية ،طرابلس ،ليبيا .ط3/1428هـ.ص13.
(17) ينظر : الشاهد البوشيخي : مظاهر التكريم الألهي لبني آدم .فصلية حِراء .العدد15،يونيو2009م، تركيا . ص8.
(18) الزمخشري : الكشاف .الجزء الثاني .دار المعرفة .بيروت .(د. ت) ص368- 369.
(19) نقلاً عن : أبو اليزيد العجمي : حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم ..شهرية دعوة الحق .مكة المكرمة .عدد 22.اكتوبر 1983م.ص69.
(20) الشوكاني : فتح القدير ج3. .تح :عبد الرزاق المهدي .دار الكتاب العربي .بيروت .ط1/1999م.ص295.

(21) ينظر : محمد عابد الجابري: الديمقراطية وحقوق الإنسان .مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت .طبعة أولى 1994م.ص202.
(22) نقلاً عن: عائشة عبد الرحمن. القرآن وقضايا الإنسان . دار المعارف .القاهرة .(د ـ ت)ص65.
(23) محمد الغزالي :كيف نفهم الإسلام . دار نهضة مصر .القاهرة .ط2005/3م.ص83.
(24) محمود الذوادي : الرموز الثقافية وطول أمد حياة الجنس البشري : رؤية من المنظور الثقافي الإسلامي . فصلّية الكلمة .بيروت .العدد (32) صيف 2001م .ص45.
(25) محمد بن عمر بن الحسين الرازي: تفسير الفخر الرازى ج1/ ـ دار إحياء التراث العربي. بيروت.(د ـ ت) ص3824.
(26) ينظر: أحمد الرسيوني : حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة ..كتاب الامة .قطر .العدد (87)ابريل 2002م. ص44.
(27) ينظر : أبو اليزيد العجمي : حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم .ص71 .سابق.
(28) ينظر : حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان .المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء .المغرب .ط2005/1م. ص 42 ـ 43.
(29) ينظر : الشاهد البوشيخي : مظاهر التكريم الألهي لبني آدم .10 .سابق .
(30) عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل .المعهد العالمي للفكر الاسلامي .هيرندن.فرجينيا. أمريكا .(د ـ ت) ص.73.
(31) أحمد الرسيوني : حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة .ص6 .سابق.
(32) حسن محمد العاملي : نظرية المعرفة. الدار الاسلامية .بيروت .ط1990/1م.ص249.
(33) عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن ..الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،(د ـ ت) ص20.
(34) ينظر: عائشة عبد الرحمن : القرآن وقضايا الإنسان. .ص19 -20 .سابق.
(35) محمود عكأم : الإنسان في الاسلام ،.دار فصلت للنشر .حلب .ط1999/2م.ص50.
(36) فريتس شيتاب : الاسلام شريكاً .. ص108.مرجع سابق .
(37) ينظر : مارسيل بوازار: إنسانية الاسلام. تر: عفيف دمشقية .دار الآداب ،بيروت .ط1980/1م.ص97 .
(38) دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ..ص84.سابق .
(39) ينظر : مقدمة عمرو عبيد حسنه . تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانيات . كتاب الأمة . قطر . عدد161. جمادي الأولى 1435هـ . ص6.
(40) إسماعيل الفاروقي :اسلامية المعرفة. تر : عبدا لوارث سعيد ،دار البحوث العلمية ،الكويت ط1984/1م.ص87- 88.
(41) عبد الرزاق الداوي : موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر. دار الطليعة .بيروت .ط1992/1م.
ص188.
(42) ينظر : محمد متولي الشعراوي : الاسلام وحركة الحياة .دار المختار الاسلامي ، القاهرة .(د ـ ت)ص8.

الفـــــصل الـــــرابـــــع

. ماهية الحقوق في الاسلام .

1 . حقوق ام واجبات ؟

2 . الأصيل اللغوي .

3. القاعدة الذهبية .

4 . الاسرة أو المجتمع الكبير .

5 . المجتمع أو الاسرة الصغيرة .

ماهية الحقوق في الإسلام

الإسلام لا ينظر للإنسان باعتباره موجوداً في عالم المثل، لكنه ينظر إلى الإنسان الفرد الواقعي المشخص في واقعه المعاش وفي علاقاته المتعددة، سواء علاقته بنفسه أو بخالقه أو علاقته مع الآخرين المتفقين معه في أصل الخلق والمختلفين معه في الجنس واللون والعرق واللغة والدين .

فعلاقة الإنسان بخالقه هي علاقة عبودية وخضوع وذلة وتلك هي العلاقة المثالية التي ينبغي أن تكون بين العبد وخالقه، فالإنسان حر في عبوديته لله وهو قوي في خضوعه لخالقه وعزيز في ذله لله ،لأن العبودية لله هي أساس جميع الحقوق الموجودة للإنسان على الأرض، ومنها المساواة التامة الحقيقية بين جميع الناس دون استثناء باعتبارهم عبيداً متساوين في العبودية لإله واحد ولخالق واحد ولسيد واحد ،تلك العبودية لله هي أساس حريتهم لأن الله لم يجبرهم على الإيمان به ، وإنما فطرة الإنسان السوية السليمة الخالية من أي مؤثرات خارجية هي ما يجعله معترفاً بالجميل لخالقه، فنحن نعبد الله لأنه سبب لوجودنا ولأنه يستحق العبادة ـ وهذا هو الأهم ـ فالإيمان بالله بما يستتبعه ذلك الإيمان من الخضوع والتسليم لأوامره ونواهيه ، هو أساس حقوق الإنسان وواجباته معاً و"ذلك أن حقوق الإنسان وحرياته وواجباته هي فرع لتصوره الكوني ولمنزلته في الكون والغاية من وجوده" [1] .

1- واجبات أم حقوق ؟

هذا التصور الإسلامي لواجبات الإنسان وحقوقه ،الصادرة عن عبوديته لله الذي خلقه ـ ويعلم ما يضره وما ينفعه ـ ذلك التصور هو بخلاف التصور الغربي لحقوق الإنسان الذي يرجع تلك الحقوق للطبيعة الخارجية فقط ،واعتبار تلك الحقوق حقوقاً طبيعية للإنسان يعني في ما يعنيه أنه يمكن التنازل عنها أو عن جزء منها إذا دعت الضرورة لذلك . أما حقوق الإنسان في التصور الإسلامي فهي هبة من الله سبحانه للإنسان ولا يجوز له التنازل عنها ـ لأنها ليست ملكه أصلا ـ إلا لمن وهبها وأعطاها له .فالأساس في " قيام حقوق الإنسان أو سقوطها إنما يتعلق أولا وأخيرا بالإيمان بالله، فإذا أنكر امرؤ وجود الله فإنه بهذا يضع كافة الحقوق تلقائياً تحت تصرف الإنسان أو رحمته ، حتى لو استطاع بذلك خداع نفسه حيناً من الدهر بإشارته إلى الحقوق الطبيعية المزعومة " [2] .

ويمكن القول أن علاقة الإنسان بالله تقوم في الأساس على المعرفة ، فيجب على الإنسان معرفة الله بعقله من خلال آياته المختلفة المنبثة في أرجاء الكون الفسيح ومن خلال ما جاءت به الأنبياء والرسل، ويجب عليه بعد أن يتعرف على خالقه الطاعة والخضوع والعبودية والامتثال له في جميع ما أمر به أو نهى عنه ،تلك الواجبات المفروضة على الإنسان تجاه خالقه تعطي له حقوقاً أهمها المساواة

التامة في العبودية لله والتحرر من الخضوع لسواه وهما من أهم مبادئ حقوق الإنسان .

ولأن الإسلام تشريع إلهي منزه عن الخطأ والنسيان ، ويحيط علماً بكل شيء وجامع لكل ما ينفع الناس ومانع لما يضرهم في الدنيا والآخرة، فإنه قد تعامل مع حقوق الإنسان من منظور الواجب ،بمعنى : أن من أراد أن يحصل على حقوقه كاملة غير منقوصة ـ سواء من الله أو من الناس ـ عليه أن يؤدي ما عليه من واجبات كاملة غير منقوصة ، لأنه بذلك يشرّع للأخرين للحصول على حقوقهم من خلال استيفاء ما عليهم من واجبات .

فالحقوق في الإسلام هي انعكاس للواجبات وصدىً لها في عين الوقت ، بمعنى أن الحق لا يُرى إلا في ضوء انعكاسه إلى تأدية الواجب، بل إن الحقوق تقترن بالواجبات فيغدو الحق واجباً والواجب حقاً ، فكل ما هو حق لك تطلبه من الآخر هو واجب عليك تؤديه للآخر سواء طلبه منك أم لم يطلبه والعكس بالعكس . ذلك الفهم للحقوق هو الذي يساهم في بناء الأمة الإسلامية ويجعلها امة متميزة لاحقا وهو السبب الذي جعلها خير أمة سابقا وميزتها الحالية بين الامم الآن إن كل " لحظة يبذل فيها الفرد المسلم واجبه فأنه يسهم في بناء الحياة الإسلامية...سواء كان في القيام بالواجب ازاء نفسه او مساعدته للآخرين في أن يرتفعوا بأنفسهم " (3) .

لكن السؤال المهم : لماذا يتجاهل أكثر الناس القيام بواجباتهم ؟ أو ربما ـ أذا أحسنا الظن ـ يتساهلون في القيام بها ؟

هناك عوامل كثيرة ترتبط بذلك التجاهل ـ أو بالأصح التكاسل عن القيام بالواجب ـ معظمها يرتبط بالتربية والثقافة منها : الجهل وضعف الوعي الحقوقي ، حيث لا يعرف الكثير من الناس ماهي الواجبات التي عليهم تجاه الآخرين ، فالعلاقات والارتباطات تسير بشكل عفوي وضمن أعراف وتقاليد تركز على قوة الطرف وموقعيته في المجتمع ، وعلى سبيل المثال : في الحياة الزوجية يركز الذكور على واجبات الزوجات تجاه الأزواج ويتجاهلون حقوقهن على أزواجهن ، وقس على ذلك علاقة الآباء بالأبناء داخل الأسرة ، التي تركز على واجبات الأبناء تجاه الآباء ولا تعير واجبات الآباء تجاه الأبناء أي اهتمام ، ونفس القياس ينطبق على علاقة الحاكم بالمحكوم في المجتمعات العربية .

وهناك عامل آخر يرتبط بالتربية النفسية والبناء الأخلاقي لشخصية الإنسان ، فكل فرد يحتاج دائما إلى التذكير بالقيم والمبادئ ، بحيث تحكم جميع تصرفاته وسلوكه ، بدلاً عن مصالحه الذاتية الضيقة ، وكذلك فأن اعتراف كل إنسان بواجباته تجاه الآخرين يعني ـ من ضمن ما يعنيه ـ تحمله لمسؤولية أدائها لهم ، بخلاف الحقوق التي له ، بما تعنيه من تحميل المسئولية للآخرين ، والإنسان

عموما ينفر من تحمل المسئوليات التي يترتب عليها واجبات والتزامات تجاه الآخرين الا من رحم ربي [4] .

في هذا السياق يمكن أن نفهم موقف الزعيم الهندي غاندي عندما دُعي لاجتماع يتعلق بحقوق الإنسان فاعتذر قائلاً : كل إنسان يعرف حقوقه ويطالب بها ،لكنه لا يعرف واجباته تجاه الآخرين والأولى أن نعرّفه ذلك .

والملاحظ أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ـ والذي تضمن ثلاثين مادة ـ لم يذكر الواجب الاّ في المادة التاسعة والعشرون ـ وبشكل مقتضب ـ قائلاً :على كل فرد واجبات تجاه الجماعة التي فيها وحدها تنمو شخصيته النمو الحر الكامل . وبقية المواد يتحدث فيها عن الحقوق ، وهذا هو الفرق بين القوانين الوضعية وبين الشرائع السماوية التي لا يأتيها الباطل من بين يدها ولا من خلفها لأنها صادرة عن العليم الخبير ، وهذا ما سنعرفه لاحقاً .

2- التأصيل اللغوي :

و نلاحظ أن هناك تقارباً ـ يكاد يصل إلى حد التطابق ـ في اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ بين الدلالة اللغوية لجذر الكلمة (حق) والدلالة اللغوية لجذر الكلمة (واجب) فالحق بمعنى المبدأ هو الثبوت ، وهو بالمعنى الوصفي : الثابت ، وبهذا المعنى نقول عن الله سبحانه وتعالى كما وصف نفسه: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ }الحج6 ، أي الثابت .

والحق هو : نقيض الباطل و يقال حق الشيء يحق حقاً أي : وجب وجوباً ،وتقول : يحق عليك أن تفعل كذا وأنت حقيق على أن تفعله وحقيق : فَعيل في موضع مفعول ،وقوله تعالى : {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ }الأعراف105 ، معناه محقوق كما تقول واجب علي[5] .

والواجب : يقال وجب الشيء يجب وجوباً أي: لزم وحقّ ، و يقال : أوجبه الله واستوجبه، أي: استحقه ، ومنه وجب الشيء وجوباَ ووجب البيع وجوباَ ،والواجب والغرض عند الشافعي سواء وهو كل ما يعاقب على تركه [6].

والإنسان باعتباره عضوا في جماعة وجزءَ من الكل في محيطه الاجتماعي فعلاقته مع الآخر ضمن الجماعة علاقة تبادل وتفاعل بين طرفين وتترتب على وجود تلك العلاقة التزامات متبادلة على كليهما، ومن المتداول أن يطلق على التزامات الإنسان : الواجبات التي يجب عليه الإتيان بها للآخرين ، ويطلق على التزاماتهم تجاهه الحقوق ، أي: ما يستحقه منهم ،وكما أسلفنا سابقا فإن الحق والواجب يرجعان إلى معنى واحد هو الثبوت ، يقال : حق الأمر يحق حقاَ وحقوقاَ أي: صار حقاَ وثبت ،قال الأزهري : معناه وجب ويجب وجوباَ، قال تعالى : {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا

كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }القصص63 ، أي: ثبت ، وقال تعالى : { وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ }الزمر71 ، أي : وجبت وثبتت [7].

وهكذا نلاحظ أن المفهوم اللغوي للحقوق يتطابق تماماً مع المفهوم اللغوي للواجبات ويصح لنا أن نستخرج من ذلك التطابق المقولة التالية : " كل حق واجب وكل واجب حق كدلالة على وحدة مُصطلحي الحقوق والواجبات من منظور لغوي إسلامي" [8].

نستنتج مما سبق : أن مفهوم الحق ومفهوم الواجب متداخلان في اللغة العربية والحقل الثقافي العربي الإسلامي، فما يحق للإنسان هو عين ما يجب عليه ، وعندما يتعلق الأمر بطرفين يدخلان مع بعضهما في علاقة (حق ـ واجب) فإن الواجب على أحدهما هو حق للآخر والعكس صحيح أيضا [9] .

وفي الأصل فأن الحق والواجب يرجعان إلى معنى واحد هو الثبوت .

3 ـ القاعدة الذهبية :

إن الإسلام يطلب من الإنسان أن يرى الآخر في كل تعاملاته وكأنه يتعامل مع نفسه ،هذا هو جوهر حقوق الإنسان في الإسلام ، بمعنى : أن تتعامل مع الغير باعتباره أنت ، تلك هي القاعدة الذهبية التي جاء بها الإسلام، وصاغها علماء أصول الفقه بقولهم : لا ضرر ولا ضرار . فما لا ترضاه لنفسك من الأذى ومن الشر لا ترضاه لغيرك ، وما تحبه لنفسك من الخير والمنفعة يجب أن تحبه لغيرك. ولقد قرن الإسلامُ الإيمانَ بالله بمحبة الخير للآخر ، يقول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " رواه البخاري ،كتاب الإيمان .

وبالتالي فإن المسلم يكره لأخيه في الإنسانية ما يكره لنفسه ، وقد نادت بهذه القاعدة الفلسفات و الأديان المختلفة ، قال كونفشيوس حكيم الصين :" ما لا أريد أن أفعله لنفسي لا أفعله مع الآخرين " وقال المسيح عليه السلام : "افعل مع الآخرين ما تحب أن يفعله بك الآخرون "ولقد فسر المفكر اليهودي(هيليل) جوهر الدين بقوله" : ما لا تريد أن يفعل بك لا تفعله بجارك " ،وعندما سؤل الفيلسوف اليوناني طاليس كيف نحقق حياة أكثر استقامة أجاب : "عندما لا نفعل ما نستهجن فعله من جانب الآخرين " [10] .

ما لا ترضاه لنفسك لا ترضاه للآخرين ،هذه هي القاعدة الذهبية التي تبنى عليها حقوق الإنسان في الإسلام ، وهي عبارة عن مقدمة ونتيجة منطقية لازمة عنها : إذا قمت بواجبك تجاه الآخرين ،تكون قد أديت لهم حقوقهم ، وتحصل على حقك من خلال تأديتهم لوجباتهم تجاهك . فإذا استشعر كل إنسان هذه القاعدة وطبقها ـ التي تحق الحق وتفصّله على مقدار الواجب ـ فسوف تتحقق إنسانية الإنسان وكرامته وحريته في كل زمان ومكان .

ونقطة البداية لبناء علاقة سليمة متوازنة وناجحة ـ بكل المقاييس ـ بين جميع أفراد المجتمع ، يجب أن تبدأ بأن يبادر كل إنسان لإداء الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين ، وذلك لأن " أداء الإنسان للحق الذي عليه هو بمقدوره وحسب إرادته ، بينما أداء الآخرين لحقوقه عليهم هو بيدهم ، وإذا كان لا يمتلك قرار الآخرين وإرادتهم ، فإنه يمتلك قراره وإرادته فليكن البدء منه " [11] .

وتلكم القاعدة هي أساس كل الحقوق الإنسانية ومن ثم لا نحتاج إلى من يطالب بالمناداة بحقوق الإنسان ،لأن الإنسان يطلب ما ينقصه لاما يمتلكه ، فعندما يطبق الإنسان العدل على نفسه ـ وهو ما يُعرف بالعدالة النفسية ـ وذلك بأن يُقرر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار ما يقّدره لغيره على ألا يزيد على الناس " في حق وقد يفرض على نفسه الزيادة في الواجب وهذه العدالة النفسية هي التي توجد الاتصال المستمر وهي التي تقوّي بناء الجماعة وهي التي تنقذ ديناً من قهر ولا حكم مسيطر، بل يكون الحكم من ذات الضمير، حب لأخيك ما تحب لنفسك عامل الناس بما تحب أن يعاملوك "[12] .

على ضوء ما سبق نستطيع أن نعرف حقوق الإنسان تجاه نفسه من زاوية الواجب ـ ما يجب على الإنسان تجاه نفسه ـ وأول ما يجب عليه أن يعرف أن الحياة هبة من الله تعالى ،كما أخبرنا في قرآنه الكريم قائلاً :{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} {الحج:66} وقال ايضا : {الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ} {الملك:2} ،

وبالتالي يجب على الإنسان المحافظة على حياته وصيانتها والمحافظة على مقوماتها الجسدية والنفسية ، فالله قد حرم قتل الإنسان لنفسه عن طرق (الانتحار) تحت أي ظرف لأن حياته ليست ملكه ،وإنما هي ملك من خلقها فقط وهو المخول بالتصرف بما خلق ،وهذا ما أمرنا الله به قائلاً :[{ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {النساء:29} .

فالحياة بالنسبة لأي إنسان تمثل قراراً إلهياً خارجاً عن إرادته ، وبعيداً عن مجال سيطرته ودائرة تحكّمه، وبالتالي فإن أي محاولة منه لمصادرة تلك الحياة ـ بأي وسيلة كانت ـ هي اعتراض ـ ظاهر أو باطن ـ على الإرادة الإلهية ، ويتشكل وفقاً لذلك معيار لفرز النظم القانونية والثقافية ، فكل نظام لا يسعى للحفاظ على حياة الإنسان ـ إي كان ذلك الإنسان وبغض النظر عن اعتبارات أخرى ،غير الإنسانية والتكريم بأصل الخلق ـ هو نظام مرفوض وفقاً للسنن الإلهية ، وبعكسها تكون النظم التي تشكّل سياجاً للمحافظة على حياة الإنسان ـ في أي زمان ومكان ـ هي نظمُ تنسجم مع التوجهات الإلهية والتشريعات الإسلامية ، وتنسجم كذلك مع طبيعة الإنسان الذي كتبت له الحياة [13] .

وعليه فمحافظة الإنسان على حياته وتوفير مقومات بقائها واستمرارها وتطورها وتوفير سبل السعادة المتاحة لها " ليست حقاً للإنسان يستطيع أن يفرط فيه

بالانتحار مثلاَ أو الإهمال و التجويع أو الانتقام أو التجهيل بل ذلك واجب شرعي "[14] . بل إن الإسلام أوجب على الإنسان أن يحافظ على جسده ولا ينهكه بالعمل حتى إذا كان ذلك العمل عبادة وتقرباً إلى الخالق ،وذلك ما أشار إليه رسول الإنسانية ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ بقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص : يا عبد الله ألم أخبر انك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عبد الله : بلى يا رسول الله ،قال الرسول : فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاَ وإن لعينيك عليك حقاَ وإن لزوجك عليك حقاَ (رواه البخاري ،كتاب الصوم) .

وإذا كان الإسلام قد أوجب على الإنسان المحافظة على جسده من العمل الشاق ـ ومن قتله بالانتحار ـ فإنه أوجب عليه أن يحافظ على روحه ـ سر النفخة الإلهية ـ من الارتهان والخضوع لغير الله وأمر الإسلام الإنسان برفض الاستعباد ـ لغير الله سبحانه وتعالى ـ وأمره كذلك برفض الظلم سواء كان واقعاً عليه أو على غيره وبمقاومة " الطواغيت والكفاح من أجل الحرية والعدل والتقدم وسعادة البشرية هذه ليست حقوقاَ بل واجبات يثاب على فعلها ويعاقب على تركها" [15].

وعلى أساس أن الإنسان حيوان اجتماعي ـ كما قال أرسطو ـ فهو لا يستطيع أن يعيش إلا في وسط اجتماعي تسوده علاقات متبادلة أساسها المصالح المشتركة التي تضمن للفرد حقوقه ومصالحه من خلال واجباته تجاه المجتمع ومصالحه ،فالفرد يحصل على حقوقه من خلال تأديته لواجباته تجاه الآخرين وهذا هو أساس الحقوق في الإسلام ،أدِّ ما عليك من واجبات لتحصل على ما يوازيها من حقوق، والإسلام مثله مثل أي نظام اجتماعي أو سياسي عمل على تأكيد حقوق الإنسان في المجتمع ،وهو يضع مصلحة الجماعة ـ الأمة ـ قبل مصلحة الفرد بشرط أن لا تنزع عنه إنسانيته وألا تقوده إلى فقدان حريته وكرامته [16].

وبناءً على تلك القاعدة ، التي تحمل مفهوم حقوق الإنسان في الإسلام ،يمكن القول أنها شاملة لكل فرد في المجتمع، باختلاف الادوار التي يؤديها ، سواء داخل الأسرة ، أو خارجها ، سواءً أكان رب أسرة أو فرداً من أفرادها ، وسواء كان حاكماَ أو محكوماً ،رب عمل أو موظفاً عادياً .

وقد كفل الإسلام للفرد في المجتمع جميع الحقوق الناتجة عن واجباته للمجتمع ،أياً كان وضعه في المجتمع ،داخل الأسرة ـ المجتمع الصغير ـ وداخل المجتمع ـ الأسرة الكبيرة ـ ومصداق ما قلناه الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته " (رواه البخاري، كتاب الجمعة) .

ولنضرب أمثلة مطبقة على قاعدة كل واجب يعود عليك بحق ، مبتدئين من داخل الأسرة ،لنرى كيف يتم التبادل بين أفرادها في الحصول على حقوقهم من الآخرين من خلال أداء الواجبات التي عليهم للآخرين .

4 ـ الأسرة (المجتمع الصغير) :

الأسرة هي قلب المجتمع ، ومضغته التي بصلاحها يصلح المجتمع ، والعكس صحيح، وهي نواته التي تحمل كل الصفات التي تظهر فيه مستقبلاً ، ولدورها المركزي المحوري في الحياة عموماً ، فقد أولت الشرائع السماوية و الأديان الوضعية والفلسفات الإنسانية الاهتمام الكبير والرعاية الشاملة للأسرة . والملاحظة الجديرة بالذكر أن القرآن في سائر أحكامه وتشريعاته يكتفي بذكر الأحكام الكلية ،أما التفاصيل الجزئية فهو يتركها للسنة، الأمثلة على ذلك كثيرة ومنها : أحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج ، لكنه عندما يتناول قضايا الأسرة ،لا يكتفي بتقرير الأحكام الكلية ،بل يخوض في التفاصيل الجزئية ،عند حديثه عن الزواج والطلاق والنفقة والعدة والإرضاع والظهار، وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالأسرة. وفي إعطاء القرآن هذه الأولوية في التشريع للأسرة دليل على مدى عنايته بها، وعلى مكانتها عنده ، وعلى أهمية دورها في بناء المجتمع من منظور قرآني [17] .

علاقة الآباء بالأبناء:

وتطبيقاً لذلك المبدأ نستطيع القول :أن رب الأسرة عليه واجبات تجاه أبنائه تبدأ من اختيار الأم المناسبة لهم قبل الزواج ،ودوره يشبه دور المزارع الذي يختار الارض ويهيئها لزراعة الصنف المطلوب . وقد وردت عن النبي الكريم عدة أحاديث ترغب بنكاح المرأة ذات الدين والخلق النبيل والمنشأ الكريم التي تحفظ الرجل في دينه وماله وعرضه وتربي اولاده التربية الحسنة ـ باعتبار الأم هي المدرسة الحقيقية كما قال عنها أمير الشعراء شوقي ـ ففي الحديث المروي عن أبي هريره عنه عن النبي صلى الله عليه وآلة و سلم قال: : " تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " (الحديث متفق عليه في البخاري ومسلم

وبعد اختيار الأم المناسبة ، تبدأ العلاقة المثالية بين الآباء والأبناء القائمة على قاعدة تأدية الواجب ـ والطفل لا يزال جنيناً في بطن أمه ـ و منها : ما يكون أثناء الحمل بالمحافظة على صحة الأم والعمل على تغذيتها التغذية السليمة التي تضمن الحفاظ على نمو الجنين خالياَ من العيوب والأمراض ، وبعد الولادة يجب على الآباء اختيار الاسم المناسب للمولود ، وتوفير كل الأشياء والمستلزمات ـ المادية منها والمعنوية ـ التي تساعد على ضمان التربية السليمة لهم ، التي تراعي الجوانب البدنية والنفسية والأخلاقية ،لأن حياة الطفل كلّ لا يتجزأ، فحياته الفسيولوجية والسيكولوجية مؤشر عن حالته عندما يكبر، فالخمس السنوات الأولى من حياته تشكل أساساً لحياته المستقبلية كما يقول علماء النفس. وعندما يشب الأولاد تتوثق تلك العلاقة ،فالآباء يجب أن يغيروا طريقة التعاملِ مع الأبناء، ويتعاملون معهم باعتبارهم أفراداً ناضجين ،ويتفهمون نفسياتهم، وأن يعقدوا مع أبنائهم علاقة صداقة أساسها الاحترام المتبادل، الذي ينمي عند الأبناء الثقة

بالنفس ،وهذا ما بينّه القرآن عندما حثّ الآباء على استشارة الأبناء في الأمور التي تمّس حياتهم وتتعلق بمستقبلهم ، من خلال ذكره لقصة خليل الله ابراهيم عليه السلام، مع ولده إسماعيل كما قال تعالى: { قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى}الصافات102.

ويجب على الآباء في النموذج الإسلامي ،أن ينقلوا تجاربهم وخبراتهم في الحياة إلى أبنائهم ، وأن يربوا الأبناء على معرفة حق الله أولاً ، وحقوق الآخرين من أبناء جنسهم ، بالأسلوب المناسب الناصح الذي يفيض حناناً وعطفاً ، كما أخبرنا القرآن كيف قدّم لقمان الحكيم نصائحه لابنه ، في قوله تعالى : {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }لقمان13.

فقد بدأ نصحه بالأهم ، لأن الشرك معصية لا يغفرها الله سبحانه وتعالى ويغفر ما دونها ، كما وضح ذلك القرآن{ النساء :48، وآية :116}، ثم تدرج في نصحه إلى المهم مرتباً الأولى فالذي يليه في الأهمية للفردِ وللمجتمع كذلك، يقول تعالى: { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }لقمان17 - 19 .

تلك المعاملة الإنسانية الراقية التي أرادها الإسلام، تجعل من الأبناء في المستقبل أفرادا صالحين في المجتمع يؤدون واجباتهم المتعددة تجاه خالقهم وتجاه آبائهم وتجاه مجتمعهم.

فالآباء في النموذج الإسلامي ،مسئولون عن أبنائهم وعن توفير سبل الحياة الكريمة لهم ولا يستطيعون الفكاك من تلك المسئولية والتخلي عن واجباتهم تجاه افراد أسرتهم إلا إذا كانوا ضعاف الإيمان بالله وبرسوله وبإنسانيتهم ، يقول الرسول ـ عليه وعلى آلة أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فيما رواه عنه عبد الله بن عمر: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته " (رواه البخاري ، باب الجمعة في القرى والمدن) .

<u>علاقة الأبناء بالآباء :</u>

ذلك الواجب من قِبل الآباء تجاه الأبناء ـ باختيار الأم المناسبة والمحافظة عليها مع جنينها. سوف يعود عليهم حقوقاً في المستقبل من الأبناء تجاههم من الطاعة والحب والاحترام والبر والنفقة، فالإحسانُ للوالدين ـ وللأم خاصة ـ من وجهة النظر الإسلامية ،يشملُ الإحسان في الطاعة، والإحسان في العِشرة، والإحسان في المخاطبة ، والإحسان في احترام الرأي، والعمل بمشورتهما، والتزام

خدمتهما، وتقديم العون المادي والمعنوي لهما، ورعايتهما عند الشيخوخة، والإنفاق عليهما، وغض البصر و اللسان عن كل ما يؤذيهما، ووصل الإحسان للوالدين حتى بعد الوفاة بالدعاء لهما، والتصدق على روحيهما، وصلة أرحامهما، والبرّ بأصدقائهما، لقوله صلى الله عليه وسلم:" إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له "(متفق عليه) . وقال عليه الصلاة والسلام:" من بِرّ الوالدين أن تصل ودّهما" (رواه مسلم) [18] .

والأهم من كل ما سبق ،أن الدين الاسلامي يجعل طاعة الأبناء لآبائهم مقترنة بطاعة الله ،كما قال سبحانه وتعالى : {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً .وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً }الإسراء23-24 .

والملاحظ أن الآية السابقة تشير إلى واجبات الأبناء تجاه آبائهم في الحاضر، وتربط بينها وبين الحقوق التي تلقاها الأبناء في الماضي، كنوع من رد الجميل ـ أو رّد التحية بأحسن منها بحسب المنظور القرآني ـ لأن الآباء في حالة الكبر والوهن يحتاجان إلى رعاية مضاعفة ـ تشبه رعاية الأطفال ـ من أجل ذلك حذر الرسول ـ عليه وعلى آلة الصلاة والسلام ـ الأبناء من التقصير تجاه آبائهم في مرحلة الشيخوخة قائلا: " رغِم أنف ، ثم رغِم أنف ، ثم رغِم أنف ، فقالوا من يا رسول الله ؟ خاب وخسر! قال : من أدرك أبويه أحدهما أو كليهما ، فلم يدخل الجنة " (رواه مسلم).

وذلك يعني أنه قصّر في واجباته تجاه آبائه ، ولم يمشِ طريق الطاعة الطويل الواصل إلى الجنة مباشرة . وهكذا يحصل الآباء على حقوقهم بأداء واجباتهم تجاه الأبناء الذين يؤدون واجباتهم تجاه آبائهم من الطاعة والاحترام والمساعدة المادية والمعنوية والدعاء لهما بعد مماتهما باعتبار ذلك واجباً دينياً مقترناً بالأخلاق التي جاء الإسلام ليتمم مكارمها ، وزيادة في تأكيد حقوق الآباء الذين أدوا واجباتهم على أحسن ما يكون اعتبر الإسلام عقوق الوالدين وعدم تأدية حقوقهما من الكبائر ، فعن عبد الله بن عمرو : عن النبي صلى الله عليه وآلة و سلم قال :" الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس" (رواه البخاري، باب عقوق الوالدين).

فالأبناء في الحاضر يرسمون ويضعون قواعد الحقوق لأنفسهم في المستقبل ، فواجبات الأبناء تجاه الآباء ـ من المحبة والعطف والاحترام والطاعة والإنفاق ـ تعود عليهم حقوقا في المستقبل عندما يتزوجون وينجبون ، وهكذا يستمر الدور بين واجبات الأبناء في الحاضر، التي سوف يقطفون ثمارها في المستقبل على هيئة حقوق، حال كونهم آباء. هذه ميزة جاء بها الإسلام ، وهي تستوعب المكان وتستمر في الزمان إلى ما شاء الله لأنها إلهية ، وهي بخلاف القوانين

والتشريعات البشرية الوضعية التي تحتاج إلى مراجعة مستمرة لأنها تتغير بتغير الزمان والمكان ومشاكل الناس .

وبهذا النموذج الإنساني الراقي ، الذي رسمه الإسلام ، لصورة العلاقة بين جيل الأبناء وجيل الآباء ، من خلال ثنائية الحقوق والواجبات ،التي تشمل الجميع ماضيا وحاضراً ومستقبلا ، وتؤتي أكلها في كل حين ، أصبح الإسلام رسالة عالمية صالحة لكل زمان ومكان ، بخلاف الشرائع السماوية الأخرى .

<u>العلاقة بين الأزواج:</u>

وبعد أن يختار الزوج المرأة المناسبة له ولأولاده تبدأ بين الزوجين دورة من الواجبات بينهما و تنعكس على كليهما على شكل حقوق.

فهناك واجبات على الزوج تجاه زوجته تُرد إليه حقوقاَ من الزوجة هي واجبات عليها لزوجها ،هذا بالنسبة لعلاقة الزوج بالزوجة والعكس ـ صحيح أيضا ـ ونجد ذلك المعنى الذي نريد الوصول له في قوله تعالى :{ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ} {البقرة:228}

يقول الرازي في تفسير تلك الآية :"واعلم أن المقصود من الزوجين لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما مراعياً حق الآخر ، وتلك الحقوق المشتركة كثيرة ، ونحن نشير إلى بعضها فأحدها : أن الزوج كالأمير والراعي ، والزوجة كالمأمور والرعية ، فيجب على الزوج بسبب كونه أميراً وراعياً أن يقوم بحقها ومصالحها ، ويجب عليها في مقابلة ذلك إظهار الانقياد والطاعة للزوج وثانيها : روي عن ابن عباس أنه قال : إني لأتزين لأمرأتي كما تتزين لي لقوله تعالى : {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ} "[19] .

إذاً كل واجب يؤديه أحد الزوجين للآخر يحصل منه في المقابل على حق وهكذا يحرص كلا منهما على تأدية واجباته تجاه شريك الحياة كي يضمن حقوقه كاملة غير منقوصة ، وبذلك تسير عجلة الحياة في المجتمع الصغير كما أراد لها خالق الحياة القائل : {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14.

نستنتج مما سبق : أن حقوق الانسان الفرد في المجتمع الصغير ـ الأسرة ـ هي ثمرة لواجباته ، سواء كان زوجاً أم زوجة ، أبا أم ابناَ ، الكلُ يؤدي واجباته في موقعه ويتحمل المسؤولية المناطة به في مكانه داخل الأسرة ، وتمتد المسؤولية وتأدية الواجب من الأسرة لتشمل المجتمع ،فهناك واجبات للفرد تجاه الأقارب والأرحام والجيران وتعود إليه على شكل حقوق يؤدونها تجاهه، وهكذا تكتسب الحقوق في التصور الإسلامي " قدسية تمنع التلاعب بها من طرف حزب أو برلمان إثباتا وإلغاء وتعديلاَ طالما أن مصدرها الله ، بل تمثل سلطه توجيهيه إلزامية للأفراد والمؤسسات تتحول بالاجتهاد إلى مناهج ودساتير محددة " [20] .

بعد أن تعرفنا على التصور الإسلامي لحقوق الإنسان داخل المجتمع الصغير ،يكون لزاما علينا معرفة شكل العلاقة بين الأفراد في المجتمع كي تكتمل الصورة وتتضح .

5- المجتمع (الاسرة الكبيرة) :

وبالنسبة للأسرة الكبيرة ـ المجتمع ـ فإن الفرد باعتباره مواطناَ عليه واجبات تجاه الآخرين ،يجب عليه تأديتها وأهم تلك الواجبات أن يعاملهم بالعدل والإحسان ـ وكما أسلفنا ما لا يرضاه الفرد لنفسه لا يرضاه لغيره ـ وأن يتكلم مع الآخرين بلغة الإنسانية القائمة على أصل الخلق المشترك التي تتعامل مع النفس ومع الآخر من أجل إقرار المساواة والحرية والكرامة لجميع الناس دون استثناء يذكر لأي سبب من الأسباب ، هذا هو شعار الإسلام في بناء المجتمع الإسلامي ـ الأمة ـ القائم على بناء الفرد من الداخل من خلال نبذ الأنانية وغرس محبة الآخرين ـ كشرط للإيمان كما أسلفنا ـ واعتبار وجودهم شرطاً للحياة وأساساً للوجود ،وعلاقة الفرد بالحاكم هي عين علاقة الابناء بالأبناء- كما أسلفنا ـ كل يؤدي واجباته من خلال موقعه ، فالحاكم عليه واجبات باعتباره مسئولا عن المواطنين يسهر على أمنهم و راحتهم وتوفير كل سبيل العيش الكريم اللائق بإنسانية الإنسان للجميع دون تمييز أو استثناء ، ومعاملتهم بروح الأخوة والعدل والمساواة تطبيقاَ للمبادئ التي نادى بها الإسلام ، والدليل على مسئولية الحاكم الحديث الذي أوردناه سابقاً " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الإمام راع ومسؤول عن رعيته" رواه البخاري.

ومن خلال تأدية الحاكم لواجباته كاملة غير منقوصة يحصل على حقوق من المواطنين هي واجبات عليهم تجاه الحاكم : منها الطاعة ـ المرتبطة بطاعة الحاكم لله ـ ومحاولة النصح والإرشاد وتقويم الحاكم من خلال الوسائل المتاحة ـ وسائل الإعلام ـ وعدم الخروج عليه ما دام مؤدياً لواجباته تجاه الله وتجاه المواطن ،وإذا اختل أحد هذين الشرطين جاز للأمة الخروج السلمي الذي يحفظ لها كيانها ووحدتها واستقرارها ، وفي حال تأدية الحاكم والمحكوم لواجباته فإنهم يحصلون على حقوقهم ،فيعيشون عيشة تليق بإنسانية الإنسان وكرامته كما يراها الإسلام. إن انتظام حياة الإنسان في مجتمعه " يقتضي أن يتمتع بالحقوق التي له وأن يؤدي الواجبات التي عليه وإذا ما حصل خلل في هذه المعادلة فسيؤدي إلى الاضطراب في حياة الفرد والمجتمع "[21].

لأن مصدر تلك الحقوق مؤسس على أن السيادة والحاكمية لله عز وجل ، فاستناد الحق إلى الله وشريعته يؤدي إلى " اقتران الحق بالواجب واقتران حق الفرد بحق الجماعة واقتران الحقوق الفكرية والسياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية ومن خلال أداء الواجبات ترعى الحقوق، إذ ما من حق لفرد أو جماعة إلا كان واجباَ على غيره وحقوق المحكومين إنما هي واجبات على الحكام وحقوق

المستأجرين إنما هي واجبات على المالكين وحقوق الأولاد إنما هي واجبات على الوالدين)[22].

وهكذا يسعى الإسلام إلى تأكيد حقوق الإنسان من خلال غرس الواجب في عقله وفي ضميره، كي تأتي الحقوق ثماراً يانعة لبذور الواجبات تؤتي أكلها في كل وقت وحين وفي كل مكان ،من هنا يتبين لنا " أن كل لحظة يبذل فيها الفرد المسلم واجبه فإنه يسهم في بناء الحياة الإسلامية "[23] .

فالإسلام ربى الإنسان على الحس بالواجب والشعور بأهمية تأديته " لأنه بطبعه يخف للمطالبة بحقه ويتثاقل عن القيام بواجبه ،لذلك كان لا بد من علاج لبناء الإنسان في هذه النقطة ... إن إنسان الحق هو أقرب بطبعه للأخذ والاستهلاك ،أما إنسان الواجب الذي رباه الإسلام فهو إنسان العطاء والإنتاج ،هو الإنسان الذي يبني ويعمر الأرض ويحمي البناء ويستشعر مسؤوليته تجاه الآخرين، أما الإكثار من الكلام عن الحق دون التنبيه إلى قضية الواجب فيمكن أن يبني الإنسان الذي لا يستشعر إلا ذاته ومصلحته ولا يبحر إلا باتجاه ذاته " [24] .

الإنسان في التصور الإسلامي يحصل على حقوقه من خلال سلوكه مع نفسه ومع خالقه ومع الآخرين في الواقع المعاش ،باعتباره الفاعل الذي بيده ملكوت الحقوق ، يحصل على حقوقه من الآخرين من خلال تأديته لواجباته تجاههم من دون مطالبة أو ثورة ، كل واجب يعود عليه مباشرة بحق وهذا يكفي ، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين حقوق الإنسان في الإسلام عنها في الشرائع الوضعية الغربية " فحقوق المؤمن محصلة الواجبات التي يلتزم بها الدين للآخرين ،والقيمة الأولى الناجمة عن المفهوم الذي يكونه المؤمن عن الله والعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين الله وبين المؤمن وشعوره بالمساواة المطلقة حيال الناس " [25] . لقد أشعر الإسلام الإنسان بالمساواة المطلقة مع الناس لأن أبوهم واحد وخالقهم واحد وبالتالي فإن لهم حقوقاً متساوية هي نتيجة حتمية ومنطقية لواجبات متساوية ،الإسلام يربي الإنسان على الشعور بالمسئولية ،لأنه حريص على خلق الإنسان المسئول صاحب الشخصية السوية التي تنصف نفسها من خلال إنصاف الآخر" فإذا شعر كل فرد في المجتمع بالمسئولية نحو غيره من الناس الذين يُكلَّف برعايتهم والعناية بهم ونحو العمل الذي يكلف بالقيام به ونحو المصلحة العامة للمجتمع بأسره يتقدم المجتمع ويعم الخير جميع أفراده " [26].

ويتمتع جميع أفراد المجتمع بالحقوق المكفولة بالواجبات وباحترام كل فرد لنفسه ولغيره ،ذلك أن احترام الإنسان للآخر هو احترام لمشيئة الله القائل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ} {القصص:56} [27] .

واحترام الذات ينبع من احترام الآخر المخالف وهي دليل على معرفة الإنسان لنفسه ولدوره في الحياة كخليفة لخالقه ولتحمله المسؤولية ولشعوره بها ،وهكذا

يمكن النظر إلى" تعزيز واحترام حقوق الإنسان دون الأخذ بعين الاعتبار أن هذا الاحترام هو فعل من قبل احد ما تجاه الآخر وبالتالي فإن هذا يعني مسؤولية والتزاماً تجاه الآخر في الوقت نفسه الذي يتوقع من الآخر الالتزام نفسه " [28] .

<u>والخلاصة أن حقوق الإنسان في الإسلام هي أولا :</u>

هبة من الله سبحانه وتعالى للإنسان وليست حقاً طبيعياً يمكن للإنسان الاستغناء عنه، فتقرير الحقوق والواجبات في الإسلام مصدره الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتشريعه الحق والعدل المطلق للعباد ـ دون محاباة أو تحامل ـ لأنه أرسل الرسل لتطبيق مبدأ العدل بين جميع الناس ،كما قال تعالى : {لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط }[29] .

وثانياً : أن تلك الحقوق هي ثمار ناضجة لواجبات الإنسان تجاه إخوانه في الإنسانية ،تؤتي أكلها في كل زمان ومكان ومع جميع الناس بدون استثناء يذكر، وهي كذلك لأن من خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه يعلم أيضا ما ينفعه في حياته المعاشة :{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ} {الملك:14} .

وكما قال المفكر الإسلامي مالك بن نبّي : " إن صنع التاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى الكلمة ،والواجبات الخاصة بكل يوم ، بكل ساعة ، بكل لحظة لا في معناها المعقد كما يعقدّه أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة ،يعطلون بها التاريخ " [30] .

وعليه يمكن القول إن حقوق الإنسان في الإسلام ليست مجرد حقوق يستطيع الفرد أو الجماعة التنازل عنها أو عن بعضها " وإنما هي ـ ضرورات ـ إنسانية فردية كانت أو اجتماعية ولا سبيل إلى حياة الإنسان بدونها ـ حياة تستحق معنى الحياة ـ ومن ثم فإن الحفاظ عليها ليس مجرد حق للإنسان بل هو واجب عليه أيضا ،يأثم هو ذاته ـ فردا أو جماعة ـ إذا هو فرط فيه وذلك فضلاً عن الإثم الذي يلحق كل من يحول بين الإنسان وبين تحقيق هذه الضرورات " [31] .

وإذا كانت حقوق الإنسان في الإسلام هي ثمار و نتائج تأديته لواجباته وهي من ضرورات الدين التي يجب الإتيان بها لأنها ضرورية لإنسانية الإنسان ولحياته المعاشه ولآخرته أيضا باعتبارها من الضرورات التي يقوم بها ومعها ومن أجلها الدين ، فإننا سوف نعرج على مقاصد الشريعة الإسلامية لنرى علاقتها بالإنسان أولا وبحقوقه ثانياً .

مراجع الفصل الرابع

(1) راشد الغنوشي : الحريات العامة في الدولة الإسلامية ،ص41،مرجع سابق .

(2) مراد هوفمان : الإسلام كبديل ،ص188،مرجع سابق .

(3) جودت سعيد : الانسان كلا وعدلا ،دار الفكر المعاصر،بيروت،ط1/1993م،ص59.

(4) ينظر : حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان . ص 126 - 127.سابق

(5) الخليل بن احمد: كتاب العين ج3/. تح : مهدي المخرومي ،وابراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال ،بيروت، (د،ت) ص6.

(6) ابن منظور : لسان العرب ،ج1/،دار صادر ،بيروت ،طبعة أولى (د ،ت)ص793.

(7) ينظر : حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان ،ص111،مرجع سابق .

(8) الحق قديم ،وثائق حقوق الإنسان في الثقافة الإسلامية ، غانم جواد ،مركز القاهرة لدراسة حقوق الإنسان،ط2000م،ص20.

(9) ينظر : محمد عابد الجابري :الديمقراطية وحقوق الإنسان ، ص208 . مرجع سابق .

(10) ينظر : علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ،ص234،مرجع سابق .

(11) حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان . ص125. سابق .

(12) محمد أبو زهرة :المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ،ص166،مرجع سابق .

(13) حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان .ص 133 .سابق .

(14) راشد الغنوشي : الحريات العامة في الدولة الإسلامية ،ص41،مرجع سابق .

(15) المرجع السابق ،ص42.

(16) ينظر : مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ،ص99،مرجع سابق.

(17) ينظر : أمين نعمان الصلاحي : من وسائل القرآن في اصلاح المجتمع. كتاب الأمة . قطر. العدد 127. سبتمبر2008م. ص87- 88.

(18) ينظر: محمد الزحيلي. حقوق الإنسان في الإسلام .دار ابن كثير. دمشق.ط5/2008م.ص232 - 233.

(19) محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي . تفسير الفخر الرازى ،ج1.دار إحياء التراث العربى ، (د - ت) بيروت .ص917 .

(20) راشد الغنوشي : الحريات العامة في الدولة الإسلامية،ص42،مرجع سابق .

(21) حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان ،ص121،مرجع سابق

(22) علي بن علي الاهدل، وعبد الحكيم السر وري : أضواء على الثقافة الإسلامية ، دار القدس ،صنعاء ،ط2006/2م،ص343.

(23) جودت سعيد : الانسان كّلاً وعدلاً . ص59. سابق.

(24) مقدمة عمر عبيد حسنة : كتاب الأمة ،العدد (25) ،ص19،مرجع سابق .

(25) مارسيل بوازار : إنسانية الإنسان ،ص102 ،مرجع سابق .

(26) يسرى محمد ارشد :حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي . ص146،مرجع سابق .

(27) ينظر :محمد الطالبي :الحرية الدينية حق من حقوق الإنسان أم قدر الإنسان، ضمن كتاب دراسات في التسامح لمعهد العربي لحقوق الإنسان ،تونس ،1995م،ص39.

(28) عماد عمر : سؤال حقوق الإنسان ،عمان الأردن ،ط2000/1م،ص87.

(29) ينظر : آمنه محمد نصير : انسانية الانسان في الاسلام ،ص70،مرجع سابق .

(30) نقلاً عن : جودت سعيد : الانسان كّلاً وعدلاً . ص59. سابق.

(31) محمد عمارة : الإسلام وحقوق الإنسان ،ص15 ، مرجع سابق .

الفـــــصل الخـــــامـــــــــــس

- مقاصد الشريعة وتأصيل الحقوق .

1 - المنـهج المقاصدي .

2 - المصلحة اساس المقصد .

3 - انـواع المصالح .

4 - الأولى والأولى منـه .

مقاصد الشريعة وتأصيل الحقوق

كان الغرض من اصطفاء الله سبحانه للإنسان وتكريمه على جميع المخلوقات ـ بالعقل الذي تحمل أمانة الإنسانية والمسؤولية المترتبة عنها ـ أن يكون الإنسان خليفة لله في أرضه { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } {البقرة:30} وهيأ الله له كل الظروف التي تساعده على الخلافة في الأرض وإعمارها، فأرسل الرسل والأنبياء وأرسل معهم الكتب الإلهية التي تشرع للإنسان ما فيه مصلحته ومنفعته في الدنيا والآخرة { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {النساء:165} .

ووضح القرآن الكريم أن الغرض الرئيس من أرسال الأنبياء والرسل والهدف الجوهري لجميع الشرائع السماوية ،هو إقامة العدل في الأرض بين كل الناس على أساس الأصل الإنساني المشترك ، كما قال سبحانه وتعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد25 .

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الإيمان في القرآن مسألة اختيارية ـ كي يكون للثواب والعقاب معنىً يقره الشرع وترتضيه العقول السليمة ـ كم قال تعالى : {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً }الكهف29

لكنه جعل العدل بين الناس أمراً مُلزماً لا اختيار فيه ، كي تستقيم الحياة الإنسانية ، وتسير خلافة الله للإنسان في الأرض كما أراد الله ـ لا كما يُريد بعض الطغاة ـ فقال عّز من قائل : {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ }النحل90 .

وإذا كان التوحيد هو عماد العقيدة الإسلامية ، فأن العدل هو عماد الشريعة ، لأن قضية العدل هي من أهم القضايا التي ترتبط بحياة الإنسان وبحقوقه ، في كل زمان ومكان ، لأنه أمر الله إلى خلقه ،كما قال تعالى : إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ }. وهو تكليف من الله لنبيه حال حكمه بين الخصوم ، كما أخبرنا سبحانه وتعالى بقوله : { وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ }الشورى15 ، وهو أمر من الله لكل إنسان في حياته المعاشه ، بأن يعدل ويشهد بالحق حتى على نفسه أو على أقرب الناس اليه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }النساء135، وقد جعل الله العدل قيمة مطلقة يجب أن تسود حتى بين الأعداء والمتخاصمين ،كما قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }المائدة8

وهذا يعني أن عدم إقامة العدل بين جميع الناس يعني التفريط في أهم حق من حقوق الناس ، ويعني كذلك تعطيل لجوهرية الدين السماوي الواحد الذي ارتضاه الله لعباده ولمقصد من أهم مقاصد كل الشرائع السماوية .

وجميع الشرائع الإلهية كان هدفها الأساس احقاق حقوق الإنسان وتحرير ارادته من أي هيمنة جائرة من قِبل الظلمة والطواغيت ـ في كل زمان ومكان ـ ليخضع لخالقه وحده دون سواه ، بملىء ارادته وبمحض اختياره ، وبكامل حريته من دون ضغط أو اكراه . وجميع الأنبياء والرسل كانوا قادة للدفاع عن حقوق الإنسان عبر التاريخ ، بدعوتهم الناس الى رفض الطغيان أيً كان مصدره ، ومقاومة الظلم والفساد بكل السبل وبكافة الوسائل المتاحة ، يقول سبحانه وتعالى موضحاً ما قلناه : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }النحل36.

ولقد جعل الله رفض الظلم والكفر بالطاغوت ومحاربة الطاغوتية ، مدخلاً للإيمان به سبحانه وتعالى ، يقول تعالى : {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }البقرة256 [1] .

واذا بحثنا عن ترجمة تطبيقية ، وتلخيصاً وافياً لكل ما جاءت به الشريعة الإسلامية الغراء في كلمة واحدة ، فلن نجد لتلك الترجمة ولذلك التلخيص الواقعي سوى كلمة العدل . فإذا كان التوحيد في الإسلام هو عماد العقيدة وماهيتها ،فإن العدل هو عماد الشريعة وحقيقتها ، ولن يتوفر التطبيق الحق للإسلام على أرض الواقع ـ في كل زمان ومكان ـ ما لم يستند إلى هاتين الدعامتين جنباً إلى جنب ، بالإضافة إلى أن الاتكاء على احداهما دون الأخرى ـ في مجال التطبيق ـ لن يثمر الا مسيرة عرجاء لا يستقيم بها التطبيق الإسلامي بأي حال من الأحوال [2] .

وما يحصل في واقع المسلمين المعاش والمعاصر هو ترجمة حرفية لما قلناه .

وبعد إرسال الرسل وتبليغ الناس ما يجب عليهم تجاه خالقهم من العبودية والخضوع والطاعة ، وتنفيذ أوامره بعمارة الأرض والاحسان الى خلقه ، تنتفي الحجة عمن أبى واستكبر وكذب بما جاءت به الرسل وحق عليه العذاب [مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا] {الإسراء:15}.

وختم الله الرسالات السماوية بسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: فهو {رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} {الأحزاب:40} وهو الرحمة المهداة للعالمين جميعاً :{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} {الأنبياء:107} .

وهو رسول للناس جميعاً ،لا يخص قوم دون قوم أو لغة دون أخرى ،كما أخبر تعالى على لسان رسوله : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }الأعراف158.

ولقد خاطب الإسلام الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض وحامل الأمانة والمسؤولية بما يحقق الغرض الذي خلق من أجله .

من أجل ذلك كانت الشريعة الإسلامية الغراء عوناً للإنسان المستخلف فعملت على جلب كل ما يؤكد ذلك الاستخلاف ويقويه ونبذت كل ما من شأنه أن يعمل عكس ذلك فغاية الشريعة في كل زمان ومكان هي تحقيق مصلحة الإنسان " كخليفة في المجتمع الذي هو منه وكمسؤول أمام الله الذي استخلفه على إقامة العدل والإنصاف وضمان السعادة الفكرية والاجتماعية والطمأنينة النفسية لكل أفراد الأمة " [3] .

إن الوصول إلى الإنسان ـ في كل زمان ومكان ـ والعمل على تحقيق مصلحته في الدنيا ـ كأساس للوصول الى الحياة الآخرة ـ هي غرض الدين السماوي الواحد ـ الإسلام بالمفهوم القرآني كما مّر معنا ـ وهدف كل شريعة من الله سبحانه وتعالى ،وهي ما يعرف في اصطلاح علماء أصول الفقه بمقاصد الشريعة . ومقاصد الشريعة في اصطلاح علماء أصول الفقه هي :" الغايات والأهداف والنتائج والمعاني التي أتت بها الشريعة وأثبتتها الأحكام وسعت إلى تحقيقها وإيجادها والوصول إليها في كل زمان ومكان"[4].

والإلمام بمقاصد الشريعة ومعرفتها أمر في غاية الأهمية لأنه يؤدي إلى فهم النصوص الشرعية الواردة من مصادر التشريع ـ القرآن والسنة والإجماع والقياس ـ وبشرط أن يأتي على الوجه الصحيح الذي يؤدي إلى استنباط الأحكام من أدلتها على الوجه المقبول ،ذلك لأن دلالة الألفاظ والعبارات على معانيها ـ في مصادر التشريع الأربعة ـ تحتمل عدة وجوه والذي يرجح واحداً منها هو الوقوف على مقاصد الشريعة ، فبعض النصوص في مصادر التشريع قد تتعارض ظواهرها والذي يرفع ذلك التعارض ويوفق بينها أو يرجح أحدها على الآخر هو الوقوف على مقاصد الشريعة.

1- المنهج المقاصدي :

ينطلق منهج مقاصد الشريعة من فلسفة تواترت الأدلة الشرعية الاعتقادية والعملية على صحتها وهي :" أن جميع ما وردت به الشريعة الغراء معقول المعنى وذو حكمة بالغة سواء عقل المجتهدون كلهم الحكمة أو عقلها بعضهم وغفل عنها آخرون . فكل حكم ورد في كتاب الله وبينته سنة رسوله فهو مشتمل

على حكمة معقولة المعنى : ظاهرة أو كامنة تظهر بمزيد تدّبر للنص أو سير في الأرض أو نظر في الواقع "[5] .

وهناك كثير من الوقائع الحادثة لا تشملها عبارات النصوص في مصادر التشريع وتحتاج إلى معرفة أحكامها بأي دليل من الأدلة الشرعية والهادي إلى ذلك الاستدلال هو معرفة مقاصد الشريعة [6] .

وقد ثبت لعلماء أصول الفقه من خلال استقراء وتتبع الأحكام المختلفة الواردة في مصادر التشريع ـ القرآن والسنة والإجماع والقياس ـ أن مقاصد الشريعة الإسلامية الجوهرية والأساسية الثابتة في كل زمان ومكان تهدف إلى تحقيق مصالح العباد وحفظها ودفع الضرر عنهم قدر الإمكان .

2ـ المصلحة أساس المقصد :

تلك الحقيقة أمر ثابت في الشريعة الإسلامية يدل عليها استقراء النصوص المؤسسة لأحكام تلك الشريعة ، فقد قال تعالى في تعليل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}والرحمة في اخص معانيها " تتضمن رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم " [7] .

وقد ذهب الكثير من علماء أصول الفقه الى أن الوصول الى المصلحة هو المقصد الأسمى للشريعة ومنهم :" العز بن عبد السلام الذي قال إن جميع التكاليف الشرعية راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم والله غني عن عبادة الكل ، وقال الشاطبي أن : الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد وان كل حكم شرعي فيه حق لهم إما عاجلاً وإما آجلاً "[8].

والمصلحة هي المنفعة وزناً ومعنى فهي مصدر بمعنى الصلاح كالمنفعة بمعنى النفع ،والمصلحة فيما اصطلح عليه علماء الشريعة الإسلامية هي :"المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها " [9] .

فالمصلحة هي كل ما فيه من صلاح ونفع للعباد في دينهم ودنياهم سواء كانت مصلحةَ فردية أم جماعية ، وسواء كانت مادية أم معنوية ، آنية أم مستقبلية [10]

لقد جاءت الشريعة الإسلامية الغراء لتحقيق المصلحة للناس جميعاَ وتلك غاية محققه ثابتة في كل الأحكام الإسلامية "فما من أمر شرعه الإسلام بالكتاب وألسنه إلا كانت فيه مصلحة حقيقية وإن اختفت تلك المصلحة عن بعض الذين غشاهم الهوى والمصلحة التي يردها الإسلام ليست الهوى وإنما هي المصلحة الحقيقية التي تعم ولا تخص " [11] .

تلك المصالح التي جلبتها الشريعة للعباد ليست المصالح الشخصية الضيقة التي تحقق للإنسان المنفعة بحسب هواه وشهواته ، وليست هي المصالح الحزبية أو المذهبية ، إنما المصلحة الحقة ما كانت مصلحةً " في ميزان الشرع لا في ميزان الأهواء والشهوات فالإنسان قد يرى، مدفوعاً بهواه ،النافع ضاراً والضار نافعاً ، متأثراً بشهواته النفسية وتطلعه واستشرافه للنفع العاجل اليسير " [12] .

قال العز بن عبد السلام " اعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع حكماً من أحكامه إلا لمصلحة عاجلة أو آجلة أو عاجلة وآجلة تفضلاً منه على عباده ...وليس من آثار اللطف والرحمة واليسر والحكمة أن يكلف عباده المشاق بغير فائدة عاجلة ولا آجلة لكنه دعاهم إلى كل ما يقربهم إليه " [13].

إن جميع الأحكام الشرعية الواردة في مصادر التشريع قد أكدت على جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم تحقيقاً للسعادة الدنيوية وكي يؤدي الإنسان مهمته الأساسية في الاستخلاف والاستعداد لليوم الآخر على أكمل وجه وكانت الغاية التي ما بعدها غاية ـ التي سعت إليها الشريعة سعيها ـ هي تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد ـ بحسب الفقهاء ـ وهي ليست غاية تحقيق مصلحة " طبقة خاصة دون طبقة ولا شعب دون شعب وليست غاية تحقيق المصلحة المادية الاقتصادية مع إهمال الناحية الخلقية والروحية وليست غاية تحقيق المصلحة الدنيوية بقطع النظر عن المصالح الأخروية كما تفعل القوانين الأرضية "[14].

ومراعاة الاعتبارات السابقة متحقق من خلال الشريعة الإسلامية لأنها صادرة عن الله سبحانه وتعالى ويستحيل أن تتحقق مع الشرائع البشرية التي تراعي مصالح واضعيها دون غيرهم . ولكن لماذا ركزت الأحكام الشرعية على جلب المصالح ودرء المفاسد ؟

إن الله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ويعلم ما يضره وما ينفعه وما يسعده وما يحزنه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ} {الملك:14} والإسلام دين الفطرة بمعنى: أن كل إنسان مدفوع بفطرته الطبيعية ـ التي لم تفسدها العوامل الاجتماعية المحيطة ـ إلى البحث عن خالقه والتعرف عليه وعبادته ، وبما أن الشريعة الإسلامية هي دستور إلهي من الله للإنسان فهي بالتأكيد تراعي فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي أن الإنسان يبحث عن مصلحته ومنفعته في الدنيا والآخرة فالمنفعة والحصول عليها غاية فطرية لا خلاف في ذلك وتتجلى النزعة الفطرية لدى الإنسان في جميع تصرفاته وأعماله " إلى تحصيل المنفعة لنفسه في الجملة فلا غرو. والإسلام دين الفطرة ـ أن تكون المنفعة في أتم مظاهرها وأوسع طاقاتها محوراً لما شرعه الله لعباده من شرائع وأحكام وأساسا لجميع ما خطته لعباده من أخلاق وفضائل ،وشرط المنفعة أن لا تقترن بها أضرار مساوية للمنفعة المرتقبة أو راجحة عليها "[15].

والإنسان بفطرته السليمة يستجيب لكل قول أو فعل يؤدي إلى مصلحته الشخصية فهو برجماتي في بعض طباعه وتصرفاته " ولكي تقنع إنسانا يجب أن تلجأ إلى إثارة مصلحته الشخصية وإلى رغباته وإرادته" [16].

وإذا كانت فطرة الإنسان ترتضي المصلحة وتبحث عنها، فإن عقله ـ كذلك وهو الأهم ـ يبحث عن المصلحة ويرتضيها أنى وجدها ،وبما أن العقل أساس إنسانية الإنسان فإن الشريعة الإسلامية قد خاطبت العقل واعتبرته مناط التكليف .

فجميع الأحكام الشرعية موجهة بالأساس إلى عقل الإنسان كي يعمل بها ويرتضيها باقتناع دون إكراه . وتركيز الشريعة الإسلامية على جلب المصالح ودرء المفاسد متوافق مع عقل الإنسان الباحث دائما عن المصلحة و الهارب من المفاسد الضارة التي تؤرقه في حياته وتذهب عنه الشعور بالسعادة و الراحة .

وبذلك يحدث الاتفاق المطلوب بين ما جاءت به النصوص والأحكام الشرعية وبين العقل، باعتبار الأخير هو المعني بترجمة الأحكام الشرعية في الواقع المعاش " فكل ما حكم به العقل السليم حكم به الشرع الصحيح ، فالعقل رسول في الباطن والشرع عقل في الظاهر، فإذا أدرك العقل أن العدل حسن والظلم قبيح حكم الشرع بأن العدل محبوب لله والظلم مكروه عنده " [17].

وإذا ذهب عقل الإنسان فإنه لا يفرق بين المصالح والمفاسد وهنا يسقط عنه العمل بالأحكام الشرعية ـ التي تراعي المصالح أينما وجدت ـ وبحسب تعبير علماء الأصول : أينما توجد المصلحة فثم شرع الله. فالحكمة من العبادات والمعاملات والدعوة إلى مكارم الأخلاق ،لإنها تجلب المصالح للعباد وتدرأ عنهم المفاسد ـ في الدنيا والآخرة ـ لأن الله سبحانه لا تزيد في ملكه طاعة ولا تنقص منه معصية . فكل عمل فرضته الشريعة على العباد يعود عليهم بالنفع والمصلحة في الدارين وهو واجب على المسلم أن يؤديه لغيره وحق له على غيره يؤديه له [18] .

3- أنواع المصالح :

مصالح العباد التي فُرضت الأحكام الشرعية لإيجادها ليست نوعا واحدا بل تختلف من حيث أهميتها في حياة الإنسان ومدى الحاجة إليها وتأثيرها المباشر في حياته وسلوكه المعاش ومصالح الناس " في هذه الحياة تتكون من أمور ضرورية لهم وأمور حاجية وأمور تحسينية ،فإذا توافرت لهم ضرورياتهم وحاجياتهم وتحسيناتهم فقد تحققت مصالحهم " [19].

ويرى الإمام الشاطبي (790هـ) أن الضروريات لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، فإذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين، والحاجيات الغرض منها التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج

والمشقة اللاحقة وفوت المطلوب، والتحسينات تعني الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات ويجمعها مكارم الأخلاق [20] .

وبحسب الألفاظ المنطقية يمكن القول بأن هناك مصالح جوهرية تقوم عليها حياة الإنسان الأساسية ولا حياة له من دونها ـ لأنها ضرورات الحياة ـ مثل الهواء والماء ،ومصالح ثانوية مثل الملبس يحتاجه الإنسان لكنه لا يرقى لمستوى الضرورة ،ومصالح كمالية مثل الوسائل التي توفر للإنسان الراحة والرفاهية مثل السيارة والتلفاز وغيرهما .

والدليل على أن مصالح الناس تشمل الضروري والثانوي والكمالي هو استقراء الواقع المعاش عن طريق الحس والمشاهدة ، فمن خلاله يتضح أن كل فرد وكل مجتمع يحتاج تلك الأشياء بحسب الترتيب السابق ، فالضرورات هي جوهر وكينونة حياة العباد وبها تقوم الحياة وتستقيم المصالح وبدونها تختل الحياة وتختنق وتسود الفوضى وتعم المفاسد .

وقد استقرأ الشاطبي في كتابه (الموافقات) جميع الأحكام الشرعية وزاوج فيه بين العقل والنقل وأستنتج أن الشريعة الغراء قد جمعت الأمور الضرورية لحياة العباد في الآجل والعاجل بحفظ أمور خمسة رتبها على النحو الآتي : حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل وقد قالوا أنها مراعاة في كل ملة [21] .

ولقد تم التوصل إلى تلك المقاصد الكلية من خلال قراءة تفصيلية متأنية وعميقة للنصوص الدينية ذات الطابع التشريعي " من خلال علاقاتها التركيبية ببعضها البعض من جهة ومن خلال علاقاتها بنصوص العقيدة والأخلاق من جهة أخرى ،والمقصود بالعلاقات التركيبية للنصوص الشرعية علاقات الاجمال والبيان والعموم والخصوص والنسخ ...وغير ذلك وهي علاقات إنتاج الدلالة الشرعية [22]."

وإذا كان الشاطبي يرى أن مصالح الدين والدنيا مبنية على المحافظة على الأمور الخمسة المذكورة فيما تقدم ، فقد اعتبر" قيام هذا الوجود الدنيوي مبنياً عليها ،حتى إذا انخرمت لم يبق للدنيا وجود ـ أعني ما هو خاص بالمكلفين و التكليف ـ وكذلك الأمور الأخروية ...فلو عدم الدين عدم ترتيب الجزاء المرتجى ،ولو عدم المكلف لعدم من يتدين ،ولو عدم العقل لارتفع التدين ،ولو عدم النسل لم يكن في العادة بقاء ولو عدم المال لم يبق عيش " [23] .

ويعلل الشاطبي ترتيبه السابق ويرى أنه الأرجح من وجهة النظر الفقهية التي ترى أن الدين أهم من النفس ومن العقل ، مع أنهم يعلمون أن الله سبحانه وتعالى ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها ـ ولا يكلف المعدوم قبل وجوده ولا يكلف أحدا لا يملك مناط التكليف ، وهم بترتيبهم السابق يقدمون العربة على الحصان الذي يجرها .

وبخلاف الشاطبي فإن الفقيه محمد الطاهر بن عاشور(1879- 1973م) يرى أن مقاصد الشريعة هي أربعة مفاهيم أساسية تكوّن المحور الذي تدور عليه عقائد الإسلام وتعاليمه وتشريعاته وهي : الفطرة والسماحة والحرية والحق ، ويحتل مفهوم الفطرية عنده منزلة الواسطة من العقد ،وذلك لأنها الوصف الأعظم الذي تنبني عليه مقاصد الشريعة ، ويعني بالفطرة : الحالة التي خلق الله عليها عقل النوع الانساني سالماً من الاختلاط بالرعونات والعادات الفاسدة وهي حالة صالحة لصدور الفضائل عنها [24].

و هناك من المعاصرين من يرى مقاصد الشريعة بشكلٍ مختلف وذلك باستقرائها من التدّبر في آيات القرآن والتفكر في الآيات الكونية ويسميها : منظومة المقاصد القرآنية الحاكمة وهي : التوحيد والتزكية والعمران " فالتوحيد يختص به الله تعالى وهو حقه على عباده ، والتزكية يختص بها الإنسان ، والعمران هو نصيب الكون في هذه المنظومة التي وإن بدا عليها التعدد فإنها واحدة [25] .

وسائر القيم الأخرى الكلية منها والجزئية تنتهي إلى تلك المقاصد الثلاث التي لا يمكن أن ينفصل أي منها عن الأخرين " فالتوحيد غاية التزكية وهدفها ووسيلتها في الوقت ذاته . والعمران ثمرة للتوحيد والتزكية معاً لا يوجد على حقيقته وبشروطه بدونهما " [26] .

وتلك المقاصد الثلاث ـ السالفة الذكر ـ مترابطة ، وتؤدي بترابطها إلى الوصول إلى الهدف الحقيقي للإسلام وهي توضح " أن أهم أهداف الإسلام تحقيق وإيجاد إنسان التزكية القادر على تحقيق التوحيد وإقامة العمران " [27].

4- الأولى والأولى منه :

ومع احترامنا الشديد لجهد الشاطبي ـ رحمة الله عليه ـ وتفانيه في توضيح مقاصد الشريعة إلا أن ترتيبه لتلك المقاصد على النحو السابق ترتيب أقرب للفقه منه إلى الشريعة ذاتها ، أي: إنه فكر ديني بشري يخضع لمقاييس الصواب والخطأ وليس هو التشريع الالهي بعينه الذي قال عنه تعالى : {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }فصلت42

ذلك أن الله سبحانه وتعالى ـ واضع كل الشرائع ـ قد كّرم الإنسان ونفخ فيه من روحه ليكون خليفته في الأرض ،والتكريم يشمل جميع الناس دون استثناء ، المتدّين منهم والملحد والمشرك باعتبارهم عبيداً لله ـ رضوا أم أبوا يشملهم توحيد الربوبية فالله سبحانه وتعالى هو { رب العالمين } وليس رب المسلمين وحدهم ـ وباعتبارهم كذلك أبناء لآدم عليه السلام ، مما يعني أن ترتيب الضرورات يجب أن يشمل المصالح ويجلبها لجميع العباد وتدرأ عنهم المفاسد ـ وليس لفئة المتدينين فقط ـ هذا من ناحية . ومن الناحية الأخرى : يجب أن نزاوج بين فقه المقاصد ـ كي نتمكّن من فهم مقاصد الشارع الحقيقية ـ وبين فقه

الأولويات ـ كي نفهم الواقع المعاش كما يجب ـ كي تأتي الثمار ناضجة تؤتي أكلها في كل زمان ومكان ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه التدّين الحقيقي الذي يستوعب الوحي الإلهي الثابت والواقع الإنساني المتغير .

ذلك أن فقه الأولويات يضع كل الوقائع والأحداث والمستجدات الحياتية في مكانها المناسب وفي موضعها الصحيح مرتّبة بالعدل، من الأحكام والقيم والأعمال ثم يقدم الأولى فالأولى، بناءً على معايير شرعية صحيحة ، يهدي اليها نور الوحي ونور العقل فيحدث بينهما الإكتمال (نور على نور) ، فلا يقدم غير الأهم على المهم ولا المهم على الأهم ولا المرجوح على الراجح ولا المفضول على الفاضل أو الأفضل ، بل يقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما يستحق التأخر ... ويوضع كل شيء في موضعه الصحيح والمناسب بالقسطاط المستقيم بلا طغيان ولا إخسار[28] .

ولنا في رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ الأسوة الحسنة في مزاوجته بين مقاصد الشرع وأولويات الواقع ، فعن عبد الله بن عمر عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي صلى الله عليه و سلم : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لها " ألم تر أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم " فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم قال : " لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت " *.

لقد قدّم الرسول واجب المحافظة على إسلام أصحابه على إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام ، لأنه وازن بين المصالح والمفاسد ، وقدّم الأهم على المهم . وبناءً على التوضيح السابق يمكن أن نرتب مقاصد الشريعة على النحو الآتي : حفظ النفس والعقل وحفظ حرية التّدين والنسل والمال .

ذلك لأن النفس هي أساس الحياة وعلى وجودها يترتب وجود بقية الأمور ويأتي العقل بعدها في الأهمية وفي الترتيب ،لأنه مناط التكليف والمخاطب بالنصوص الشرعية وهو أساس وجود كل دين ، وعندها يمكن للنفس والعقل استقبال الدين الذي يأمر بالحفاظ على النفس والعقل ـ بعد وجودهما ـ لأنهما شرط لوجوده ويأمر بالحفاظ على النسل لأنه أساس لوجود النفوس واستمرار بقائها ، ويأمر بحفظ المال باعتباره أساساً لوجود الحاجيات و التحسينيات .

وسوف نقوم باستعراض كل مقصد من تلك المقاصد على حدة كي تتضح الصورة أكثر في الفصل التالي .

.....

***(البخاري باب فضل مكة وبنيانها) (مسلم في الحج باب نقض الكعبة وبنائها رقم 1333)**
.

مراجع الفصل الخامس

(1) ينظر : حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان . ص9 .سابق .

(2) ينظر : فهمي هويدي : القرآن والسلطان .دار الشروق القاهرة .ط4/1999م.ص157.

(3) علال الفاسي : مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ،دار الغرب الإسلامي ،المغرب ، ط/1993م،ص11.

(4) مجموعة من المؤلفين : حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة ، كتاب الأمة

عدد (87) ص 70 مرجع سابق.

(5) طه جابر العلواني : مقاصد الشريعة . دار الهادي ، بيروت .ط1/دار الهادي ، بيروت .ط1/2001م.ص125.

(6) ينظر :عبد الوهاب خلاَّف : علم أصول الفقه، دار القلم، الكويت. ط20/1986م،ص198.

(7)عبد الكريم زيدان : المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط16/2002م،ص198.

(8) آمنه محمد نصير : انسانية الانسان في الاسلام ،ص73،مرجع سابق ،

(9) محمد سعيد رمضان البوطي : ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة بيروت،ط6/1992م،ص40.

(10) ينظر: يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مكتبة وهبه ،القاهرة ،ط1،/1998م،ص 82.

(11) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ،دار الفكر العربي بيروت (د ـ ت) ص366.

(12)عبد الكريم زيدان : الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط5/1996م،ص378.

(13) نقلاً عن: حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة ،ص71- 72 مرجع سابق.

(14) يوسف القرضاوي : السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها ،ص20 ، مرجع سابق

(15) محمد سعيد البوطي : ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية . ص28،مرجع سابق .

(16) ول ديورانت : قصة الفلسفة ،تر :فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف ،بيروت،ط4/1982م،ص401

(17) مهدي فضل الله : العقل والشريعة ،دار الطليعة ،بيروت ،'ط1/1995م،ص16.

(18) ينظر : حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة ،من 73 إلى ص75 ، مرجع سابق
(19)عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ،ص198،مرجع سابق .

(20) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة ،الجزء الثاني ،دار المعرفة ،بيروت . (د،ت) من ص8 إلى 11 .

(21) ينظر : المرجع السابق ، ص10 .

(22) نصر حامد ابو زيد :الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي ،بيروت،ط2000/1م،ص201.

(23) المرجع السابق ،ص17.

(24) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الاسلامية ،تح: محمد الطاهر الميساري. دار النفائس الاردن .ط2001/2م.ص114- 115.
(25) طه جابر العلواني : مقاصد الشريعة . ص145. سابق .
(26) **طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران : محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة . دار الهادي ، بيروت .ط1/ 2003م. ص144.**
(27) المرجع السابق . ص119 .
(28) ينظر : يوسف القرضاوي : في فقه الأولويات .مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت .(د ـ ت) ص 9.

الفصل السادس

- المقاصد التي نريد لا التي نعرف.
1. حفظ النفس .
2. حفظ العقل .
3. الحفاظ على حرية التدّين ..
- حرية التدّين وخاتميه الرسالات السماوية
4. حفظ النسل .
5. حفظ المال .
- ملاحظات على مقاصد الشريعة .

المقاصد التي نريد لا المقاصد التي نعرف

المقاصد التي نعرفها تجعل من الدين سابقاً في أهميته على النفس والعقل ، على أساس أنه من يشرّع للحفاظ على بقية المقاصد وهذه نظرة من زاوية فقهيه ، لكن هناك نظرة أخرى إنسانية ترى: أن وجود المكلّف بالدّين يتقدم عليه لأنه لولا وجود المكلّف لما عرفنا قيمة وأهمية التكاليف ، وبناءً عليه يكون ترتيب المقاصد كما يلي :

1- حفظ النفس :

تطلق النفس في اللغة على معان كثيرة لكننا سوف نقتصر على المعنى المتصل بموضوع البحث .

فالنَّفْس في كلام العرب تعني : الروح ومن ذلك قولهم: خَرَجَتْ نَفْس فلان ،أَي : رُوحُه ، وتعني العقل ـ باعتباره أهم قوى النفس كما يقول الفلاسفة ـ والشاهد على ذلك مأخوذ من قوله سبحانه : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }الزمر42 . فالنَّفْس الأُولى هي التي تزول بزوال الحياة ـ الروح عند الموت ـ والنَّفْس الثانية هي التي تزول بزوال العقل عند النوم .

والنفس :الدّم وذلك أنَّه إذا فُقِد الدّمُ من بَدَنِ الإنسان فَقَدَ نَفْسَه، والحائض تسمَّى النُّفَساءَ لخرُوج دَمِها والدليل هو قول السموأَل : تَسِيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا ولَيْسَتْ عَلى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ . وإنما سمي الدم نَفْساً لأَن النَّفْس تخرج بخروجه. النَّفْس فيه مَعْنى جُمْلَةِ الشيء وحقيقته تقول قتَل فلانٌ نَفْسَه وأَهلك نفسه ،أَي : أَوْقَتَ الإِهْلاك بذاته كلِّها وحقيقتِه والجمع من كل ذلك أَنْفُس ونُفُوس .

والنَّفْسُ يعبَّر بها عن الإنسان جميعه كقولهم عندي ثلاثة أَنْفُس ،أي : عندي ثلاثة من الأبناء ، وكقوله تعالى :{أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ }الزمر56 . (1) .

باختصار النفسُ هي جملة الإنسان روحاً ـ وهي من الريح بمعنى التنفس ـ وعقلاً وجسدا وهي التي تقود الجسد وتوجهه ، وهي الخالدة بعد موته إلى يوم القيامة ـ لأنها من روح الله ـ وهو من الطين وعائد إليه ، وهي التي يوجه إليها الخطاب يوم القيامة ، كما قال تعالى : {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي }الفجر27- 30.

وهي التي يعوّل عليها تغير الواقع في الدنيا ، كما قال تعالى:{ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ }الرعد11

وإذا كانت وجهة النظر الفقهية ترى أن الدين أهم من النفس ، فإن وجهة النظر القرآنية الإنسانية ترى أن النفس أهم من الدين لأنها تسبقه في الوجود ،وقتل النفس هو جريمة إبادة جماعية بحسب التوصيف القرآني ، كما قال تعالى :{ من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا } المائدة :32.

كما إن النفس محلً تعلق التشريعات فإليها يتوجَّه الدين وبها يُمارس ويُطبق ، فوجودها ضروري لوجود الدين وهي له بمثابة الوعاء الذي يحفظ الماء هي من تحمل الدين ولولا وجودها لما وجد الدين ، فالنفس ضرورية لوجود الدين والدين حاجي بالنسبة للنفس .

وبالنتيجة المنطقية والفقهية فإن الضروري مقدم شرعاَ وعقلاَ على ألحاجي والتحسيني والقاعدة الفقهية تقول : " لا يراعى تحسيني إذا كان في مراعاته إخلال بحاجي ولا يراعى حاجي ولا تحسيني إذا كان في مراعاة أحدهما إخلال بضروري " [2] .

و هناك قاعدة فقهيه ترى : أن حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان .

والله سبحانه وتعالى يقول : [أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا] {المائدة:32} ،

فإزهاق نفس واحدة هو في المحصلة النهائية اعتداء على الحياة الإنسانية برمتها وإحياؤها ـ بأي شكلٍ كان ـ هو إحياء للحياة ،إذ إن سلوك إحدى الوجهتين ـ قتلا أو إحياءً ـ هو بمثابة تشريع أو دعوة للاستمرار في ممارسة ذلك السلوك .

هذا يعني أن النفس عزيزة ومكرمة ومصانة عند الله سبحانه وتعالى لأن حاملها (الإنسان) مخلوق بيديً الله ومنفوخ فيه من روحه ،وبالتالي فإن قتل النفس ـ من غير وجه حق ـ أياً كانت يعتبر فساداً في الأرض وهو ضد الاستخلاف الذي خلق الله الإنسان من أجله ،ودية النفس عند الله تساوي نفوس الناس جميعاَ، لأن من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاَ ،من أجل ذلك يمكن القول أن النفس مقدمة في الترتيب على الدين .

والترتيب السابق الذي اقترحناه ـ حفظ النفس ثم العقل ثم الدين ثم النسل ثم المال ـ يتناسب مع التكريم الإلهي للإنسان بأصل خلقه ، فالإنسان مطالب بالمحافظة على نفسه وعلى نفوس الآخرين ،لأن النفس الإنسانية هبة الله للإنسان وليست ملكاَ له.

وقد شرع الله الزواج لإيجاد النفس وبقاء الجنس البشري من أجل التناسل والتكاثر وأمر بحماية النفس والمحافظة عليها بتناول كل ما يبقيها ويقويها من الطعام والشراب والدواء ، كل ذلك من أجل أن يضمن الله لعباده حق الحياة ـ هبته

إلى خلقه ـ وهو أول حق من حقوق الإنسان وأهمها على الإطلاق ، فبوجود الحياة تترتب للإنسان بقية الحقوق وبانتهائها تنتهي جميع الحقوق .

وعليه فقد حرم الله على الإنسان قتل نفسه وقتل الآخرين لأنه يسلبهم أهم حق وهبه الله لهم ـ حق الحياة ـ بل إن القاتل يسلب المقتول جميع الحقوق ، ولذلك كانت جريمة قتل النفس من أكبر الكبائر وتعادل قتل الناس جميعاً والفساد في الأرض بتعطيل استمرار الاستخلاف ـ كما أسلفنا ـ وجعل الله القصاص أصل الحياة وأساس استمرارها :{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {البقرة:179} ،ذلك أن القاتل إذا أدرك أنه إذا تعمّد قتل هبة الله للإنسان ، وإذا عرف أن النفس تساوي نفوس البشرية جمعاء- بمعنى أن القاتل يرتكب جريمة الإبادة الجماعية ـ أدرك أن حياته سوف تنقص في الدنيا لأنه انقص حياة المقتول وانه سوف يتعرض للمسائلة في الآخرة لأنه عطل سنة الاستخلاف في الأرض ، وأن مصيره إلى نار جهنم وبئس القرار كما قال تعالى : {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً }النساء93 .

فلو ركز الفقهاء على الآية 32 من المائدة التي تجرّم وتحرّم قتل النفس الإنسانية أياً كانت بغض النظر عن الجنس واللون والدين والعرق والوطن لانتفت كل الأعمال الإرهابية التي ارتكبها ولا يزال المتطرفون ـ نعني بهم ،أي: جماعة متطرفة في كل زمان ومكان تحت أي شعار وأي مسمى و أي هدف مزعوم ـ و تطال النفوس الآمنة البريئة التي أهدرت كرامتها لأسباب واهية ولجهل بعض الفقهاء والمفتين الذين جعلوا من فهمهم الناقص القاصر للدين ولبعض نصوصه ذريعة واهية لقتال من لا يقاتلون ولا يفتنون الناس في دينهم وسوف تسقط عن المسلمين تهمة الإرهاب التي ألصقتها بهم أعمال بعض المسلمين ـ بالبطاقة الشخصية فقط لأن أعمالهم تناقض الإسلام جملة وتفصيلاً ـ وتلقفها عنهم من أدركوا من الإسلام قشوره دون لبابه ومظهره دون جوهره .

ويجب أن يعرف أولئك النفر أن القتال في الإسلام شُرّع للدفاع عن النفس والعقيدة والوطن ، فالمسلم مأمور بقتال من يقاتله فقط، وفي حال اضطر المسلم للدفاع عن نفسه ودينه وماله وعرضه ،فإنه مأمور أن لا يتعدى بدفاعه عن نفسه إلى من لا يعتدون عليه ،كما قال سبحانه وتعالى : {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ }البقرة190.

وقد أمر الرسول الكريم ـ عليه وعلى آلة أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ في كل المعارك التي خاضها وأوصى أصحابه ـ وجميع المسلمين ـ بعدم قتل الشيخ والطفل والمرأة والجريح . بل يأمر سبحانه وتعالى المسلمين أن يتعاملوا مع المخالفين غير المعتدين بالمودة والإحسان ، وكما يقول تعالى : {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }الممتحنة8.

ويستنتج من ذلك أنه إذا كانت علّة القتال هي الكفر لما أمر الرسول بعدم قتل غير المقاتلين في الحديث الذي رواه أنس بن مالك أن رسول الله قال :" انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله ولا تقتلوا شيخاً فانياً ،ولا طفلاً ، ولا صغيراً ، ولا امرأه ، ولا تغلّوا "(وأخرجه أبو داوود ، كتاب) .

إن حق الحياة للناس جميعاَ دون استثناء هبة من الله تعالى ويعتبر المساس به تعدياَ على الواهب سبحانه وتعالى، ولذلك كفلت الشريعة الإسلامية ذلك الحق لكل إنسان ـ حتى الجنين في بطن أمه يجب المحافظة عليه وعلى أمه وحمايتهما ـ على الأفراد والجماعات والدول من أي اعتداء ، مع وجوب تأمين الوسائل اللازمة لضمان حق الحياة واستمرارها من توفير الغذاء والدواء والأمن .

ويلحق بحق الحياة والمحافظة عليها ، الحفاظ على الكرامة الإنسانية حتى بعد أن يموت الإنسان، فيكرم بالغسل والتكفين والصلاة عليه ودفنه واحترام قبره بعدم الجلوس عليه [3] .

وبخلاف ما يقوله بعض المرجفين والمشككين في شريعة الله بأن قتل القاتل فيه إزهاق للنفس لا يجوز ـ مقتدين بذلك بالقوانين الوضعية الغربية ـ نقول لهم : بأن القصاص حياة كما قال واهب الحياة ، وهو عقاب مناسب جدا لحجم الجريمة ، وهذا العقاب المناسب للجريمة شكلاً ومضموناً هو بخلاف ما كان سائداً في أروبا إبان ظهور الإسلام التي كانت تنفذ عقوبة الإعدام في الزاني والسارق والكاذب .

وعندما يتم الحفاظ على حياة الإنسان جسديا ونفسياَ بشكل ملائم ومناسب لكرامة الإنسان فإن ذلك يؤسس بشكل فعّال لإيجاد العقل المكلف بالأوامر الشرعية ، فالعقل السليم في الجسم السليم والله الذي عمل على إيجاد النفس وحمايتها وصون كرامتها في الحياة وبعد الموت جعل حق الحياة ووجودها أساس وجود العقل الذي يعتبر في الأساس قوة من قوى النفس تعقل بها الأشياء ، وهو من النفس بمثابة البصر بالنسبة للعين والسمع للأذن .

<u>2ـ حفظ العقل :</u>

العقل في اللغة يقصد به :الحِجْر والنُّهى ضِدُّ الحُمْق والجمع عُقولٌ ، يقال : رَجُل عاقِلٌ وهو الجامع لأَمره ورَأْيه ، مأْخوذ من عَقَلْتُ البَعيرَ إِذا جَمَعْتَ قوائمه وقيل العاقِلُ الذي يَحْبِس نفسه ويَرُدُّها عن هَواها أُخِذَ من قولهم قد اعْتُقِل لِسانُه إِذا حُبِسَ ومُنِع الكلامَ .

والعَقْل هو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل، قال الخليل: العَقل: نقيض الجهل، يقال عَقَل يعقِل عَقْلا، إذا عرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انزجَر عمّا كان يفعلُه، ويقال رجل عاقِلٌ وقوم عُقَلاء [4].

أما الفلاسفة فإنهم يطلقون لفظ العقل على عدة معانٍ منها :

1- الجوهر البسيط المدرك للأشياء بحقائقها .

2 - قوة النفس التي يحصل بها تصور المعاني ونسج القضايا والأقيسة .

3- مجموعة المبادئ القبلية المنظمة للمعرفة ، أو الملكة التي تحصل النفس من خلالها على علم مباشر بالحقائق المطلقة [5] .

ويعني العقل فيما يعنيه : الانتقال من وسيلة إلى هدف ، وحدّه أن ينتقل الإنسان من " معلوم إلى مجهول ومن شاهد إلى غائب ، ومن حاضر إلى مستقبل لم يحضر أمام البصر ، أو إلى ماضٍ ذهب وانقضى ولم يعد مرئياً مشهودا " [6] .

ولقد اعتبر أرسطو(384- 322ق.م) العقل آخر ملكات النفس الإنسانية - وأهمها على الإطلاق - وهو الهدف والغاية التي من أجلها نشأ الإنسان ، وهو يقصد ان استخدام العقل في التفكير والأحكام والبراهين هو ما يُشكّل ماهية الإنسان وبالتالي الغاية من وجوده ،من أجل ذلك عرّف أرسطو الإنسان : بأنه حيوان عاقل. والعقل - بما هو إدراك للأسباب - يعتبر حجر الزاوية في عملية المعرفة الإنسانية فأحكامه صادقة في كل زمان ومكان ومعاييره يتفق على صدقها جميع الناس بغض النظر عن اختلافاتهم الاثنية وانتماءاتهم الايديولوجية .

ولقد حصر الفلاسفة المتأخرون على أرسطو معاني العقل للدلالة على تلك القوة التأملية التي تتسع إلى أبعد حد يمكن أن تمتد إليه المعرفة الإنسانية ،فأعتبر جون لوك(1632- 1714م) أن العقل ملكة في الإنسان يتميز بها عن الحيوان ومن الواضح أنه يتخطاه بفضلها .

فالعقل هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر - كما قالت المعتزلة ومن بعدهم ديكارت - وهو الذي يجمع بين الناس على حين أن الحواس فردية قد تختلف من شخص لآخر، إذ إن الإحساس فردي فلا أرض مشتركة بيني وبين الآخرين وعلى هذا منذ البداية تنقطع الصلات ويفقد الوجود ، وكما يقول الفيلسوف اليوناني هيراقليطس (535 ق.م - 475 ق .م) إن النائم عالمه وحده هو عالم الإحساس أما المستيقظ فإن عالمه هو عالم العقل وهو الأرض المشتركة بين الجميع .

فالإنسان - كما قال الفلاسفة - لا يستمد إنسانيته من جسمه ولا من نفسه - التي تحرك الحياة في ذلك الجسم - وإنما يستمدُ إنسانيته من كونه عاقلاً ، فإذا ذهب عقله تسقط عنه التكاليف الشرعية والوضعية ويغدو لا فرق بينه وبين الحيوان ، وقد رأى أغلب الفلاسفة أن العقل وحده الذي يجعل من الإنسان إنساناً ، فالإنسان في رأيهم ليس هو الكل وإنما هو العقل وحده [7] .

والعقل هو مناط التكاليف الشرعية وشرطُ للالتزام بها ،فإذا كان الغرض من التكليف هو الامتثال بها من قِبل المكلّف ، فإن ذلك الامتثال لا يتحقق إلاّ بالقدرة على فهم خطاب التكليف ، وإدراك معناه ، فمن لا قدرة له على فهم خطاب التكليف

فلا تكليف عليه . والقدرة على الفهم لا تتحقق إلا بوجود العقل ، باعتباره أداة للفهم والإدراك ووسيلة للوصول إلى فهم ذلك الخطاب ،ولأجل ذلك يتفق العقلاء على أن شرط التكليف الوحيد أن يكون المكلف عاقلاً فاهماً لما عقّل من خطاب التكليف، وخطاب من لا عقل له ولا فهم محال كالجماد ، وبناءً عليه لا يكلف المجنون ولا الصبي لعدم وجود العقل باعتباره وسيلة فهم الخطاب وأداتها ، فإذا أنعدم شرط التكليف عن المجنون والصبي أنعدم تكليفهما [8] .

والعقل محل التكريم الإلهي وهو التقويم الحسن والأمانة التي حملها الإنسان وبه يختار ويفاضل بين الخير والشر ويتحمل مسؤولية اختياره عن قدرة واستطاعة دون ضغط أو إكراه ، من أجل أن يتمكن العقل من الوصول إلى الحقيقة الإيمانية المبنية على التفكير في مظاهر الكون وعلاماته الدالة على وجود الخالق الحكيم ،

فالعقل آلة الغرض منها معرفة الطريق المؤدي إلى الله تعالى ومعرفة كل ما يقرب إليه من أعمال البر والتقوى وعمله يرتبط بالتفكير والتدبر الموصل للحقيقة ،حقيقة الخالق وحقيقة المخلوق والعلاقة المثالية التي يجب أن تكون بينهما ،فالله بعث الرسل لتكون حجة على العالمين، كما قال تعالى: { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}{النساء:165} وبعث معهم آيات ودلائل يعرفها العقل الفطري السليم من المؤثرات الخارجية ، ويعتبر العقل حجة ثانية على الإنسان ، فمن خلالها أودع الله في الناس العهد الإلهي بعبادته وهم لا يزالون في ظهور آبائهم ، كما قال تعالى :{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}{الأعراف:172} .

وقد أكد سبحانه وتعالى على ذلك العهد بقوله: { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} {يس:60}

من أجل ذلك اعتبر العقل مناط التكليف ،لأن العهد الإلهي الأول موجود فيه مع النفخة الإلهية وما جاءت به الرسل مطابق لما في العقل لأنهما من مصدر واحد ،

فليس في الشريعة الاسلامية تكليف اعتقادي أو عملي يتنافى مع العقل أو لا يستطيع جمهور المكلّفين تعقله ، وهذا ما أشار اليه الشاعر المتصوف البوصيري (696هـ) في قصيدته نهج البردة التي مدح فيها الرسول بقوله :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ..... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهمِ .

فالعقل رسول في الباطن ، والشرع عقل في الظاهر ، فكل ما حكم به العقل السليم حكم به الشرع الصحيح وكما قال الغزّالي (505هـ) " اعلم أن العقل لن يهتدي إلاّ بالشرع والشرع لم يتبين إلاّ بالعقل . فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر مالم يكن شعاع من خارج ولن يغني شعاع ما لم يكن بصر. والعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده ، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم

يكن سراج لم يضيء الزيت. فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان "[9] .

والعقل شرّع لوجوده وجود النفس والجسد الذي يحملها وشرّع الدين لحفظه والاهتمام بكل ما يمكّنه من القيام بواجبه على الوجه السليم وتحريم كل ما يؤدي إلى تعطيله ومنعه من القيام بالوظيفة المناطة به، فحرّم الشرع شرب الخمر وشرب كل مسكر- قلّ أو كثر - والمخدرات بأنواعها المختلفة ،لأنها تعطل العقل - سر إنسانية الإنسان - وتمسح ما فيه من العهد الإلهي، وتذهب قدرته على الفهم، وبالتالي فلا يستطيع الإنسان القيام بالتكاليف الشرعية بالشكل المطلوب منه .

وحرم الشرّع الإكراه باعتباره تعطيلاً لعمل العقل ولوظيفته ومعاكساً لدوره في الحياة ، وهو التفكير المرتبط بالحرية، فلا تفكير بدون حرية ، ولا حرية من دون تفكير ، فالإكراه يُصيب العقل بالعمى وتنعدم معه الرؤية الحقيقة للواقع بما فيه وبمن فيه ، وكما قال الجاحظ (160- 255هـ) : العقل إذا أكره عمى [10].

لقد ربط المعتزلة بين الحرية وبين التكليف الإلهي ربطاً منطقياً معتبرين أن الحرية هي المقدمة الضرورية للتكليف والتكليف نتيجة منطقية لازمة لوجود الحرية ، ذلك لأنهم اعتبروا أن حرية الاختيار هي جوهر الإنسان العاقل المفكر المكَلف وبدون تلك الحرية لا يصح تكليفه ولا يعود هناك فرق بين خطاب الإنسان العاقل وبين الجماد ولا فصل بين أمر التسخير وبين أمر التكليف والطلب فمعيار إنسانية الكائن الإنساني هي الحرية العقلانية لأنه متى ذهب التخيير ذهب معه التمييز [11].

وأكد الشرع أن حماية العقل أمر واجب وحق من حقوق الإنسان ،لأن حمايته فيها حماية للدين والنفس واستقرار للفرد والمجتمع على السواء، لأنه أساس كل فعل تتعلق بها المصالح التي جاء الشرع لجلبها ، وكما قال الشوكاني :"إن العقل أمر واجب وحق من حقوق الضروريات الداعية إلى الاهتمام بالمحافظة عليه مما يؤدي إلى استقرار الدين والنفس على حد سواء ،لأن العقل هو قوام كل فعل تتعلق به مصلحة ،فاختلاله يفضي إلى مفاسد عظيمة " [12] .

وهناك تلازم واضح وصريح بين الدين وبين العقل ، فالعقل نعمة كبرى ميّز الله تعالى بها الإنسان على سائر مخلوقاته ، والدين كذلك رسالة هدي إلهي أنعم الله به على الإنسان العاقل ، فمصدر العقل والدين واحد هو الله سبحانه وتعالى ، وهما متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وإذا وجد بعض الناس تناقضا وانفصالاً بين الدين والعقل - في أي زمان ومكان - فيجب على عقلائهم تدقيق النظر ليكتشفوا نقطة غموض واشتباه فيما اعتبروه ديناً أو عقلاً ، فالدين الصحيح لا يتناقض ولا يتصادم مع العقل السليم ، لأنهما خرجا من منبع واحد ، والعلاقة بينهما علاقة تكامل ودعم متبادل ، بحيث يرشد العقل الناس الى الدين الصحيح ، ويوجه الدين الناس لاستخدام عقولهم في الوصول الى الحقيقة [13] .

ومن المفاسد المترتبة على فساد العقل وتعطيله سقوط التكاليف الشرعية عن الصبي والمجنون باعتبارهما عديمي أهلية الأداء ،وهي المسؤولية المنبنية في الإنسان على العقل والتمييز ، وإذ عملت الشريعة على حفظ النفس وحفظ العقل فذلك لأنها تؤسس لحفظ حرية التدّين .

3- حفظ حرية التّدين :

بناء على المنهج الإنساني الذي التزمت به ، فقد آثرت تسمية الحفاظ على حرية التّدين بدلاً عن حفظ الدين ، مهتدياً بالإسلام القرآني ومبتعدا عن الإسلام الفقهي الذي يجعل حفظ الدين سبباً لإزهاق النفس في حال الارتداد عنه.

وذلك لأن حرية التدّين والاعتقاد يشكّل متناً هاماً من رسالة الإسلام القرآني ، من خلال الآيات الكثيرة التي بينّت أن دور الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ هو البلاغ المبين الواضح الذي لا لبس فيه والتذكير للناس بالتي هي أحسن دون الإكراه ، فقد طلب الله تعالى من عباده الطاعة له ولرسوله ، لكنه أراد أن يُعلمهم أن مهمة الرسول هي البلاغ المبين وليس إجبارهم على الطاعة ، كما يقول تعالى : {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }المائدة92. وهذا ما أكده القرآن على لسان رسول الله بقوله :{وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }يس17 ، حتى وإن كُذّب فليس على الرسول سوى البلاغ :{وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }العنكبوت18 ، ويتساءل القرآن هل هناك من وظيفة أخرى للرسل سوى البلاغ الواضح كما يقول تعالى :{ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }النحل35

وبعد أن يؤدي الرسول البلاغ المبين فإن استجابة الفرد والمجتمع لصالحهم ، ولا تنفع الله ولا رسوله كما يقول تعالى : { فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }آل عمران20

وإن لم يستجيبوا ويسلموا فمهمة الرسول هي البلاغ وحسابهم على الله كما يقول تعالى : {وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ }الرعد40

وبعد البلاغ يأتي التذكير الذي قد ينفع كما يقول تعالى : {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 ، وإذا لم ينفع التذكير فليست لك سلطة عليهم {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }الغاشية22 .

وليس للرسول أن يجبر أحداً على الإيمان بالقوة ـ لأن الإجبار ضد الإيمان ونقيضه في آن ـ بل عليه أن يذكر الناس بالقرآن ومن خلاله فقط ،كما يقول تعالى : { وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45

فليست من مهمة الرسول هداية الناس ، لأن الهداية تدخل ضمن المشيئة الإلهية {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }البقرة272

حتى ولو حرص الرسول على هداية قومه كما قال تعالى : {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ }النحل37

و حرص على هداية من يحب لهم الهداية ، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي من يعلم بعلمه الازلي أنه سوف يهتدي ، وكما يقول تعالى : {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }القصص56
وبعد البلاغ المبين والتذكير كان لا بد من بناء قاعدة صلبة تكون أساساً لحرية الاعتقاد في الإسلام القرآني مبنيّة على قاعدتين ، القاعدة الأولى ترتكز على قوله تعالى : {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }البقرة256 . فالطريق بيّن واضح لمن أراد الهدى والهداية ، أما من يُريد الغواية والضلال فهذا شأنه ، فالرشد والرشاد هو الإسلام العام ـ دين العقل والفطرة السليمة ـ وكل ما عداه غَي بمعنى إنه لا عقل ولا فطرة سليمة تقر به.
والمنطق العقلي يقول إنك إذا حذرت فرداً أو جماعة من عبور طريق يمكن أن تودي بحياتهم إلى الهلاك حال عبورها وأرشدتهم إلى الطريق الآمن فليس عليك إكراههم بالقوة لعبور الطريق الآمن دون الطريق الخطر .
والقاعدة الثانية قائمة على قوله تعالى : {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً }الكهف29 .

فالحق الواضح هو الإسلام العام ـ ويُعرف بالفطرة السليمة ـ العقل ـ التي لم تغيرها الأسرة والمجتمع باعتباره الدين القيم الحنيف ،وكما يقول تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {الرُّوم:30}.

وهذا ما قصده الرسول الكريم بقوله:" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (متفق عليه).

فالدين القيّم هو الإسلام العام باعتباره الدين الذي دعا اليه جميع الانبياء والرسل{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ} {آل عمران:19} .

وليس الاسلام الفقهي الذي يُقصي الآخر المخالف ، فالإسلام القرآني يتفق مع مقاصد الشريعة الإلهية التي تعني جميع الناس دون استثناء ـ باعتبارها من الله رب العالمين ـ وذلك لأن المقاصد الكلية " لا تعد كذلك إذا لم ترد بها رسالات الأنبياء كافة ، ذلك لأنها تعبير عن وحدة الدين ووحدة العقيدة ووحدة المقاصد والغايات في جميع الرسالات "[14] .

وهو الذي يعني الخضوع والاستسلام لله سبحانه وتعالى فقط والتسليم له في جميع أمور الحياة، أي : أن " يتحرك الفرد بدوافع إلهية بدل الدوافع الأنانية والمصالح الشخصية ، والدوافع الإلهية هي عين الدوافع الإنسانية المنطلقة من الوجدان ،وهذا المعنى يؤكد لنا أن الله كامن في قلب كل إنسان " [15] .

فالله سبحانه وتعالى هو السلام ودينه الحق هو الدعوة إلى السلام والمسالمة بين جميع الناس ، يمكن أن نفهم ذلك من قوله تعالى : {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64.

وتعني الآية ـ بناءً على المنهج الانساني الذي نتبناه ـ إن أهل الكتاب إذا تولوا عمّا دعاهم إليه الرسول ، فإن الرسول يشهدهم بأنه وقومه مسالمون ، لا يمكن أن يكرهوا احداً على تغيير دينه ومعتقده ، ولا يمكن أن يفرضوا دينهم بالقوة ، لأن منطق القوة يتنافى بالمطلق مع منطق السلام والمسالمة التي يدعو إليها الإسلام ، اشهدوا بانّا مسلمون ، أي : لكم دينكم ولنّا ديننا كما يقول تعالى على لسان نبيه : {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }الكافرون6

بناء على ما سبق فمن المنطقي أن الإسلام جاء لترسيخ مبدأ حرية التّدين ،ومنع الإكراه على اتباع الحق ،وذلك أن الإكراه ـ حتى على اتباع الحق ـ هو عمل لا ديني ولا أخلاقي في نفس الوقت، إنه ضد العقل وضد الدين ،لأنه يسلب الإنسان أهم ميزة فُضّل بها عن باقي الكائنات وهي حرية الاختيار التي تؤسس لمسؤولية الإنسان عن أعماله وخياراته القائمة على أساس إعمال العقل والفكر المناط باتباع التكاليف الشرعية ، وهذا يتوافق مع قوله تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} {يونس: 100/99} ،

هنا تتضح الصورة أكثر ، فلو أراد الله أن يجبر الناس على الإيمان لفعل، لكنه أراد من الإنسان ـ وهو الخليفة في الأرض الذي تحمل أمانة العقل ـ أن يفكر وأن يستخدم عقله فقط وهو من سيأخذ بيده إلى الإيمان بالله بعد معرفته، ولذلك شنع الله على من لا يستخدمون عقولهم ووصفهم بقوله :(وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ]، فالرِّجْسُ في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، ويقال : رَجُسَ الرجل رَجَساً ورَجِسَ يَرْجَسُ إذا عَمِلَ عملاً قبيحاً والرَّجْسُ بالفتح شدة الصوت فكأَنَّ الرِّجْسَ العمل الذي يقبح ذكره ويرتفع في القبح [16] .

فبالغ اللَّه تعالى في ذم من لا يستخدم عقله في الوصول إلى الإيمان وسماه رِجْساً ، وبالغ سبحانه وتعالى في ذم من لا يؤمنون لأنهم لم يستخدموا عقولهم في الوصول إلى الإيمان ،كما قال تعالى : { كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }الأنعام125

3- 1- حرية التدّين وخاتميه الرسالات السماوية :

وكان لا بد أن تكون رسالة النبيّ محمد ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ الرسالة الخاتمة لجميع الرسالات وذلك لعدة اعتبارات من أهمها :

1- أنه جاء يدعو إلى الإسلام ، بمعنى : الاستسلام والخضوع لله سبحانه وتعالى فقط ، وهو بذلك يدعو إلى الحرية من عبادة الناس وخضوعهم لبعضهم البعض إلى عبادة خالقهم فقط ويؤسس كذلك لحرية الاعتقاد دون إكراه لأحد على اعتناقه أو التخلي عن دينه ، ويبيح كذلك - باعتبارها داخلة ضمن حرية الاعتقاد - حرية الكفر والإلحاد ما دام الكافر والملحد يسالم المسلمين ولا يتعدى على حقوقهم وحرياتهم ، وضمن كذلك حرية التعبير للمخالف يصرح بها كما يشاء حتى لو صرح بخلاف ما نعتقد ، نفهم ذلك من قوله تعالى على لسان فرعون : {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ }الزخرف52.

كل ذلك يعني ضمن ما يعنيه " أن حرية العقيدة في القرآن أحيطت بسائر الضمانات القرآنية التي جعلت منها حرية مطلقة لا تحدها حدود ما دامت في اطار حرية اختيار المعتقد وأن الحساب عليها خاص بالله - جلّ شأنه - لا يجاوزه الى سواه " [17] .

وذلك لأن الإكراه يتنافى مع كرامة الإنسان وحريته - هما شيء واحد ولا وجود لأحدهما دون وجود الأخرى - فهو قد أبرز الكرامة الإنسانية كقيمة بحد ذاتها {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } وجعلها شاملة للناس جميعاً بأصل الخلق ، ولقد جاء الإسلام للدعوة للحرية والتأكيد على حرية الإنسان ومسئوليته عما اختار، لأن ذلك يتناسب مع كون الله - سبحانه وتعالى - هو العدل كما أخبر عن نفسه .

ولقد تفنن المعتزلة وأبدعوا في تصوير حرية الإنسان وربطها بالعدل الإلهي ، وبناء على تصورهم للعدل الإلهي يقولون : إن الإنسان إذا لم يكن مختاراً فيما يفعل سقطت مسئوليته عن أفعاله - خيرها وشرها - وبسقوط المسئولية يعتبر الثواب باطلاً والعقاب ظُلماً والباطل والظلم كلأهما شرُ يستحيل أن يصدرا عن الله سبحانه وتعالى لأنه عدل محض . فالعدل الإلهي عندهم له وضعٌ خاص يقوم على معادلة عقلية منسقه منطقياً على قاعدتين : قاعدة أن الشر لا يصدر عن الله ،وقاعدة ان الثواب والعقاب على فعلٍ لا اختيار فيه هما شر ، لكن القاعدة الكبرى و الأساس التي كانت المنطلق الواقعي غير المنظور لتصّور مفهوم العدل لديهم هي قضية حرية الإنسان في اختيار أفعاله [18] .

2- أن الرسالة الخاتمة دعت إلى الإسلام العام دين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من لدن نوح الى خاتم الانبياء والرسل ، والاسلام العام - كما أسلفنا وقدمنا الأدلة القرآنية على ذلك في الفصل الثاني - يشترط : الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وهو دين إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء الذين لا زالت دياناتهم المعروفة حتى الآن ،كما يقول تعالى:{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {آل عمران:67} ،أي : أن الرسالة الخاتمة تستوعب جميع الأديان والرسالات السماوية السابقة والموجودة حالياً وتتعايش معها على أساس الكرامة الإنسانية ومبدأ حرية العقيدة القرآني .

3 ـ ورسالة الإسلام الخاتم هي رسالة عالمية {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }الأنبياء107، تستوعب جميع الأجناس والأعراق واللغات والأوطان وأصحاب الديانات وتستوعب كذلك من لا دين لهم ـ لأنها دين الإنسانية ـ وقد جاءت تدعو الجميع الى السلام والرحمة والمحبة ، فالمسلم الحقيقي هو المسالم الذي يسلم الناس من لسانه ويده ،وكما قال الرسول الخاتم : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" (صحيح البخاري و النسائي وأبو داود) .

والمؤمن الحقيقي هو الذي يؤمّن الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ،كما قال رسول السلام والإسلام : " المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم " (صحيح أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم) .

والرسالة الخاتمة تدعو إلى إشاعة المحبة والأخوة في الإنسانية والنظر إلى الآخر المخالف بنفس النظرة التي ترى به الذات عينها كشرط للإيمان ،كما قال الرسول : " أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً" ((صحيح البيهقي) .

ولفظ الناس هنا ، لفظ عام تشمل الجميع دون استثناء وبصرف النظر عن الدين والطائفة والمذهب والعرق واللون واللغة .

واعتبرت الرسالة الخاتمة أن السلم ـ والسلام والمسالمة ـ هو شرط للتعايش الآمن الذي يدخل ضمن مفهوم الأيمان الذي يمنح الجميع الأمان والاستقرار والطمأنينة، كما يقول تعالى :{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً }النساء94 .

4ـ الرسالة الخاتمة هي ديانة الكرامة الإنسانية ، كما هي ديانة التوحيد ،وذلك لأن نصوص القرآن قد رسخت مبدأين أو دعامتين لدين الإسلام العام وللعيش في الارض هما : القداسة لله والكرامة للإنسان ، فمن يقدّس الله ويوحده ولا يشرك به أحداً فهو يكرّم الإنسان ، ومن يكرّم المخلوق فهو ينزّه الخالق ويعبده حق عبادته ، فالتكريم للناس موصول من الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوم أن نفخ فيهم من روحه " أن الانسان بدأ نفخة من روح الله فالحفاظ على هذا النسب الشريف والإبقاء على هذه الصلة الرفيعة هما سر القوانين التي تضبط سلوك الإنسان وتعصمه عن الدنايا وتلزمه التقوى وترشحه آخر الأمر لجنة عرضها السموات والأرض "[19] .

ومن التكريم كذلك أن قيمة النفس الانسانية تساوي جميع النفوس الإنسانية في الكون ـ موتا وحياةً ـ كما يقول تعالى : {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً }المائدة32 .

ومن أجل ذلك نقول : كان لا بد أن يكون الإسلام القرآني للعالم أجمع وخاتمة الرسالات السماوية لأن نصوصه تستوعب الواقع المتغير في كل زمان ومكان .

5- أن الرسالة الخاتمة هي الوحيدة التي أعلت من شأن العقل وأعطته المكانة التي هيأ لها من قبل خالقه ، وجعلت من العقل الإنساني والنص القرآني وجهين لعملة واحدة هي تلك الرسالة الخاتمة ،وتلك الملاحظة أوردها محمد إقبال في كتابه (التجديد في الفكر الإسلامي) وفيها يرى أن رسالة النبي محمد جاءت تدعو إلى تحكيم العقل في ما يعرض للناس من مشكلات وما دمت قد ركنت للعقل فلم تعد بحاجه إلى هداية سوى ما يمليه عليك من أحكام ،أليس العقل كما يقول الجاحظ وكيل الله عند الإنسان ،والوكيل له أن يتصرف عمن وكلّه بما لا يتناقض مع شروط الوكالة [20] .

إن خاتمية الرسالة المحمدية هي نتيجة منطقية لتكامل العقل والدين " وبذلك انتهت التجربة الدينية للإنسان إلى غاية سعيدة هي تآلف العقل والدين وتزاوجهما في اكتشاف أوامر الله وأحكامه وسننه في خلقه { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا} {المائدة:3}) [21].

<u>الجهاد وحماية حق التّدين :</u>

لقد عملت الشريعة على حماية حق التّدين وتقرير حرية الاعتقاد بما يمثل حماية للدين، ولقد شُرع الجهاد في الإسلام حماية لحرية الإنسان في الاعتقاد وحقه في التّدين المرتبط بالتفكير العقلي والقناعة الشخصية المبنية على أسس الفطرة السليمة والحيلولة دون إكراه الناس وإجبارهم وفتنتهم عن دينهم الذي ارتضوه بمحض إرادتهم ،لأن العقيدة السليمة تُبنى على القناعة الفكرية بعيداً عن الضغط والإكراه والإجبار، فإذا كان حفظ النفس ضرورة يجب تقديمها ومراعاتها وعدم الإخلال بها إلا أن الشارع الحكيم يقول - وقوله الحق - { وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ}

" فجريمة القتل على فظاعتها ومخاطرها تبقى دون جريمة الإجبار والإكراه ، والمعروف أن الله شرع الجهاد على الرغم مما يقع فيه من القتل لحماية اختيار الناس والحيلولة دون إكراههم أو إجبارهم أو فتنتهم فقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ }البقرة193وفي لك إلغاء لتأله البشر "[22].

لأن إكراه الناس وإجبارهم على اعتقاد ما يكرهون هو قتل معنوي مستمر لإنسانيتهم - بخلاف القتل المادي الذي يرتاح بعده الإنسان مباشرة - لأن الإكراه يقتل العقل ويحرمه من أهم عمل خلق من أجله وهو حرية الاختيار التي تفرّق الناس عن باقي المخلوقات وتفضله عليهم وعليه شرع الإسلام قتال من يحاول أن يفتن الناس عن دينهم ،على اعتبار أنه يجوز الإخلال بضروري - قتل النفس - مراعاة لضروري أهم منه - الإكراه - [23].

ولذلك كانت الحرية هي أساس الإنسانية وبدونها يصبح الإنسان شيئاً من ضمن الأشياء الموجودة مثل النبات والحيوان، وبناء على ما سبق يكون الحفاظ على حرية التّدين أولى من الحفاظ على الدين ، لأن الحفاظ على الدين من قبل من

يدعون ذلك فيه انتهاك لمبدأ قرآني هام ـ يعادل مبدأ التوحيد ـ وهو حرية الاعتقاد ،فالحق واضح كما يقول الحق تعالى : {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ }الكهف29 ومن الطبيعي والمنطقي والديني أنه : {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }البقرة256.

فحرية التدّين باعتبارها مبدأ قرآنياً تكفل حرية الارتداد لأن البقاء في الدين خوف القتل يدخل ضمن الإكراه ، والإكراه على الإيمان يخلق انساناً منافقا ولا يخلق مؤمنا صادقا ، فالإكراه مثل الخمر مضارة اكثر من منافعه .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى لا ينفعه إيمان المؤمن ولا تضره معصية العاصِ وكفره فهو الوحيد الذي يحاسب على الردة يوم القيامة كما نصت على ذلك العديد من الآيات منها : { وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }البقرة217

وكما قال تعالى كذلك : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً }النساء137 . ويقول أيضا :

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ }المنافقون3

فالله سبحانه سوف يأتي بدلاً عن المرتدين بمؤمنين يحبون الله ويخلصون لإيمانهم فيحبهم الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }المائدة54 . فإذا كانت القوانين الوضعية لا تحاسب المجرم على ذنب اقترفه مرتين ، فإن الله سبحانه وتعالى ـ كونه العدل ـ لا يرضى أن يحاسب المرتد في الدنيا والآخرة بناء على القاعدة الأصولية القائلة أن الحدود مكفرات للذنوب ، فإذا نُفذ حُكم الردة وقتل المرتد فذلك يعني أن ذنب الارتداد مغفور له بناء على القاعدة الأصولية والإسلام الفقهي ، لكن القرآن يقول إن المرتد لن يغفر الله له لأنه فضل الغيّ على الرشد والباطل على الحق ، وبذلك يتناقض حد الردة الفقهي مع حرية الاعتقاد الواردة في القرآن ـ والنقيضان لا يجتمعان كما يقول المناطقة ـ مع ملاحظة أن كلمة حد أو حدود لا تعني العقوبة في القرآن ، فقد وردت تلك المفردة في أربع عشرة آية ، اثنتان منها بمعنى : شرع الله وأوامره في الصيام والفطر (البقرة: 183) ،ووردت تسع مرات في تشريعات الله في النكاح والطلاق وأحكامهما(البقرة : 229- 230) ، ووردت مرتين في تشريعات الميراث (النساء : 13- 14) ،وجاءت في آية كفارة الظهار مرة واحدة (المجادلة :4) ، فجميع الآيات التي وردت فيها كلمة حدود لم تطلق في أي منها على معنى العقوبة ـ لا مقدرة ولا تعزيرية ـ وانما جاءت بمعنى التأكيد على تشريعات الله وأحكامه ،او تعقيبا على أحكام وتشريعات إلهية قد يتهاون الناس في الالتزام بها [24] . ويؤكد القرآن كذلك أن عقوبة قتل النفس ، لا تكون الأ لمن قتل نفساً ،كما

أخبر عن ذلك سبحانه وتعالى بقوله : {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ }المائدة32

لأن الشرع الإلهي ـ لأنه كذلك ـ فهو قائم على أساس أن العقاب يكون من جنس العمل ،كما قال تعالى : {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ }النحل126.

وهذا قمة العدل والإنصاف ، ويتماشى مع جوهر جميع الرسالات السماوية التي جاءت لإقامة العدل، والزيادة في العقوبة بما لا يتوازى مع الجرم يعتبر إسرافاً أخبرت عنه نهاية الآية 32من المائدة .

وبعد أن وجدت النفس والعقل وحرية التّدين وحفظت من قبل الشارع باعتبارها من ضرورات الحياة، عملت الشريعة على الاهتمام بالنسل باعتباره من مقومات الحياة ، وفرع عن وجود النفس وطريقة من طرق المحافظة عليها لبقاء النوع الإنساني.

4ـ حفظ النسل :

شرع الإسلام الزواج لإيجاد النفوس ، وللحفاظ على النسل من الأمراض الوراثية والأخلاقية، أوصى بضرورة اختيار الزوجة الصالحة ـ ذات المنبت الحسن ـ من أجل أن يأتي النسل على أساس متين : مادياً بخلوه من الأمراض والعيوب الوراثية فيكون النسل قوياً مقاوماً للأمراض والأوبئة التي يمكن أن تؤثر فيه مستقبلاً ـ جسدياً أو عقلياً ـ أو تعمل على إضعافه وهلاكه، ومعنويا من خلال المحافظة على الفطرة السليمة التي يساهم الآباء في المحافظ عليها أو تشويهها واشترط الإسلام في الزوجة : الدين والخلق والأصل الكريم، كي يأتي النسل ثماراً يانعة في المستقبل دينا وخلقاً باعتبار الأم هي المدرسة الحقيقية التي تربي وتخرج الأجيال، ذوي العقول الراجحة والاتزان النفسي المطلوب.

وشرّع الإسلام للحفاظ على النسل ـ خاليا من الأمراض المنتقلة عن الاتصال الجنسي غير المشروع وسليماً من الاختلاط ـ عقوبة الزنا لأنه ضد الفطرة السليمة ويعمل على هدم كيان الأسرة والمجتمع ماديا ومعنوياً، لأن فيه هتكاً للأعراض واختلاطاً للأنساب تضيع معه الحقوق وتعطى لمن لا يستحق ، وكما يقول تعالى : {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ }النور2 .

فعقوبة الزنا الغرض منها حفظ الأعراض من الانتهاك ـ بعض علماء الأصول يجعل حفظ العرض المقصد السادس للشريعة ـ لأن العرض ـ أو الشرف ـ يرتبط بإنسانية الإنسان مدحاً أو ذماً ، فالحيوانات لا عرض لها كي تحميه أو تدافع عنه

وشرّع الإسلام كذلك للحفاظ على النسل عقوبة القذف ،واتهام الناس في أعراضهم دون وجود الدليل ،فعقوبة الزنا شرّعت للحفاظ المادي على النسل ،وعقوبة القذف شرّعت للحفاظ المعنوي على العرض والشرف، لأن المقذوف عموما تلوث سمعته وتقل رغبة الناس بالارتباط به للزواج والمصاهرة ، وتعطل شريعة الله في الحفاظ على النسل، من أجل ذلك شدد الشارع على إقامة عقوبة القذف ، كما قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ} {النور:4} . وانفرد الإسلام بإقامة هذه العقوبة عن جميع الأعراف والشرائع ـ قديماً وحديثا ـ من أجل المحافظة على عرض الإنسان وكرامته باعتبارها حقاً من حقوق الإنسان الأساسية.

و بعد أن حفظ الشرع للإنسان نفسه وعقله ودينه ونسله ـ وهي ضرورات الحياة ـ عمل على إيجاد وسائل للارتقاء بإنسانية الإنسان وتسهيل سبل العيش الكريم التي تضمن له السعادة في الدارين، فكان لا بد من أن يكون المال وسيلة من الوسائل المؤدية إلى توفير سبل العيش الكريم من أجل ذلك كان وجوده يمثل مصلحة ضرورية للإنسان حث الشرع على السعي لتحصيله والمحافظة عليه.

<u>5ـ حفظ المال :</u>

شرّع الإسلام لإيجاد المال كل الطرق التي تودي لاكتسابه وإنفاقه بالحلال ومنها : الترغيب في السعي و الحركة للحصول على فرصة العمل المناسب للإنسان على قدر طاقاته واستعداداته سواء كان العمل بدنيا أو فكرياَ، كما قال تعالى : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ }الجمعة10.

وشرّع الإسلام جميع المعاملات والمبادلات التجارية من البيع والشراء ماعدا كل ما يرتبط بالربا من قريب أو من بعيد، باعتباره ربحاً غير مشروع ،لأن فيه إضراراً بالآخرين { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا }البقرة275

وكفل الإسلام حق التملك ـ باعتباره حقاً من حقوق الإنسان الرئيسية ـ وشرّع عقوبات لحفظ المال وحمايته يجب على الآخرين احترامها وعدم تجاوزها و منها: تحريم السرقة وقطع يد السارق الذي جعل من السرقة وظيفة غير شريفة يتكسب منها على حساب مال الآخرين وجهدهم كما قال تعالى : {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }المائدة38.

و حرّم الحرابة وجرمّها بعقوبة رادعة في الدنيا والآخرة ، لأن فيها اعتداء على النفس والمال والعرض ولذلك شدّد لها الله العقوبة وجعلها رادعة ومانعة في

نفس الوقت كما قال تعالى : {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }المائدة33.

وحرم الإسلام أكل أموال الناس بالباطل وإتلاف مال الغير، قال تعالى : {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة188 .

وشرع الحجر على من يتلف ماله ويعبث به ،كالسفيه وذي الغفلة والمعتوه والمبذر ، كما قال تعالى : {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }النساء5

ومن وسائل حفظ المال التي ابتكرها الإسلام الزكاة ، فهي وسيلة من وسائل حفظ المال واستثماره وتداوله بين أكبر عدد ممكن من الناس وهي حق للفقراء وواجب على الأغنياء تؤخذ جبراً في حال منعها وهي تأكيد لحقوق الأغلبية من الناس ـ الفقراء ـ في حياة كريمة بعيداً عن ذل المسألة ، وجعل المؤمن الذي يؤدي الزكاة ويعترف بها كحقٍ من حقوق الفقراء في منزلة المحسن وهي درجة تفوق درجة التقوى .

يتضح مما سبق أن امتلاك المال والحفاظ عليه حق من حقوق الإنسان أكده الإسلام وحرص على أن يكون المال وسيلة لتسهيل سبل العيش الكريم وليس غاية بحد ذاته ، فمهمة المال في الإسلام "مهمة حسيَّة وهي تسديد حاجات البدن ، وروحية بالإنفاق استعداداً لليوم الآخر واجتماعية بتفريج كرب المجتمعات وتحقيق مصالح الجماهير " [25] .

وتلك ميزة انفرد بها الإسلام دوناً عن جميع الشرائع الوضعية .

وهكذا تبّين لنا من خلال استقرائنا السابق لمقاصد الشريعة ـ أن الإنسان هو المحور الذي تدور حوله تلك المقاصد فقد وجدت له وبه ومن أجله ، كي تجلب له المصالح وتدرأ عنه المضار ، وتضمن له العيش الكريم والسعادة المؤقتة في الدنيا والسعادة الدائمة في الآخرة .

<u>ملاحظات على مقاصد الشريعة :</u>

وهناك ملاحظات توصلنا لها من خلال استقراء مقاصد الشريعة يمكن إجمالها كالتالي :

الملاحظة المباشرة هي أن الأصول الخمسة التي تكفلت الشريعة الغراء بحفظها تتعلق أساسا بإنسانية الإنسان ـ القائمة على أساس الخلق المشترك العبودية لله والبنّوة لآدم ـ وبكرامته و باستخلافه على الأرض وهي تميز الإنسان عن جميع

المخلوقات ، وتحقق المقصود بالتكريم الإلهي للإنسان بصرف النظر عن الجنس واللون والعرق والدين والوطن لأنها أشياء قشرية لا دخل للإنسان في اختيارها.

وبحسب ترتيب الأصول الخمسة فإن الإنسان يتميز بأن نفسه مكرمة مصانة لأنها تحمل في طياتها سر النفخة الإلهية وهي سر تميّزه وتفضيله على جميع الكائنات، وهذا يكفي ويزيد ليكون الإنسان كذلك .

ويتمّيز الإنسان بالعقل مناط التكليف وسر التقويم الحسن وهو الأمانة التي حملها كي يكون خليفة الله في الأرض، ويتمّيز الإنسان كذلك بأنه متدين بالفطرة السليمة التي أودعها الله فيه مع النفخة الإلهية وتدينه يجب أن يكون نابعاً عن قناعة فكرية راسخة دون ضغط أو إكراه، والمحافظة على النسل خاصة تهم الإنسان فقط ويدخل معها العرض وحمايته مادياً ومعنوياً والمال وسيلة الإنسان للوصول إلى حياة تليق بإنسانيته في كل زمانٍ ومكان .

الملاحظة الثانية :إن الأصول الخمسة ـ وهي ضرورات الحياة ـ إلا أن ترتيبها وفقاً للضروري والتحسيني والحاجي ينبغي أن يكون على النحو التالي :

الأصل الأول يعتبر ضروري ، والأصل الثاني تحسيني لما قبله وضروري لما بعده ،والأصل الثالث حاجي للأصل الأول وتحسيني للثاني وضروري لما بعده وهكذا حتى تصل إلى الأصل الخامس ، مع مراعاة القاعدة الأصولية القائلة:

إنه لا يراعى تحسيني إذا كان في مراعاته إخلال بحاجي ولا يراعى حاجي ولا تحسيني إذا كان في مراعاتهما إخلال بضروري .

الملاحظة الثالثة تتصل بالملاحظة الثانية وهي أن الأصل الأول هو أساس لبقية الأصول فإذا سقط فإن بقية الأصول تسقط مباشرة فإذا اعتبرنا النفس هي الأصل الأول فلا قيمة لبقية الأصول (إذا فُقدت النفس) لأنها أساس الحياة وأساس كل الحقوق المترتبة عليها وهكذا تبنى القاعدة : الأول أساس للثاني والثاني أساس للثالث والثالث أساس للرابع حتى الأصل الخامس .

الملاحظة الأخيرة : إن مقاصد الشريعة الإسلامية ـ وهذا هو المهم ـ هي الأساس المتين لحقوق الإنسان في كل زمان ومكان ، لأنها ركزت على الجوهر المتعلق بإنسانية الإنسان ـ أصل الخلق المشترك ـ وبحقوقه الأساسية وهي حق الحياة وحق التدين وحرية الاعتقاد وإبداء الرأي وحق التفكير وشملت جميع حقوق الإنسان المادية والمعنوية ـ المباشرة وغير المباشرة ـ وهي مصالح ضرورية للإنسان باعتبارها حقوقاً له من الآخرين يجب عليهم الالتزام بها، وواجبات للآخرين عليه الالتزام بأدائها، فالحق مصلحة قررها الشارع لنفع صاحبها وفي نفس الوقت هو واجب عليه تجاه الآخرين يجب عليه تأديته.

وهكذا نجد إن مقاصد الشريعة الإسلامية قد بلغت في الإيمان بالإنسان ـ أولا ـ وتقديس حقوقه حداً تجاوزت بها مرتبة الحقوق المكتسبة واعتبرتها ضرورات حياتية لا يمكن الاستغناء عنها ، تدخل في إطار الواجبات ،فحق الحياة وحرية الرأي والاعتقاد ـ وغيرهما ـ هي في نظر الشريعة الإسلامية ضرورات واجبة للإنسان وعليه في نفس الوقت وهذا سر تميزّها عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

<u>الخاتمة :</u>

يمكن القول إن الإسلام ما جاء إلا من أجل الإنسان أولا بمقتضى التكريم الإلهي وإقرار حقوقه المكتسبة بأصل الخلق في كل زمان ومكان ثانياً، وهو في ذلك يختلف عن النظريات والقوانين الوضعية التي نظّرت لحقوق الإنسان واهتمت بها قبل اهتمامها بالإنسان ، وهي تشبه المزارع الذي يهتم بالثمرة دون الاهتمام بالشجرة التي تعطيها.

فالإسلام قد أرسى دعائمه المختلفة على ثلاث قواعد هي : التوحيد والمساواة والحرية ،وجميعها أكدت على إنسانية الإنسان وعلى حقوقه ـ بحكم إنه كذلك ـ ،فالتوحيد مساواة وحرية بين جميع البشر وكلهم متساوون في العبودية والخضوع لله، وهم أحرار في عبوديتهم لله وحده ، ولهم كامل الحرية في عدم عبادته على أساس أن الدين اقتناع لا يبنى على الإكراه.

والمساواة وحدت الناس وسوت بينهم وجعلتهم أحراراً لا فرق بينهم إلا بالعمل الصالح النافع للبشرية قاطبة ، وكل العبادات الإسلامية تؤكد على مبدء المساواة يومياً من خلال صلاة الجماعة التي تساوي بين الغني والفقير وبين الحاكم والمحكوم ، لأنهم يقفون في صفوف متساوية أمام خالق واحد ينظر إلى قلوبهم ولا يهتم بمظاهرهم ومناصبهم ، والصوم مساواة في الجوع بين من يملك كل شي وبين من لا يملك أي شيء، والحج مساواة بين جميع المخلوقات في اللباس وفي القيام بكل الشعائر المرتبطة به .

والحرية التي نادى بها الإسلام هي توحيد ومساواة ،فالناس أحرار في التوحيد وفي عدمه وهم متساوون في ذلك .

المبادئ الإسلامية الإنسانية السابقة هي جوهر حقوق الإنسان التي أكدها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في 10ديسمبر 1948م.

وإذا تصفحنا مواد ذلك الإعلان وجدناها متطابقة مع المبادئ التي نادى بها وأقّرها الإسلام وهذا ما أثبتناه من خلال هذا البحث .

فنظرة الإسلام إلى الآخر المخالف في العقيدة نظرة إنسانية متقدمة لأنها تنظر إلى أبعد من الأعراض الخارجية التي لا دخل للإنسان فيها ـ مثل الجنس واللون

واللغة والعقيدة ـ فالإسلام ينظر إلى الأصل المشترك الذي أنبنى على أساسه التكريم الإلهي للبشرية جمعاء ، فجميع الناس عبيد لله وأبناء لآدم عليه السلام ، من أجل ذلك كانت وثيقة المدينة بين المسلمين واليهود والنصارى وبقايا مشركي المدينة هي أول دستور مكتوب في العالم القديم ينظم العيش المشترك على أساس المواطنة المتساوية بين مواطني المدينة دون امتياز لأحد على الآخر .

فالآخر في الوثيقة له نفس الحقوق التي للمسلم وعليه نفس الواجبات لأنهم جميعاً مواطنون لا رعايا. ولقد كانت الحقوق في الإسلام ثمرة يانعة للواجبات ، فحقوق الإنسان في الإسلام هي نتيجة منطقية لواجباته وشعارها: أدِ ما عليك من واجبات تعود عليك على هيئة حقوق ، وهنا مربط الفرس بالنسبة لحقوق الإنسان في الإسلام، وهذا اختلاف طبيعي وجوهري في نفس الوقت بين المنظومة الإسلامية الحقوقية المتكاملة وبين القوانين الوضعية التي نظرّت لحقوق الإنسان ، فالمنظومة الإسلامية لا تكتفي بالحصول على الحق والمطالبة به، بل تجعل القيام بالواجب وتأديته أهم من المناداة بالحقوق، لان المطالبة بالحق فطرة وجبلّة في الإنسان لا يمكنه السهو عنها ،أما الواجب فإن الغالب من الناس يجد في تأديته مشقة يتهرب منها دائماً ،ولذلك حرص الإسلام على أن يجعل القيام بالواجب هو المقدمة الصحيحة التي تؤدي إلى الحقوق .

وتشمل هذه القاعدة جميع أفراد المجتمع من الأبناء والآباء والأزواج والزوجات والحاكم والمحكوم ، فإذا أدى كل فرد واجبه تجاه الآخر من خلال موقعه فإنه سوف يحصل على جميع حقوقه المترتبة على التزامه بواجباته .

وبالنظر إلى مقاصد الشريعة الإسلامية فقد راعت وكفلت حقوق الإنسان من خلال المحافظة على أهم مقومات إنسانيته وهي : نفسه وعقله وحريته في التدّين وعرضه وماله ،وجعلت المقصد الرئيسي من وجودها هو المحافظة على كل ما يكفل للإنسان إنسانيته ، وجميع مقاصد الشريعة الإسلامية هي لب وجوهر حقوق الإنسان التي دعا إليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

وفي الأخير يمكن القول أن نظرية حقوق الإنسان في الإسلام نظرية كاملة شاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها من لدن حكيم خبير وهي تتميز عن النظريات الوضعية ـ كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان ـ بأنها تقدمّ الإنسان على الحقوق، وتجعل الحقوق هبة من الخالق لمن خلق ولا يجوز له التنازل عنها تحت أي ظرف وأي مسمى لأنها ليست ملكه ،وهي بخلاف الإعلان العالمي الذي يرى أن تلك الحقوق حقوقاً طبيعية وليست هبة من الله ويمكن للإنسان التنازل عنها متى شاء وأنى شاء . وفي الأخير نقول : أن كل اجتهاد بشري بحكم أنه كذلك يظل عرضة للنقص في كل الأحوال ، فإن وفقت في بعض ما طرحت ، فهذا توفيق منه سبحانه وتعالى ، وإن أخطأت ، فأرجو من القراء المسامحة ،وأتمنى من الله العفو الكريم أن يغفر لي ويعاملني بحسب نيتي . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجع الفصل السادس

(1) ينظر : ابن منظور .لسان العرب .ج6 . دار صادر، بيروت .ط1/ (د - ت) ص232-233.

(2) عبد الوهاب خلاَّف : علم أصول الفقه ،ص197 ،مرجع سابق.

(3) ينظر : مقاصد الشريعة محور حقوق الإنسان ، من ص103 إلى ص106 ، مرجع سابق .

(4) ينظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة . دار احياء التراث العربي ، بيروت .ط1/ 2001م. ص647. وينظر ايضا : ابن منظور. لسان العرب ج11، ص458. سابق .

(5) ينظر : مرام البعلبكي : مدخل الى تاريخ الفكر العربي ومنهجه في النقد . دار الحداثة ، بيروت .ط1 . ص92.

(6) زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي .دار الشروق ، القاهرة .ط8/1987م. ص311.

(7) ينظر : عرفات عبد الخبير الرميمة : مقام الانسان في الفكر الفلسفي الاسلامي . ص90. سابق .

(8) ينظر : حسن مقبولي الاهدل : أصول الفقه الاسلامي .الجيل الجديد ، صنعاء.ط2/1991م.ص213- 214.

(9) ابو حامد الغزّالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس .دار الآفاق الجديدة ، بيروت .ط5/1981م.ص57.

(10) ينظر : عرفات عبد الخبير الرميمة : الجاحظ بمعياري الفلسفة وعلم الكلام.ص132. سابق .

(11) ينظر : عرفات عبد الخبير الرميمة : مقام الانسان في الفكر الفلسفي الاسلامي . ص73 .سابق

(12) نقلاً عن: يسري محمد ارشد : حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي ،ص70،مرجع سابق .

(13) ينظر: حسن الصفّار : الحوار والانفتاح على الآخر .دار الهادي .بيروت .ط1/2004م. ص111.

(14) طه جابر العلواني : مقاصد الشريعة . ص138. سابق .

(15) احمد القبانجي : الله والانسان .دار الانتشار العربي ،بيروت .ط1/2009م.ص108.

(16) ينظر : ابن منظور : لسان العرب ج6/ ص94 . سابق.

(17) طه جابر العلواني : لا أكراه في الدين . ص94. سابق.

(18) ينظر : عرفات عبد الخبير الرميمة : مقام الانسان في الفكر الفلسفي الاسلامي . ص70 .سابق.

(19) محمد الغزالي : ليس من الاسلام . دار الشروق ، القاهرة .ط2008/3م.ص9.

(20) ينظر :زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي،.ص309- 310.سابق.

(21)علال الفاسي : مقاصد الشريعة ومكارمها ، ص9،مرجع سابق .

(22) عمر عبيد حسنة : حقوق الانسان محور مقاصد الشريعة . ص18. سابق.

(23) ينظر :عبد الوهاب خلاّف : علم أصول الفقه ص207،مرجع سابق.

(24) ينظر : طه جابر العلواني : لا اكراه في الدين . ص39 -40. سابق.

(25) يسرى محمد ارشد : حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي ،ص83،مرجع سابق .

ملحق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عا1948م .

المادة 1: يولد جميع الناس أحراراً و متساوين في الكرامة والحقوق ، وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء ،

المادة 2 : لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان دون تمييز من أي نوع ، ولا سيما التمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي سياسياً أو غير سياسي ، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو المولد أو أي وضع آخر ، وفضلاً عن ذلك لا يجوز التمييز على أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص ،سواء أكان مستقلاً أو موضوعاً تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعاً لأي قيد آخر على سيادته .

المادة 3 : لكل فرد حق في الحياة والحرية وفي الأمان على شخصه .

المادة 4 : لا يجوز استرقاق أحد أو استعباده ويحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورهما .

المادة 5 :لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الحاطة للكرامة .

المادة 6 :لكل إنسان في كل مكان الحق بأن يُعترف له بالشخصية القانونية .

المادة 7 : الناس جميعاً سواء أمام القانون ، وهم متساوون في حق التمتع بحماية القانون دون تمييز ،كما يتساوون في حق التمتع بالحماية من أي تمييز ينتهك هذا الإعلان ومن أي تحريض على مثل هذا التمييز .

المادة 8 : لكل شخص حق اللجوء إلى المحاكم الوطنية المختصة لإنصافه الفعلي من أية أعمال تنتهك الحقوق الأساسية التي يمنحها له الدستور أو القانون .

المادة 9: لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفياً .

المادة 10:لكل إنسان على قدم المساواة التامة مع الآخرين الحق في أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة ، نظراً منصفاً وعملياً للفصل في حقوقه والتزاماته وفي أية تهمة جزائية توجه إليه .

المادة 11:- كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن يثبت ارتكابه لها قانونياً في محاكمة علنية تتوفر له فيها جميع الضمانات اللازمة للدفاع عن نفسه .

- لا يدان أي شخص بجريمة بسبب أي عمل أو امتناع عن عمل لم يكن في حينه يشكل جرماً بمقتضى القانون الوطني أو الدولي، كما لا توقع عليه أية عقوبة أشد من تلك التي كانت سارية المفعول في الوقت الذي ارتكب فيه الفعل الجرمي .

المادة 12:لا يجوز تعريض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو في شؤون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته ولا لحملات تمس شرفه وسمعته ،ولكل شخص حق في أن يحميه القانون من مثل ذلك التدخل أو تلك الحملات .

المادة 13 : لكل فرد حق في حرية التنقل وفي اختيار محل إقامته داخل حدود الدولة .

2- لكل فرد حق في مغادرة أي بلد - بما في ذلك بلده - وفي العودة إليها .

المادة 14 : لكل فرد حق التماس ملجأ في بلدان أخرى والتمتع به خلاصاً من الاضطهاد لا يمكن التذرع بهذا الحق إذا كانت هناك ملاحقة ناشئة بالفعل عن جريمة غير سياسية أو عن أعمال تناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها .

المادة 15: لكل فرد حق التمتع بجنسية ما ،لا يجوز تعسفاً حرمان أي شخص من جنسيته ولا من حقه في تغييرها .

المادة 16 : للرجل والمرأة متى أدراكا سن البلوغ حق التزوج وتأسيس أسره دون أي شرط أو قيد ،بسبب العرق أو الجنسية أو الدين ،وهما متساويان في الحقوق لدا حال وجود الزواج وفي حال انحلاله ، لا يعقد الزواج إلا برضا الطرفين المزمع زواجهما رضاءً كاملاً لا إكراه فيه ، الأسرة هي الخلية الطبيعية والأساسية في المجتمع ،ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة .

المادة 17: لكل فرد حق في التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره ،لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً .

المادة 18 : لكل شخص حق في حرية الفكر والوجدان والدين ،ويشمل هذا الحق حريته في تغيير دينه أو معتقده وحريته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم بمفرده أو مع جماعة ،وأمام الملأ أو على حده .

المادة 19 : لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها للآخرين بأية وسيلة دون اعتبار للحدود .

المادة 20: لكل شخص حق في حرية الاشتراك في الاجتماعات والجمعيات السلمية ، لا يجوز إرغام أحد على الانتماء إلى جمعية ما .

المادة 21: لكل شخص حق المشاركة في إدارة الشئون العامة لبلده ،إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارون بحرية ، لكل شخص بالتساوي مع الآخرين حق تقلد الوظائف العامة في بلده ، إرادة الشعب هي مناط سلطة الحكم ،ويجب أن تتجلى هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجري دورياً بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السري أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرية التصويت .

المادة 22: لكل شخص بوصفه عضواً في المجتمع حق في الضمان الاجتماعي ومن حقه أن توفر له من خلال المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق مع هيكل كل دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي لا غنى عنها لكرامته ولتنامي شخصيته .

المادة23: لكل شخص حق في العمل وفي حرية اختيار عمله وفي شروط عمل عادلة ومرضية وفي الحماية من البطالة ، لجميع الأفراد ـ دون أي تمييز ـ الحق في اجر متساو عن العمل المتساوي ، لكل فرد يعمل حق في مكافأة عادلة ومرضية تكفل له ولأسرته عيشة لائقة بالكرامة البشرية وتستكمل عند الاقتضاء بوسائل أخرى للحماية الاجتماعية ، لكل شخص حق إنشاء النقابات مع آخرين أو الانضمام إليها من أجل حماية مصالحه.

المادة 24: لكل شخص حق في الراحة وأوقات الفراغ وخصوصاً في تحديد معقول لساعات العمل وفي إجازات دورية مأجورة .

المادة 25: لكل شخص حق في مستوى معيشة يكفي لضمان الصحة والرفاهة له ولأسرته وبخاصة على صعيد المأكل والملبس والمسكن والعناية الطبية وصعيد الخدمات الاجتماعية الضرورية ،وله الحق في ما يأمن به الغوائل في حالات البطالة أو المرض أو العجز أو الترمل أو الشيخوخة أو غير ذلك من الظروف الخارجة عن إرادته التي تفقده أسباب عيشه ، للأمومة والطفولة حق في رعاية ومساعدة خاصتين ولجميع الأطفال حق التمتع بذات الحماية الاجتماعية سواء ولدوا في إطار الزواج أو خارجه .

المادة 26: لكل شخص حق في التعليم، ويجب أن يوفر له مجاناً وعلى الأقل في مرحلتيه الابتدائية والأساسية، ويكون التعليم الابتدائي إلزاميا، ويكون التعليم الفني والمهني متاحاً للعموم ،ويكون التعليم العالي متاحاً للجميع تبعاً لكفاءتهم ،

يجب أن يستهدف التعليم التنمية الكاملة لشخصية الإنسان واحترام حقوقه وحرياته الأساسية ، كما يجب أن يعزز التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الأمم وجميع الفئات العنصرية والدينية ،وأن يؤيد الأنشطة التي تضطلع بها الأمم المتحدة لحفظ السلام ، للآباء ـ على سبيل الأولوية ـ حق في اختيار نوع التعليم الذي يُعطى لأولادهم.

المادة 27: لكل شخص حق المشاركة الحرة في حياة المجتمع الثقافية وفي الاستمتاع بالفنون والإسهام في التقدم العلمي وفي الفوائد التي تنجم عنه ، لكل شخص حق في حماية المصالح المعنوية والمادية المترتبة على أي إنتاج علمي أو أدبي أو فني من صنعه .

المادة 28: لكل فرد حق التمتع بنظام اجتماعي ودولي يمكن أن تتحقق في ظله الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاماً .

المادة 29 :على كل فرد واجبات تجاه الجماعة التي فيها وحدها تنمو شخصيته النمو الحر الكامل ، لا يخضع أي فرد في ممارسة حقوقه وحرياته إلا للقيود التي يقررها القانون ،مستهدفاً منها ـ حصراً ـ ضمان الاعتراف الواجب بحقوق وحريات الآخرين واحترامها والوفاء العادل من مقتضيات الفضيلة والنظام العام ورفاه الجميع في مجتمع ديمقراطي ،لا يجوز بأي حال أن تمارس هذه الحقوق على نحو يناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها .

المادة 30 : ليس في هذا الإعلان أي نص يجوز تأويله على نحو يفيد انطواءه على تخويل أي دولة أو جماعة أو أي فرد أي حق في القيام بأي نشاط أو بأي فعل يهدف إلى هدم أي من الحقوق والحريات المنصوص عليها فيه .

قائمة المصادر والمراجع

ـ إبراهيم عبد الله المرزوقي : حقوق الإنسان في الإسلام ، المجمع الثقافي ابوظبي ،ط2/2000م،

ـ ابن فارس : معجم مقاييس اللغة . دار احياء التراث العربي ، بيروت .ط1/ 2001م.

ـ ابن منظور : لسان العرب ،ج1/،دار صادر ،بيروت ،طبعة أولى (د ،ت).

ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج1، ، تح :محمد فهمي السرجاني ،المكتبة التوفيقية بالأزهر ،(د ـ ت).

ـ أبو اليزيد العجمي : حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم، شهرية دعوة الحق .مكة المكرمة .عدد 22.اكتوبر1983م.

ـ أبو حامد الغزّالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس .دار الآفاق الجديدة ، بيروت .ط5/1981م..

ـ احمد الرسيوني واخرون : حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة. لأمة ، قطر ، العدد(87) ابريل /2002م.

ـ احمد القبانجي : الله والإنسان .دار الانتشار العربي ،بيروت .ط1/2009م.

ـ احمد أمين : فجر الإسلام ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،ط15 ،(د، ت).

ـ احمد خواجة ،: الله والإنسان في الفكر العربي والإسلامي ،منشورات عويدات ،بيروت ،ط1/1983م .

ـ احمد قائد الشعبي : وثيقة المدينة ،المضمون والدلالة ،كتاب الأمة ،قطر .العدد (110) ذو القعدة

ـ إسماعيل الفاروقي : اسلامية المعرفة. تر : عبدا لوارث سعيد ،دار البحوث العلمية ،الكويت ط1/1984م.

ـ أمين نعمان الصلاحي : من وسائل القرآن في اصلاح المجتمع. كتاب الأمة . قطر. العدد 127. سبتمبر2008م.

ـ الهام عبد الحميد ،وكمال غيث : التعليم وحقوق الإنسان في مصر. مركز الدراسات والمعلومات لحقوق الإنسان، القاهرة ،(د ،ت).

ـ الخليل بن احمد : كتاب العين ج3/. تح :مهدي المخرومي ،وابراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال ،بيروت، (د،ت) .

ـ الزمخشري : الكشاف .الجزء الثاني .دار المعرفة .بيروت .(د. ت).

ـ الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة ،الجزء الثاني ،دار المعرفة ،بيروت . (د،ت) .

ـ الشوكاني : فتح القدير ج3. .تح :عبد الرزاق المهدي .دار الكتاب العربي .بيروت .ط1/1999م.

ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج3 ،دار المعارف ،(د ،ت).

ـ آمنه محمد نصير: إنسانية الإنسان في الإسلام ،دار الشروق ،القاهرة،ط1989/1م.

ـ انور الجندي : معلمة الإسلام .المكتب الاسلامي .بيروت .ط1980/2م.
ـ توشيهيكو ايزوتسو : الله والإنسان في القرآن. تر: هلال الجهاد .مركز دراسات الوحدة العربية .بيروت .ط2007/1م.

ـ جودت سعيد : الإنسان كلا وعدلا ،دار الفكر المعاصر،بيروت،ط1993/1م.

ـ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام /ج1 .دار الجيل ،بيروت .ط1996/14م.
ـ حسن الباش: الإنسان في ميزان القرآن ،. كلية الدعوة الإسلامية ،طرابلس 'ليبيا .ط1428/3هـ.
ـ حسن الصفار : الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان .المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء .المغرب .ط2005/1م.

ـ حسن الصفّار : الحوار والانفتاح على الآخر .دار الهادي .بيروت .ط2004/1م.

ـ حسن حنفي : دراسات اسلامية دار التنوير .بيروت.ط1982/1م
حسن صعب : الإسلام والإنسان . دار العلم للملايين ،بيروت .ط1981/1م.
ـ حسن محمد العاملي : نظرية المعرفة ..الدار الإسلامية .بيروت .ط1990/1م.

ـ حسن مقبولي الاهدل : اصول الفقه الإسلامي .الجيل الجديد ، صنعاء.ط1991/2م.

ـ حسين مروة ،وآخرون : دراسات في الإسلام ،دار الفارابي ،بيروت ،ط1980/1م.
ـ دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام. تر: محمد عبد الهادي ابو ريده .دار النهضة المصرية .القاهرة .ط5(د ـ ت) .

ـ راشد الغنوشي : الحريات العامة في الدولة الإسلامية ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ،ط1993/1م.

ـ روجيه جارودي : لماذا اسلمت ؟ محمد عثمان الخشت .مكتبة القرآن ، القاهرة .(د ـ ت).

ـ روجيه جارودي : الأصوليات المعاصرة ، تر :خليل احمد خليل ،دار عام ألفين ، باريس ، ط1994/1م.

ـ زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي .دار الشروق ، القاهرة .ط1987/8م.

ـ سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ،دار الشروق، القاهرة ،ط1989/12م.

ـ صفي الدين المباركفوري : الرحيق المختوم ،دار الوعي الثوري ،تعز ،اليمن (د ،ت).
ـ طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران : محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة . دار الهادي ، بيروت .ط1/ 2003م.

ـ طه جابر العلواني : لا أكراه في الدين. مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة .ط2/نوفمبر2006م.

ـ طه جابر العلواني : مقاصد الشريعة . دار الهادي ، بيروت .ط1/دار الهادي ، بيروت .ط2001/1م.

ـ طه حسين : الفتنة الكبرى ،الجزء الأول ،دار المعارف ،القاهرة ،ط7/ (د ،ت).
ـ عائشة عبد الرحمن: القرآن وقضايا الإنسان . دار المعارف .القاهرة .(د ـ ت).

ـ عائشة عبد العزيز الحشر : خلف أسوار الحر ملك ، الدار العربية للعلوم ،بيروت ،ط1/ 2007م.
ـ عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة (د ـ ت).

ـ عبد الحميد شعبان : الإسلام وحقوق الإنسان ،فصلية أبواب ، دار الساقي ،بيروت ، العدد (26) خريف /2000م.

ـ عبد الرزاق الداوي : موت إنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر. دار الطليعة ،بيروت .ط1992/1م.
ـ عبد الصبور شاهين : أبي آدم .مكتبة الشباب .القاهرة .(د ـ ت) .

ـ عبد الكريم زيدان : المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2002/16م.

ـ عبد الكريم زيدان : الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط1996/5م.

ـ عبد الله العروي : مفهوم الحرية ،المركز الثقافي العربي ،بيروت ،ط1993/5م.
ـ عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل .المعهد العالمي للفكر الاسلامي .هيرندن.فرجينيا. أمريكا .(د ـ ت).

ـ عبد الوهاب خلاَّف : علم أصول الفقه، دار القلم، الكويت. ط1986/20م.

ـ عرفات عبد الخبيرالرميمة : الجاحظ بمعياري الفلسفة وعلم الكلام ، رسالة ماجستير غير منشوره، جامعة عدن ، يناير /2008م.

ـ عرفات عبد الخبير الرميمة : الإنسان في الفكر الفلسفي الإسلامي .اطروحة دكتوراه غير منشوره/كلية الآداب /جامعة عدن .2013م .

ـ علاّل الفاسي : مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ،دار الغرب الإسلامي ،المغرب ، ط1993/م.

ـ علي بن علي الاهدل، وعبد الحكيم السر وري: أضواء على الثقافة الإسلامية ، دار القدس ،صنعاء ،ط2006/2م.

ـ علي حرب : الحقيقة والتأويل .دار التنوير .بيروت. ط2007/م.

ـ علي سأمي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج1 ..دار المعارف .القاهرة .ط9.(د ـ ت) .

ـ علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب. تر: محمد عدس، الناشر مجلة النور الكويتية ،ط1/1994م .

ـ عماد عمر : سؤال حقوق الإنسان ،عمان الأردن ،ط1/2000م.

ـ عمر القرابي : حقوق المرأة بين المواثيق الدولية والإسلام السياسي، منشورات مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ،(د،ت).

ـ غانم جواد : الحق قديم ،وثائق حقوق الإنسان في الثقافة الإسلامية ، ،مركز القاهرة لدراسة حقوق الإنسان،ط2000م.

ـ فتحي يكن : كيف ندعو إلى الإسلام ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط13/1991م.

ـ فريتجوفشيئون : المعرفة شرط إنسانية الإنسان ،تر : نهاد خياطه ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،ط1/2000م.

ـ فريتس شيتاب : الاسلام شريكاً. تر :عبد الغفار مكاوي .عالم المعرفة .الكويت .ابريل 2004م.

ـ فهمي هويدي : القرآن والسلطان .دار الشروق القاهرة .ط4/1999م.

ـ لورافيشافاغليري: دفاعا عن الإسلام ، تر :منير البعلبكي ، دار العلم ،بيروت ،ط2/1963م.

ـ مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ،تر: عفيف دمشقية ،دار الآداب ،بيروت ،ط1/1980م .

ـ محمد سعيد رمضان البوطي : أبحاث في القمة ،مكتبة الفارابي ،دمشق، (د، ت).

ـ محمد سعيد رمضان البوطي : حرية الانسان في ظل عبوديته لله. دار الفكر .دمشق.ط1/1992م.

ـ محمد سعيد رمضان البوطي : ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة بيروت،ط6/1992م.

ـ محمد أبو زهرة : أصول الفقه ،دار الفكر العربي بيروت (د ـ ت) .

ـ محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية ،الكتاب الثاني ،مجمع البحوث الإسلامية ،القاهرة ،ط/1969م.

ـ محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ،الدار السعودية ،جدة ،ط2/1981م.

ـ محمد أركون : الفكر الإسلامي نقد واجتهاد .تر: هاشم صالح .دار الساقي .بيروت.ط1/2010م.

ـ محمد أسد : منهاج الحكم في الإسلام ،تر : منصور محمد ماضي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،ط1957/1م.

ـ محمد البشاري : التسامح الإسلامي بين الحقيقة والافتراء ،فصلية الكلمة ،بيروت ،عدد(54) شتاء /2007م.

ـ محمد الزحيلي : حقوق الإنسان في الإسلام .دار ابن كثير. دمشق.ط2008/5م.

ـ محمد الطالبي : الحرية الدينية حق من حقوق الإنسان أم قدر الإنسان، ضمن كتاب دراسات في التسامح لمعهد العربي لحقوق الإنسان ،تونس ،1995م.

ـ محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية ،تح: محمد الطاهر الميساري. دار النفائس الأردن .ط2001/2م.

ـ محمد الغزالي : الإسلام والاستبداد السياسي. دار نهضة مصر، القاهرة .ط6/ 2005م.

ـ محمد الغزالي : ليس من الإسلام . دار الشروق ، القاهرة .ط2008/3م.ص9.

ـ محمد الغزالي : فقه السيرة .عالم المعرفة ،بيروت .ط1988/8م.

ـ محمد الغزالي : السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ،ط6/اكتوبر1989م.

ـ محمد الغزالي : خلق المسلم ،دار القلم ،دمشق ،ط1998/13م.

ـ محمد الغزالي : الطريق من هُنا ، دار الشروق ،القاهرة ،ط1997/4م.

ـ محمد أمين المصري : سبيل الدعوة الإسلامية ،ار الأرقم ،الكويت ،ط1983/3م.

ـ محمد باقر الصدر: المدرسة الإسلامية ،دار الكتاب الإيراني ،بيروت ، ط /1981م ،.

ـ محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي : تفسير الفخر الرازى.دار إحياء التراث العربى ، (د ـ ت) بيروت .

ـ محمد شحرور : الإسلام والإيمان منظومة القيم .دار الأهالي ، دمشق .ط1996/1م.

ـ محمد عابد الجابري. الديمقراطية وحقوق الإنسان .مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت .طبعة أولى 1994م.

ـ محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي ،دار الطليعة ،بيروت ، ط1985/2م.

ـ محمد عبد الفتاح الخطيب : حرية الرأي في الإسلام ،كتاب الأمة العدد (122)ديسمبر/2007م،قطر .

ـ محمد عمارة : الإسلام وحقوق الإنسان ،دار الشروق ،القاهرة ،ط1989/1م.

ـ محمد فواد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القران ،مؤسسة جمال ،بيروت . (د ،ت) .

ـ محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ،ج2.دار الشروق ،القاهرة .ط1983/5م.

ـ محمد قطب : شبهات حول الإسلام ،دار الشروق ،القاهرة . ط1997/12م .

ـ محمد متولي الشعراوي : الإسلام وحركة الحياة .دار المختار الإسلامي ، القاهرة.

ـ محمد متولي الشعراوي : في تربية الإنسان المسلم . دار العودة، بيروت .ط/1986م.

ـ محمد مفتي ، وسامي الوكيل : النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان، كتاب الأمة ،قطر (25) شوال /1410هـ .

ـ محمود عكأم : الإنسان في الإسلام ،.دار فصلت للنشر .حلب .ط1999/2م.

ـ مراد هوفمان : الإسلام كبديل . الناشر مجلة النور الكويتية، ط1993/1م.

ـ مرام البعلبكي : مدخل الى تاريخ الفكر العربي ومنهجه في النقد . دار الحداثة ، بيروت .ط1

ـ مهدي فضل الله : العقل والشريعة ،دار الطليعة ،بيروت ،'ط1995/1م.

ـ نايف العباسي : الجوهرة في التوحيد ،دار ابن كثير ،دمشق ،ط/1987م.

ـ نصر حامد ابو زيد : الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي ،بيروت،ط2000/1م.

ـ نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص .المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء .المغرب .ط2005/6م.

ـ هاني سليمان الطعيمات : حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ،دار الشروق، القاهرة ،ط2001/1م،.

ـ ول ديورانت : قصة الفلسفة ،تر :فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف ،بيروت،ط1982/4م.

ـ يوسف القرضاوي : شريعة الإسلام ،المكتب الإسلامي ، بيروت . ط1983/3م.

ـ يوسف القرضاوي : السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مكتبة وهبه ،القاهرة ،ط1،/1998م.

ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ،دار القلم، بيروت ،(د، ت) .

تم بحمد الله وتوفيقه